"دماء أبوللو"

- رواية -

د. زين عبد الهادي

٢٠٠٧

"الأسطورة كالماء.. هى كل شئ"

زين

الجزء الأول

(١)

تترنح خطواتي الصغيرة فوق حجارة الشارع المربعة السوداء فتكاد لاتترك أثرا فيها، تتجمع فوقها قطرات الندى فى الصباح الباكر فأراها لامعة الحواف كنجوم متلألئة متراصة بجوار بعضها البعض فى نظام دقيق، تبدو متماسكة الجوانب، حتى النتوءات السوداء الصغيرة اللامعة بارزة، لاتلاحظها العين للوهلة الأولى، تبدو كأنها صنعت هى الأخرى بإحكام مطلق كأن صانعها لايمت للبشر بصلة.

حتى المنازل الخشبية القديمة المترعة بالرطوبة ورائحة البحر ولمسات واحتكاكات أجيال لم يعد لها أثر تبدو كأنها تنتمى لعصور ماقبل التاريخ، لونها البنى الغامق وبعض الشروخ التى انبثق منها لباب الخشب كل ذلك يوحى بأن هناك شيئا ما تحس به ينتمى لحقبة موغلة في الزمن، إن لم يكن حتى الوجود، إحساس يقطعه فجأة صوت صافرة سيارة الإسعاف يملأ الجنبات، مقتحما الفراغ فى إصرار غريب، أو صراخ لامرأة خلف أحد الأبواب لايمكنك أن تحدد مكانه على الإطلاق، أو مواء قطة فقدت صاحبها، لا أرى أحدا، فقط ألمح بعض الأدخنة المتصاعدة هنا وهناك، لامكان محدد لها، كأن المدينة كلها تحترق، أحدق فى الأركان يواجهني صمت مريب، الصفحة العلوية الزرقاء يقترب لونها من الاحمرار، لا أدرى سببا لاضطرابي، لكننى أدركت فجأة أن هناك شيئا ما قد حدث لأبوللو!.

(٢)

صوت موسيقى شرقية راقصة مكتوم، آت من مكان ما غامض، كأنه يتمرد على صوت الموسيقى العسكرية الزاعقة التي أصرت الإذاعة على بثها يوميا فاختفت أغاني الحب لتحل محلها أغاني لعبد الوهاب وعبد الحليم وأم كلثوم ووردة وفايزة ونجاة، لاتتحدث سوى عن الوطن، كأن الوطن لم يعد يعرف الحب في ذلك الوقت، الوطن لايسمع سوى صوت الرصاص والمدافع التي كان يجب أن نسمعها جميعا، لكننا لم نسمع شيئا، أما صوت المذيع المتجهم ببياناته العسكرية المتلاحقة التي كانت تعلن الانتصارات تلو الانتصارات فكان قد خفت فجأة خلال الساعات الماضية، لا أصادف وجوهاً هذا اليوم أيضاً، لم أجدها في المنزل رغم مروري عليها لليوم الثالث بعد أن أعلن عبد الناصر النكسة ، وكان السؤال القابع في

عقلي المنهك، والذي تطفو فوقه تلك الأفكار الباهتة الخالية من الملامح على فترات متباعدة، سؤال واحد فقط استطعت أن أخرج به، ترى أين ذهبت ؟ !

(٣)

طبول الحرب لم تدع لنا فرصة للتفكير في أي شئ، فقد كان كل شئ يتم على عجلة تتخللها العشوائية والطيش وخوف الموت، الجنون يسيطر على كل شئ، أصوات المدافع لاتكاد تتوقف، أصوات بعيدة مكتومة تأتي من كل مكان، متسارعة أحيانا، على فترات بعيدة في أحيان أخرى.

كان الزمن المحدد للهجرة قصيرا للغاية كما يبدو، وفى هذا الزحام كان البحث عن التفاصيل ضرب من الغباء، أرى نزوح عائلات بأكملها عبر عربات النقل القديمة المتهالكة، وقد جلسوا فوق أسطحها، لاأتبين ملامحهم، والتاكسيات التي تترنح تحت ثقل الأثاث، والحقائب والبقج والوجوه الشاحبة التي تتصبب عرقا غزيرا في هذا الصيف القائظ، وعربات الكارو التي تسير متلاحمة، حتى عربات الحنطور لم تسلم من الأمر، فمالت على جوانبها من كثرة الأشياء التي تم حشرها فيها، ولا حتى المراكب الغائصة بحمولاتها، ولا البسكليتات التي تترنح تحت الأثقال التي وضعت عليها، كانت أى وسيلة متاحة كافية للخروج، وقبل الحرب بقليل، كان أبي قد غادرنا إلى القاهرة ، وربما رحل معه (حامد الفاروقي) أو ربما قبله أو بعده، لا أتذكر ذلك جيدا الآن، كان أبى قد تم ترحيله، نعم أتذكر ذلك الآن، كأنه حدث أمامى البارحة، تم ترحيل أبى فلم يرحل بإرادته، ولا أظن الآن أن "حامد الفاروقى" قد رحل بإرادته هو الآخر، ولا أظن أحدا من أهل بورسعيد قد رحل بإرادته فى ذلك الوقت على وجه التحديد، كان كل شئ يسير فى تلك اللحظة البعيدة ضد الإرادة، لاأدرى السبب الحقيقى وراء ترحيل أبى فى تلك العربة المقفلة الجوانب، لم أستطع حتى الآن تذكر عينيه فى الظلام.

كان قابعا فى قلب العربة من الداخل وبجواره عسكرى غابت ملامحه أيضا، وكانا مربوطين ببعضهما بهذا القيد الحديدي، كنت أقف على بعد عدة أمتار أحاول التحديق فى داخل العربة دون جدوى ، كان هناك شئ ما ليس صحيحا، كنت أشعر بالغرابة والحماقة فى آن واحد، الغرابة لأننى لاأفهم ولا أعى لماذا كان يحدث ذلك ، وكنت أصغر من أن أستطيع مواجهة الأمر بعنف، وكان كل شئ أحمق أيضا، كانت الحماقة هى التى تسيرنا جميعا فى تلك

اللحظة، ليست هناك سوى صور باهتة تتأرجح فى عقلي بين الشك واليقين، وكان هو بعد انطلاق العربة لم يتتعتع من مكانه داخلها، وكان يخيل لى أحيانا أنه يبتسم، منذ عدة ليال وهو بالكراكون، وهاهو الآن يتم ترحيله لاستكمال التحقيقات معه بالقاهرة، أو أن السجن كان ينتظره هناك، ربما لشهر أو عدة شهور قليلة ثم يعود كما فهمت من أمى، كان يرتدى تلك العفريتة الزرقاء، وكانت لحيته قد طالت قليلا، رأيته وهو يصعد العربة، لم يكن هناك شئ قد تغير فيه، كانت عيناه تلمعان بشدة، وكان سعيدا على نحو ما، لاأدرى لماذا كنت اشعر بذلك في تلك اللحظة، إحساس لم يفارقني أبدا بأنه سعيد، رغم كل ماحدث له، ووطدت عزمي على أن أسأله عن هذا الأمر حين أقابله مرة أخرى، لكنى لا أعتقد – لسبب ما غامض – أنني سأفعل ذلك أبدا!.

كان حامد قد أتى من اليمن منذ عدة ليال، وقد رحلا فى وقت متقارب تقريبا، لكنني فهمت أنه ذاهب أولاً للقاهرة ثم إلى سيناء، لم يجلس طويلا مع خالتي حنان، فقط عدة أيام قصيرة، فقد ترك على الحائط صورة له هو وبعض زملائه في اليمن وهم يتكئون فيها على دبابة روسية كما قال، سرت معه وكان يرتدى رداءه العسكري حتى محطة القطار، وكنت أشعر بفخر شديد داخلي، فقد كان بطلاً من أبطال الشوارع، لكن ملامح وجهه كانت قد تغيرت، ربما بفعل ملابسه الكاكية، فلم أكن أراه قبل ذلك إلا بقمصانه البيضاء النصف كم، والسراويل (الدنجريه)* أو (الواتر بروف)** الزرقاء، والأحذية (الكريب)*** البيضاء، وكانت كل الدلائل تشير إلى أننا انهزمنا، ومع الهزيمة يشتد الصمت، أي كلام كان يثير السخط، كان الكلام نوعاً من الرذيلة التي تتم في عرض الشارع، فيراها كل الناس، فعل فاضح، فحين تكتشف أن كل صرخاتك للفرح والحياة، كانت إيذاناً بالموت، فإن أفضل ما تفعله يكون الصمت، صمت ونحيب غير مسموع، لا شيء سوى النحيب، وظلال الموت الذي يخيم على المكان والبشر والحيوانات والنبات والزمن، ذابل كل شيء؛ الأفكار والقدرة.

هكذا كنت أفكر، وكنت قد تعديت العاشرة بقليل، كنت أعيش داخلي فقط، لاحظت وقتها تلك الشعيرات الخضراء النابتة فوق شفتي وأسفل ذقني، وكان جسدي يمتلئ بالشعر يوماً بعد آخر، حتى ظننت أنني سأتحول إلى قرد، وكنت شبيها بجدي إلى حد كبير، فقد كان كتلة من الشعر برأس صلعاء، لكن لونى كان مختلفا، كنت أدقق فى ملامحه ونحن نقف أمام الشاطئ فى كل فجر نذهب فيه لصيد السمك، كان يستند إلى الفلوكة الخشبية القديمة بساقه،

---

* الدنجريه : القماش الجينز وربما تكون هناك علاقة لهذا الاسم باللغة اليونانية!

** الواتر بروف : نوع من القماش اللامع يقال أنه كان لا يبتل، ولا أدري الآن إذا كان ذلك حقيقة أم لا!!

*** الكريب : نوع من النعال أبيض اللون غالبا كان مشهورا في تلك الفترة، ولاأدري إن كان مازال موجودا أم لا!

يشعل سيجارته، وهو يحاول مرات ومرات إشعالها متقيا تلك الرياح العنيفة، كانت تنعكس على عينيه بعض الأضواء القلقة للحظة قصيرة، كانتا صافيتين زرقاوين عميقتين، فكان يبدو لى فى تلك اللحظة كإله يعيد خلق الأشياء وتكوينها، لاأدرى لماذا كان يتسرب إلى هذا الإحساس العجيب، ولا أتذكر الآن من أين كان يأتى، كان عود الكبريت يقدح فى النهاية ويشعل سيجارته، وكانت ملامح وجهه عنيدة، بارزة عضلاتها رغم السنوات الستين التى كان يحملها أو يقف فوقها، هل بسبب إصراره على الصيد فى هذا الوقت غير عابئ بالرياح والبرودة وهدير تلك الأمواج العنيفة، كأنه لايأبه لثورة البحر، كان معتادا على ترويضه وكنت أشعر بأنه يهزأ منه حين يصر على اصطحابي رغم صيحات جدتي، ونظرات الخوف المترددة التى كانت تبدو فى عيني أمى، أما أبي فلم يكن موجودا أغلب الوقت، وحتى إذا وجد كان يشيح بيده لأمي أن تتركني لأتعلم الرجولة، أقف أمامه مرتديا تلك الطاقية الصوفية الزرقاء السميكة، فتختفي رأسى ولا تظهر منها سوى عيناى تقريبا، وكنت قد بدأت الخروج من أوهام طفولتي منذ وقت قريب، أو هكذا خيل لي، فكنت أتخيل (أبوللو) الإله الإغريقي يعبر سماء مدينتنا كل يوم، أتطلع إلى السماء محاولا رؤية عربته الذهبية تسبح فى الفضاء البعيد بجيادها البيضاء، هل أحببت أبوللو لأن به شبها من جدي، أم أحببت جدي لأن به شبها من أبوللو، كيف كنت أشبه جدي بهذا الإله الإغريقي، هل لأني رأيته يوما ما يرفع عربة بأقفاصها الممتلئة بالخضروات والفاكهة من فوق امرأة سقطت تحتها فكادت تقتل، لماذا انحسر عنى هذا الإحساس لأيام حين علمت بأن فتقا قد حدث له فى جدار بطنه جراء فعلته هذه، وأصبح قعيد الفراش لفترة ليست طويلة مرتديا هذا الحزام الأصفر الجلدى العريض، فعدت لأوهامى حول أبوللو، إلى أن قرأت عن سلسلة رحلات (أبوللو) إلى القمر .. لكن فجأة ماتت كل هذه الأوهام والأحلام والخيالات، أصبحت خيالاتي فاترة كالمدينة الآن، الشوارع مقفرة، الكلاب تمرح، تتمسح بجدران الشاليهات الخشبية المهجورة، وبالمقاعد المقلوبة، تتبول عليها رافعة أقدامها الخلفية فى أعماق قماش الشماسى التى تكاد تختفي ألوانها المتعددة، بفعل الرمال، كما كانت تترنح أحيانا على ظهورها جيئة وذهابا كأنها تودع الحياة والبشر، أو كانت تبدو أحيانا راقدة تماما على جوانبها، لاتتحرك، غارقة في مياه البحر، وكذلك الفئران التي كنت أراها أحياناً تركض هنا وهناك، بعض الثقوب في واجهات المساكن الشعبية في المنطقة الأولى والثانية، بفعل زخات رصاص عشوائية، كأنها انطلقت بفعل الخوف، أو أن هناك أشباحا ليلية تراقصت في ذهن بعض المتطوعين في القوات الشعبية، حين كانوا يسيرون ليلاً مغنيين في حزن لايمكن مداراته وبأصوات تحاول أن تتماسك "طفي النور يا وليه .. إحنا عساكر دورية".

كل المسالك إلى البحر أصبحت مغلقة تقريباً، أتسلل في المساء إلى الشاطئ، ضارباً عرض الحائط بكل التحذيرات، كأني أبحث عن حقيقة خيالاتى السابقة، كأني لاأصدق أن ماحدث قد حدث، كأني أعترض على كل ماحدث، كأني أتمنى أن يكون ما أعيشه في تلك اللحظة كابوسا سرعان ماسينتهى وأعود لمدينتى، لكن ذلك لم يحدث على الإطلاق، كان الأمر كله حقيقة، ولم يكن خيالي يعمل جيدا ليخرج بي خارج كل ماأراه!.

(٤)

أضواء زرقاء غامقة باهتة تنبعث من بعض النوافذ وأركان الشرفات المتفرقة المغلقة هنا وهناك، لايمكن تحديد مدى حقيقتها، هل هي موجودة أم لا، ربما هي من صنع خيالاتي؟، كأنها نجوم بعيدة غارقة فى سديمات الفراغ والشهب، كنت أتطلع إليها كأنها أبواب عالم جديد مازال يتكون، لم ينفتح بعد على أحد.

(٥)

أضواء ملونة كانت، وكانت أذرع النساء البيضاء العارية تظهر وتتحرك في تلك النوافذ والشرفات، يجلسن فى العصارى لإزالة تلك الشعيرات التي طالت أكثر من اللازم المختفية فى ثنايا حواجبهن، أو لرسم حدود لتلك الشعيرات فلاتفارقها، أو لأكل البطيخ النمس والشليان مع الجبن الأبيض والخبز الساخن، والمياه الباردة حين يشتد القيظ، أو يتناولن جيلاتى "حميدو" وهو يسير، وينادى، فى الشوارع بعربة الآيس كريم "صنعة يلعن ديك دى صنعة" وقد وقف رافعا رأسه الضخمة الضاحكة، وقد علتها تلك الطاقية الزرقاء الكالحة العريضة، وقد ربطها بخيط سميك حول رأسه وذقنه فلا تطير، وكن يضحكن ويتغامزن، أو وهن يتطلعن لخناقات وشكل* الشوارع بين أبطال وفتوات، كان منهم (حامد الفاروقى) قبل أن يغادرنا إلى اليمن، وكما قال لي بعد زوجه، كانت ملامح جسده كأنها مرسومة بيد فنان مبدع، وكنت أحيانا أعتقد أنه أيضا إله صغير، وهكذا كانت رأسى تزدحم بعشرات الآلهة، كنت

***شكل ويتشاكل: من الكلمات البورسعيدية التى تشير إلى معنى الشجار والزعيق الذى يصل لحد التماسك بالأيدي والتراشق بالألفاظ، وهي تستعمل في بعض مناطق مصر بهذا المعنى.**

أتطلع إلى السماء باحثا عنهم فى الأشكال المختلفة للسحب، أو فى وجوه القمر، حين يصير بدرا، أو فى ضباب الصباح الكثيف فى الشتاء، الذي يندفع كالطوفان بين الشوارع، وإلى داخل البيوت، وكنت أحاول تبين أبوللو فيه، وأتسائل ما إذا كان هذا الضباب إيذانا بمقدمه، لكن أملي كان يخيب، أو أدقق النظر فى ألعاب السماء النارية، حين تنطلق من المدافع فى الاحتفالات الوطنية، إلى أن شعرت ذات يوم بأنني قابلت أبوللو بالفعل، ولا أدرى الآن هل كان ذلك حقيقة أم كان ذلك من نسج أوهامي، خاصة حين تنتابني الحمى من البرد في ليالي الشتاء أو بفعل أوهام الحمى التى اجتاحتني بسبب بعض السمك (الجايف)* الذى أكلته من خلف ظهر أمى وجدتي، كنت ألاحظ أيضا كبار السن يقلبون فى أوراق الصحف، وهم جالسون في الشرفات، أو أسمع تلك الضحكات التى تختلط بتلك الأضواء فى تمازج عجيب، أين راحت اشتعالات الحياة منذ عدة ساعات، عقلي المرهق لا يستوعب هذا التغير المميت، كنت أرى الأمر كله شراً، لكني لم أدرك أبدا ما هي حقيقة الشر، ولا ماهو كنهه أو من أين أتى، أسئلة بدائية جدا كتلك الحالة البدائية التى كنا نعيشها فى هذا الوقت بالذات، ورغم حكايات جدتي عن العفاريت، و(العون)* الأسود الطويل، لم تستطع أبداً أن تلصق بدماغي معنى الشر، إذ كانت تضحك دائماً وهي تحكي وأمامها (سبرتاية)** القهوة، تظل تحكي وتشربها، وأنا جالس واضعاً رأسي فوق فخذها أقلب عيناى فى سحابات السماء، وأتخيل هؤلاء الآلهة العظام وهم مختفون خلف تلك النجوم البعيدة، ولم أكن أظن وقتها أن السماء بهذا الاتساع، حتى أروح في النوم على حكاياتها، وأصوات المدينة التي لا تنتهي.

(٦)

هذا هو اليوم الثالث حسبما حكى لي الطبيب، تركت المستشفى وعبرت إلى الشوارع الحجرية، ذهبت إلى المنزل فلم أجد أحداً في العمارة كلها، خبطت على كل باب فلم يفتح أحد حتى العربى بائع الفل وزوجته رغم يقينى بأنهما بالداخل، بحثت عن مفتاح باب شقتنا ووجدته هناك على نافذة العمارة المطلة على الشارع فى أعلى السلم كما تعودت أمى أن تتركه لى،

---

*تستخدم كلمة جايف فى اللهجة البورسعيدية لتعنى الفاسد، وهى تستخدم بمعناها المجازى ومعناها الحقيقى كأن نقول "الوله ده جايف" بمعنى فاسد العقل أو نتن الرائحة أو سئ التصرفات، وجايف أيضا بمعنى فاسد وغير صالح للأكل.

*العون يعنى فى اللهجة البورسعيدية الجنى أو العفريت.

**سبرتاية أى الموقد الذى يعتمد فى نيرانه على الكحول أو السبرتو، ويستخدم فى استخدامات بسيطة مثل عمل فنجان قهوة أو حرق البخور.

وحين دخلت لم أجد سوى بعض الحواشي القديمة فكنت أنام فوقها، كان العفش كله قد اختفى، حتى صور أبوللو التي كنت أضعها على الحائط أسفل السرير كانت قد اختفت أيضا، وحتى الصور التي كانت معلقة في الغرف، قد تم نزعها جميعا، وتركت على الحوائط آثار لأشكال مربعة، متربة الحواف ، أما شومة أبي التي كان يستخدمها في القتال الفجائي الذي كان يحدث بالشارع فكانت مكانها كما هي خلف الدولاب، فكرت في أن أمي إما باعت كل شئ قبل أن ترحل، أو أنها حملت كل شئ معها، لكنها تركت شيئا وحيدا لي!.

في اليوم الرابع قررت التجول في المدينة باحثاً عن أمي وإخوتي وعمي (خضير) الذى كانت تقول عنه ستى أنه (مجنون مايعرفش عايز إيه؟) (مجنون مجنون مأأنا من غيره هاأبقى لوحدى!)، لم يكن هناك طريق آخر أمامي غير أن أعثر عليه بأي شكل، قررت البحث عنه أولا، لكنني قررت فجأة ولسبب ما غامض ومبهم أن أذهب أولاً إلى الشاطئ في المساء، وأن أرجئ عملية البحث عنه إلى مابعد جولتي المسائية، وأدركت في تلك اللحظة أن الجنون في أسرتنا لم يفرق بين كبير وصغير، كنا جميعا ملاحيس كما تقول جدتي.

اختفت الرايات التي كانت ترتفع على الشاطئ بألوانها المختلفة، بعض الجثث لحيوانات نافقة، انتشار عريض (للحناجل وأبو جلمبو*) يملأ الشاطئ بلونه الرمادي، ينعكس فوقه ضوء القمر كأن هذه الكائنات غير معنية بكل مايحدث لبني البشر، أشعر بأن الشاطئ كله يسير، كأن الأرض دبت فيها الحياة فجأة، فأخذت تتجول على شاطئ البحر تبحث عن مستقر، كأن آثار أقدام الناس، والصبيان، والبنات، كانت الطمي الذى تأكل منه فيسكن جوعها وتخلد إلى السكون، هاهي تتحرك هى الأخرى، الرمال تمتلئ بثقوب وممرات وأنفاق صغيرة، وآثار أقدام لكائنات بحرية وطيور شتى، لم أكن ألاحظ ذلك إلا في الشتاء فقط ولأيام قليلة، تلك الأيام التي لايغرق فيها المد شوارع المدينة، أما الآن فهي موجودة دائما؛ كأن العناكب تغزل بيوتها في كل بقعة في المدينة، مقاعد وشماسي الشاطئ الخشبية متناثرة في إهمال شديد، المقاعد مغروزة رأساً على عقب في الرمال، يسحبها المد رويداً رويداً، أو ترتفع من حولها الرمال بفعل الجزر، وبعضها يكاد يختفي تحت المياه كأنه جثة هامدة.

ألاحظ الصدأ الذي يعلو مواسير أدشاش المياه؛ كيف لم ألاحظه قبل الآن؟، هل من المعقول أنه كان موجودا من قبل؟، كيف لم ألاحظه قبل الآن؟، من أين أتى هذا الصدأ، كيف كنت أمرح هنا منذ عدة ليال غير عابئ بأى شئ، هل كان هذا الصدأ موجودا قبل الآن، مستحيل!!، ألاحظ الكابينات الخشبية في الخلف تعبث في أبوابها رياح البحر، تتبرز فيها الكلاب، وتأكل

* الحناجل أو أبو جلمبو يعنى الكابوريا ومفرد حناجل حنجل وأغلب الظن أن الفعل مشتق من حركة الكابوريا في المشي بمعنى يتحنجل أي يسير على قدم رافعا الأخرى وهو يقفز.

حاشياتها الفئران، وتمرح فيها الحشرات؛ كأن العالم يستبدل بكائناته، كائنات أكثر وضاعة، وربما يكون الأمر هو العكس، بكائنات أكثر رحمة، كأنما تعود هذه الكائنات لمواقعها الحقيقية، كان كل شئ ملتبسا على فهمي الشارد.

(٧)

اختفت أصوات المصطافين وضحكات الأطفال، وصراخ الغرقى، والتماثيل المصنوعة من رمال الشاطئ وصدفات البكلويز* وأم الخلول والحصى الملون، اختفى باعة الشماسى والكراسى، حتى الرجل الذى كان يجلس أعلى السلم يراقب المياه والناس وحركة الأمواج قد اختفى أيضا، اختفى باعة الهريسة والبسبوسة والسمنية والتمرية*، اختفى لاعبو السمسمية وباعة البطيخ، كأن الأرض أعلنت علينا عصيانها جميعا، أين ذهبت التماعات عيون البنات والصبيان، واختفاءاتهم في الأركان لقبلات سريعة يتبادلونها، تعقبها تلك الضحكات البريئة، وتترك أثار احمرار قان على وجوه البنات، اختفت أجهزة الراديو الترانزستور ذات الألوان الحمراء والخضراء والصفراء، التي كانت تحتضن أعالى الشماسي تبث أغاني عبد الوهاب وعبد الحليم وماهر العطار والتلباني ونجاة وثلاثي أضواء المسرح وأبطال ساعة لقلبك، والخواجة بيجو وأبو لمعة وعبد المنعم مدبولى وفؤاد المهندس وخيرية أحمد والدكتور شديد وشكل[1]، سكون مختلط بأصوات بدائية قديمة، هى أصوات الأمواج الميتة وفقاقيع الماء التى تنفجر على الشاطئ محدثة هسيسا غريبا يتحرك فى دوائر الروح المقتولة منذ أيام أو ساعات قليلة، أصوات لاتدركها سوى أذن مدربة على لغة البحر والأمواج.

(٨)

---

*البكلويز : حيوانات بحرية ذات أصداف يؤكل لحمها ويصنع من أصدافها أدوات للزينة، وهي أكبر حجما من أم الخلول وذات شكل دائري.

*حلوى بورسعيدية تصنع غالبا من عجين البسبوسة واللبن والسكر ويتم قليها.

[1] مطربون وممثلون مصريون اشتهروا في فترة الستينيات

أتحسس طريقي عائداً مرة أخرى، أتسلل من بين ثكنات بعض الحراس الذين كانوا يتحركون في صمت، فتنعكس ظلالهم السوداء على الأرض فتتمدد مكونة أشكالا غريبة لاتنتمى لعالمنا الأرضى، وإنما كأنها قادمة من جحيم بعيد، الإضاءة الخفيفة تكشف عن ملامح معذبة، أو هكذا ظننت، فقد كانوا يتحركون بلا نظام وبلا صوت وبلا هدف، هل كنت أعلم ذلك وقتها؟ هل كنت أتخيل؟ وهل كنت أعي، أم أن وعيي كان يتشكل في تلك اللحظة؟ اختلطت فيه الوجوه البريئة والدماء التي تناثرت في كل مكان، اختلط فيها الطفل بالمراهق، إذ لم استطع أن أحكي للطبيب شيئاً، فما كان إلا أن طلب مني أن أكتب طالما أني غير قادر على الحكي، لم أستطع أن أنسى تلك الوجوه أبدا فى هذه الليالى البائسة التى خرجت من إطار الزمن اليومى، إلى أن أصبح لها زمن خاص بها وحدها، زمن بدأت فيه الحياة نفسها تتحول إلى كائن هلامى ليس له أى معنى، فمامعنى الحياة كلها إذا لم نكن قادرين على الفعل، لم يكن هناك أى معنى لأى شئ!.

(٩)

أعتني بأفكاري لكنى لاأكاد أنطق، أغلق عيناى فأرتعد من آلاف الخيالات التى تنخر فى صدري، تتحول كل مخلوقات العالم فيها إلى شياطين ومخلوقات بأنياب طويلة تقطر منها الدماء، فأفتحهما سريعا لأغرق فى الحوارات الليلية التى كان يتبادلها الجميع حول مضايق تيران وقوة الجيش، وجونسون وخديعته لعبد الناصر، وانتحار المشير عامر أو قتله، والانسحاب من سيناء، وآلاف القتلى هناك بالصحراء، ولم أدرك ماهى الحقيقة إلا حين وجدت كل شئ فارغا، فارغا تماما، حتى النخاع كان فارغا، من أين يأتى هذا الجوع للكلمات والضحكات وحتى نهنهة الدموع والنحيب؟ معنىً إنسانى آخر لم يعد موجودا !!.

(١٠)

حين أدركت مذاق الكتابة توقفت حسرتي على عدم القدرة على الكلام.

بدأت الحياة برسومات بدائية على الأوراق، أى أوراق، تحولت الرسومات إلى رموز لاأدرك معناها، كنت أشخبط على كل ماتطوله يداي، وكنت غالبا أبدأ بالرسم، أو أحاول تقليد شكل

الكتابة وعادة ماكنت تنتهي أفعالي إلى فشل ذريع، ولكن مع الوقت تحولت لخطوط وحروف ووقفات بيضاء، إلى أن أدركت أننى بدأت عصر الكتابة، لكن عصر الكلام لدى قد انتهى، الكلام الذي يخرج من الشفاه، هذا الفعل البسيط للغاية أصبح مستحيلا الآن كما أرى، كأن بيني وبينه آلاف الأميال التي ليس باستطاعتي على الاطلاق اجتيازها، كنت محصورا هناك مع بقية الموتى الذين لاأراهم في تلك الصحراء البعيدة، كنت محصورا تماما بين تلك الأشياء فلا أستطيع الإفلات.

(١١)

ها أنا أعبر الشارع الأسفلتي تاركا الأحياء القديمة بأنهار طرقها المصنوعة من تلك الحجارة السوداء، لأقف فى الحد الفاصل بين المدينة القديمة التى كان يعيش فيها الإفرنج من الفرنسيين والنمساويين واليونانيين والايطاليين حين كانت تحفر القناة، وبين قرية العرب التى كان يعيش فيها الناس الذين شكلوا بعد ذلك المدينة وأحياءها، متوجهاً ناحية العمارة التي تقع في منطقة المساكن الشعبية التي أنشأها عبد الناصر بعد الثورة كي يسكن معظم الأهالي بها سواء العاملين في هيئة قناة السويس أو العاملين في مصنع الغزل والنسيج، هذه المبانى المربعة الشكل، مجموعة من المناطق، كل منطقة لها إسم، المنطقة الأولى فالثانية فالثالثة وهكذا، أما أسماء الشوارع فكانت كلها شوارع الأبطال والفتوات، وتكاد تنسى الأسماء الأخرى عدا بعض أسماء الشهداء فى حرب ستة وخمسين، تقع كل مجموعة من العمائر في منطقة ويميز كل منطقة لون مختلف عن المنطقة الأخرى، فالمنطقة الأولى باللون الأبيض والمنطقة الرابعة باللون الأبيض أيضا والمنطقة الخامسة باللون الأحمر، وتنقسم كل عمارة إلى بلوكين لكل بلوك رقم قائم بذاته، ويتكون كل بلوك من أربعة أدوار في كل دور شقتان، وتم بناء بعض الأدوار الخامسة في عام ستة وستين، أي قبل الحرب بعام واحد، أكلت الرطوبة حوائط العمارات وواجهاتها، وتتوافر أمام كل مجموعة من العمارات بقعة خالية أعتبرت كحديقة عامة أرضيتها من النجيل فقط، وقبل هذه العمارات تقع (خرارة الماء) التى تستخدم كمكان لتصريف فضلات العمارات، وأمامها يقع شارع السواحل الذي به سينما الأهلي وحميدو بائع الجيلاتي، والعربي بائع الورد، ونصر بائع الفول السوداني والسجائر والمثلجات كعصير سيدر الذي له طعم التفاح ، وبعض مشتقات الكولا وغيرها من المثلجات المحلية، ثم مصنع الثلج الذي كنت أقف أمامه أشاهد خروج الثلج من الماء كأنني أشاهد عملا

سحريا لايقاوم، أما فئة التجار والسكان القدامى خاصة الأجانب فكانوا يسكنون حى الإفرنج* ثم يمتدون إلى حي العرب مابعد شارع أسوان ومن شارع محمد على وإلى حي المناخ حتى شارع الأمين ضاما معه شوارع مائة وتسعة وتسعون والسواحل وكسرى والشرقية والحميدي والتجاري والثلاثيني وأوجينه وكتشنر**، وكانت أغلب البيوت في هذه الأحياء من الخشب، ثم الامتداد الجديد لحي المناخ ببيوت المناطق الشعبية التي كانت تضم المنطقة الأولى ومنطقة مساكن الموظفين الثانية حتى المنطقة الثامنة***، حيث كان أغلب سكان هذه المناطق من فئة العمال والأرزقية والصيادين والباعة المتجولون، وكل من لم يكن له سكن.

أسير حتى القناة، لا شيء آخر، لا أثر أجده لعجلة (العربي) بائع الفل مساء، العامل في قناة السويس صباحا، ولا لاخوته أو أبنائه، اختفى الأولاد وتزوجوا وظل هو وزوجته الأولى في الشقة المقابلة لنا في العمارة، أما زوجته الثانية فكانت تسكن في حي الإفرنج قريبا من ميدان المنشية، لم يرحلا لا هو ولا زوجته الأولى، فقد اكتشفت بعد عدة أيام بأنه لم يغادر المدينة، رفض الرحيل حين قالت له زوجته الأولى بأنها تريد أن تموت هنا إذا كان هذا قدرها، وبأنه يمكن له أن يرحل مع الراحلين، فهمت ذلك من حواره مع عمي خضير حين قابله بعد الحرب مصادفة، وإن كان قد أشار إلى ذلك من قبل في حواره عن زوجتيه مع أبى حين زاره فى حجز الكراكون* وكان ممسكا ببعض الشطائر فى يده يريد تقديمها لأبى، الذى رفض فى إصرار، فاختفى بعد لحظات بعد أن صب في آذاننا بعض مشاكله مع زوجتيه، كنت أراه أحياناً متوجهاً إلى الفرن فوق عجلته لابتياع بعض الخبز أو لشراء بعض السمك الذي يقوم باصطياده من القناة الداخلية (أو الكنال الداخلي كما نحب أن نسميه) الذي كانت تبدأ حدوده من شارع مائة، كان يراني كأنه لايراني، تغضنت ملامح وجهه خلال بضعة أيام، بضعة أيام فقط من هذا الشهر اللعين، غير وجه المدينة ووجوه الناس وأدى إلى اجتراء الكلاب، وزاد من حجم الفئران، وأعاد تلوين السماء بألوان سوداء، وزادت حتى انحناءات الأشياء، حتى حجارة الشوارع تغير لونها الأسود الفضى، حتى دماء القلوب تغيرت.

المياه ساكنة، المدينة غارقة فى عدم غريب، وبعض السفن تسد مجرى القناة تماماً، بعض التجمعات لبعض الجنود والعاملين القلائل الذين رفضوا النزوح والهجرة، الشمس تعبر السماء في خمول، تختلط في رأسى المربوطة أصوات صرخات فرح الأطفال القديمة بصوت لطمات

---

* **حي الافرنج : الاسم الرسمي له حي الشرق لكنه مشهور باسم حي الافرنج في بورسعيد.**

** **شارع كتشنر أصبح اسمه بعد الثورة شارع ٢٣ يوليو.**

*** **المناطق الشعبية بناها عبد الناصر بعد عدوان ١٩٥٦ الثلاثي على مصر.**

* يطلق البورسعيديون لفظ الكراكون على قسم الشرطة أو نقطة البوليس، ومن المعروف أن هذا الاسم مستخدم في العديد من محافظات مصر، لأنه مأخوذ من اللفظ التركي قره قول.

المياه على سور القناة الأسمنتي، تبخرت أصوات الحياة فجأة، صوت وحيد الآن في وقت الظهيرة في هذا الحر القاتل، صوت الشمس وهسيسها الميت السابح في فضاء بغيض.

عرجت على شوارع الحميدي والأمين حتى شارع محمد علي، لا حس ولا خبر، شراذم قليلة تظهر على البعد وتختفي لباعة ليس لديهم ما يبيعونه، بعض أكوام القمامة المتناثرة هنا وهناك تقف فوقها الكلاب والقطط والفئران التي بدأت تزاحم بعضها البعض، وكأن هناك تحالفا ما بينها بحثا عن مكان لها دون خوف، كان هؤلاء هم سكان المدينة الحقيقيون الآن.

(١٢)

كيف تحولت تلك الجنة فى ساعات قلائل إلى هذا الجحيم، من الذى طردنا منها أو لماذا؟ لم أفكر كثيرا فى تلك الأوقات فيمن ألومه، كنت مهموما بالعثور على أمى وإخوتى، كانت فكرة اللوم فكرة مترفة لااستطيعها الآن، فى مثل هذا العمر وفى تلك اللحظة على وجه التحديد، تفقد الأفكار معناها أحيانا إذ لم يكن لها علاقة باللحظة الآنية، الحياة كلها تفقد معناها، كنت أتسائل فقط عن السارق من بين إخوتى الذى أخذ معه طائرتى الورقية الملونة، أو إلى أين ذهبت أمى وكيف تركتنى هكذا وحيدا؟ أو ماذا أفعل الآن لوحدى؟ وكيف سآكل أو أشرب أو أنام؟ كأننى تائه فى مدينة غريبة لم تعد مدينتى، كيف يمكن لى أن أتصرف بالأعوام العشرة التى أحملها فوق كتفى؟ ولم تكن هناك إجابات شافية. حتى جدتي التي لم تكن تطيق ابتعادي عنها، كيف طاوعها قلبها؟ لم تفعل ذلك من قبل أبدا، حتى خالتى حنان وطفليها وخالتى أم هاشم وخالى مسعد كأنهم ارتدوا جميعا طاقية الاخفاء، أين ذهبوا جميعا؟.. لماذا تركونى وحدى فجأة؟!.

كأن جميع من تآمروا علينا قد اتفقوا على أن تلك هى اللحظة المناسبة لإخراجنا من الجنة!

المدرسة أغلقت أبوابها، تذكرت يومنا الأخير فيها، يوم رحلتنا إلى تلك الجزيرة الصغيرة فى البحيرة، سمعت الكثيرين يتحدثون عن كنوز الملك سليمان التى أغلقت الحكومة عليها أبوابا ضخمة من الحديد حتى لايسرقها أحد، كنا فى هذا الوقت نحمل طعامنا من السندوتشات وقطع الخيار وحبات الطماطم نتجمع فى مجموعات صغيرة ، لنركب هذا المركب الكبير ذا القلع الهائل ليبحر بنا فى بحيرة المنزلة بدءا من منطقة اللنش إلى تلك الجزيرة التى تقع على حافتها الأخرى فى النهاية ، استغرقت الرحلة بضع ساعة وكانت ضحكاتنا تختلط بصراخنا الطفولى،

وحين توقفت المركب أخيرا أمام الجزيرة، وضع لوح خشبى كبير لننزل من فوقه إلى الشاطئ، أمسكنا فى بعضنا أثناء النزول ومع ذلك سقط جميعنا فى الماء بملابسنا وسندوتشاتنا التى أصبحت مبلولة تماما ومالحة الطعم، وهناك بعيدا عن كل الأراضى الأخرى فى العالم وقفنا مبهورين تسبقنا خيالاتنا أمام تلك الكهوف المغلقة بأبوابها المعدنية العملاقة، قيل لنا أن كنوز الملك سليمان محفوظة فى الداخل جميعها وأن هناك جنيا يحرسها، لم تفارق هذه الصورة مخيلتى، كيف أتى سيدنا سليمان إلى هنا تاركا اليمن وبلقيس والجزيرة، ولماذا كل هذه الأبواب على كنوزه؟ ألا يكفيه الجان والعفاريت يسيرهم كما يشاء، ومن الذى وضع هذه الأقفال على الأبواب؟ حكيت كل ذلك لجدى وهو يقود مركبته الصغيرة بطول الساحل حتى العريش، وفى المساء عدنا بسمكة صغيرة للغاية هى كل ماعلق بشباكنا، كانت ملامحه تنبئ باستسلامه للقدر، وكان غارقا في دخان سيجارته يتطلع إليه، وكنت أنا أحاول رسم بعض الأشكال في عقلي لحلقات الدخان السابحة في الهواء قبل أن تختفي تماما، حين قفزت تلك السمكة الكبيرة إلى داخل الفلوكة فجأة، ثم توقفت عن الحركة، توقف عن التجديف، وتطلع إلى السماء، وقبل يديه ظاهرها وباطنها، وكف عن اللعنات التى كان يطلقها، وقفز إليها ممسكا بها في كلتا يديه بينما كنت أنا أضحك، وهكذا جلست أمام جدتى وهى تحاول فتح بطن السمكة وانا أسألها عن خاتم سليمان ، ربما يكون بها!!.

(١٣)

قررت أخيراً العودة إلى المنزل، لكن لا شيء هناك، ولا أحد ينتظرني، ماذا سأفعل الآن ؟ الجرح في رأسي يؤلمني أحياناً ؟ بدأ انزعاجي يخف الآن، ها هي أمي قد تركت لي ثلاثة جنيهات داخل الدولاب، كأنها كانت تعلم بأنني قد أعود ولا أجدها، على الآن أن أتصرف بحذر، آكل بحذر وأشرب بحذر وأنام بحذر، لاشئ سوى الحذر.

اليوم الرابع ها أنا أدور في المدينة كلها، لا أجد ما أفعله، الشوارع فارغة، مراكب الصيادين ممزقة على الشاطئ، لا أدري إلى أين أذهب ؟ ! .. كان الشاطئ يمتلئ فى الفجر بالصيادين يسحبون الشباك ويلقون بالأسماك فى قفف على الشاطئ، وكان خلق كثير يتحوطوهم فى هذا الوقت العجيب، بعضهم من الباحثين عن مايسد رمقهم، أو الباحثين عن شروة من الأسماك والحناجل والبراغيث* قد لاتتكرر فى يوم آخر قريباً، لم يكن غناؤهم ينقطع سواء كان هناك

*البراغيث: الجمبرى خاصة صغير الحجم.

رزق من عدمه، وكانت عيونهم تلمع وأجسادهم تتفصد عرقا، كان بينهم الشباب والأطفال والعواجيز، أخيرا أذهب وأستلقي فوق المرتبة القديمة في أحد أركان غرفتنا داخل الشقة، أنام بفعل التعب والخمول، تتوهج خيالاتي، إلى أن أدركت أنني يجب أن أذهب إلى بيت عمي (خضير) فهو الوحيد الذي لا يمكن أن يكون قد غادر المدينة، لم يغادرها أيضاً في حرب ستة وخمسين الماضية، فكيف يغادرها الآن، إن روحه معلقة بالمدينة، قال يوماً وهو يضحك ونحن جالسون نأكل العصافير التي أصطادها من شاطئ بحيرة المنزلة :

– طاعون فيكم كلكم .. أنا باموت فيها..بورسعيد دى بالنسبة لى زى ست جميلة ملعب .. أسيب مين ؟ !

كإجابة علينا في معرض سؤاله عن ما سيفعله إذا قامت الحرب، وها هي الحرب قد قامت، هل كانت الحرب هي الشر الذي حكت عنه جدتي، رغم كل حكاياتها وحروبي الصغيرة، وخناقاتي وشكلاتى المتواضعة ودمائي التي ساحت حين سقطت أمام بالوعة أثناء تدافع الناس بسقوط مظلي في حارة (العيد) قريباً من المساكن الشعبية، وجريهم لالتقاطه ثم نقلي للمستشفى بعد ذلك واختفاء ستى وأمي واخوتي وخالاتى، رغم كل ذلك كان الشر داخلي مفهوماً لم أهتد إلى تفسيره ولم أحاول، فقد كنت دائماً أعيش في ابتسامات جدتي ومحاولاتها الدائمة الفاشلة لتعريفه.

لقد أدركت منذ زمن بأني يجب أن لا أسألها، فهي لا تملك إجابات أو تفسيرات، كل اجاباتها ترتبط بالقدر، قالت لي ذات يوم ممطر :

- أنت عارف يا وله .. المطره دي نازلة إزاي ؟

تطلعت إليها في تساؤل:

- سيدنا ميكائيل ماسك دلوقتي مصفة بيدلق فيها ميه من السماء ..
- علشان كده المطرة نازلة ..
- طبعاً يا وله يا عبيط ..

ضحكت وحاولت إفهامها بأن الأمطار تسقط في جزء واحد على الأرض ولا تنزل على العالم كله، وأن سيدنا ميكائيل ليس السبب فيها، إنزعجت بشدة واتهمتني بالكفر وكشفت عن رأسها وقامت بصب لعناتها على كل المدرسين، وبعد برهة هدأت تماما ونست الأمر برمته، صمت وأنا ابتسم .. ولم أحاول أن أثنيها بعد ذلك عن أي فكرة لديها، لقد كان تمسكها بآرائها لا يتزحزح، ومع ذلك كنت أراها تفيض حناناً وحكمة، وكنت أنا أهيم في خيالاتي عن (هدى)

حين كانت هي تصمت قليلاً وتتطلع من شرفتها نحو السماء، كنت أحاول أحياناً أن ألتقط ما تفكر فيه، كانت سوداء "غطيس"* تماماً، وكان لوني يميل إليها وحيداً دون أخوتي، ربما كان ذلك سبب تعلق كل منا بالآخر، وكنت أشعر بأنها أفسدت عقلي بحكاياتها، لكني كنت أصدق ما تقوله طالما رأسي فوق فخذها بينما تلعب بأصابعها في خصلات شعري الأسود الطويل، نائماً ألتقط بعض حبات الطماطم اللامعة التي أحضرها جدي معه من سوق الخضار بالحميدى، وذلك حين يحل به التعب من صيد السمك الذى لايأتى غالبا، فيذهب للارتزاق من السوق، فتراوده أم السعد مالكة محل الخضار الذي يعمل به حين يجدب السمك من البحر، أو حين يكون تعبا من الصيد، فيلجأ إليها فيبيع لها بعضه، وحين يحصل على مايكفيه من رزق يترك لها محل الخضار بعد أن يكون قد لعنها ولعن جدودها، وقرأ كل تعويذات الشر فوق رأسها، وبالرغم من كل ذلك كانت تركض وراءه دائما، ولم أكن أدري سبب عشقها له، رغم كل مابه من عيوب، كانت ستى تسردها على مسامعى وهى تضحك، ولم يكن جدي يعير جدتي التفاتا حين تتحدث عن محاولات أم السعد لخطفه، بل يجلس هادئا هناك في الركن يسحب أنفاس سيجارته، وكنت أتعجب من حالات الهدوء تلك التي تصيبه فلم أكن معتادا عليها.

(١٤)

قالت جدتي إن الملائكة تعشق العمل وحدها، ولايعمل ملاكان سويا فلكل واحد منهم مهمة خاصة به، واحدة من المقولات التى اختمرت فى ذهنى ولم تبارحها أبدا، فى واحدة من تلك اللحظات النادرة كنت أظن جدى ملاكاً أيضا بسبب شدة بياضه وصوته الزاعق، وإصراره على الرفض فى الكثير من الحالات، حين يطلب منه أحدا ما أمرا لايستسيغه فيظل يكرر كلمة (لا) عشرات المرات دون أن يتوقف، بل يتصاعد حسه* كل مرة ينطق فيها تلك الكلمة، كأنه يؤكد رفضه المطلق، ولم يكن يقول شيئا آخر بعدها، وحين رأيته يموت أدركت أننى كنت مخطئا، فالملائكة لاتموت.

ألتصق فى قعر مؤخرة (الفلوكة) الصغيرة، فقد كان جدي يعن له صيد السمك حين يفشل في العثور على عمل ما، ولم يكن يجيد في حياته سوى عملين، أحدهما هو ما نحن فيه، والثاني

---

* غطيس يعني قاتم أو داكن اللون تماما.

*الحس : الصوت

بيع الخضار في قلب الشتاء، ولأننا كنا في مطلع الصيف، فقد كنت جالساً أتفحص السمكة الكبيرة التي اصطادها، بينما كان يدخن سيجارة (لف) وقد سرح ببصره بعيداً، وبعد أن هبطنا من الفلوكة وبينما كنا نسير سقط جدي على الأرض وكانت السيجارة بين شفتيه، حمله الناس وسرت خلفهم، ولم أره بعد ذلك أبداً، وحين كنت أسأل (ستي) عنه كانت تقول بأنه ذهب في رحلة مع عزرائيل، ولكني كنت أسألها ولماذا عزرائيل بالذات؟ لماذا لم يذهب مثلاً مع ميكائيل ليسقي الأرض بالمطر، وكانت تضحك وهي تقول بأن ميكائيل الملاك لا يحب العمل مع أحد، إنه يعشق عمله وحيداً، ولكن يا ستي لماذا يفعل ذلك في الشتاء فقط ؟ لماذا لا يفعل ذلك في الصيف، فالحر يكون مميتاً، فنبحث عن الظلال لنختبئ فيها ؟ كنت أتسائل عن معنى الاختباء فى الظلال؟ لايمكن الامساك بالظلال، فكيف نختبئ فيها، حاولت مرارا وتكرارا الإمساك بها، كانت تنتاب أمى تلك المخاوف حول فساد عقلى، وكانت جدتى تفسر الأمر بأن جنيا قد مسني؛ وكنت أنا أيضا أعتقد ذلك بشكل أو بآخر، ولكنى كنت أعود لسؤالها، ألا تقولين بأن الجن إذا مسني سأحترق؟ أليس كذلك (مش كده.. مش كده.. مش كده.. ياستى مش كده؟ هاه.. مش كده ياستى!) فكانت تصرخ أولا من إلحاحى المتكرر، ثم تهدأ سريعا وتردد:

- الله يلعنك يا وله ماسبتش حاجه من جدك، انت ياوله مكنة.. اسكت شوية!!

كنت لا أصمت، أعود فأسألها كأنها لم تصرخ،

- طب إيه الفرق بين الجنى الطيب والجنى الوحش ياستى.. إيه الفرق.. هاه .. إيه الفرق؟.. انت مش بتقولى انهم مخلوقين من النار .. هاه؟ لو كانوا مخلوقين من النار يبقى انا هاتحرق على طول لو مسنى جنى طيب أو جنى وحش؟ مش كده ياستى.. هاه.. مش كده؟!

تتطلع فى وجهى طويلا صامتة ثم تنفرج أساريرها وتضحك وتترك سؤالى الحائر وتعود للحديث عن سيدنا ميكائيل وتقول فى هدوء عجيب بأنه يحب معاكستنا، وكنت أبكي أحياناً وأقول لها بأنني سأغضب منه فقد زودها هذا اليوم من أيام الشتاء في العام الماضي حين اختار أن ينزل فوق رؤوسنا قطعا من الثلج فمنعنا حتى من الخروج، إن له مزاح عجيب، فكانت تقول إن علينا أن نحتمل مزاحه.

كيف لنا أن نحتمل مزاح الملائكة؟ البرد مزاح ثقيل والحر مزاح أثقل، كان الاحتمال أحيانا فوق طاقتنا جميعا، لكن لم يكن هناك مهرب من أن يكون لدينا هذا الاحتمال، وهكذا لم أكن أفهم أن ذلك يزيد من قدراتنا.

كنت أتطلع إليها وأسألها ولماذا اختار عزرائيل جدي من بين كل هؤلاء البشر؟ فأنت وأنا وأمي واخوتي نحتاج إليه، من سيحضر لنا السمك والطماطم المجنونة بعد الآن؟ أم هل يحتاجونه هناك، إلى حيث هو ذاهب، وكانت تسكتني بإشارة من يدها، بأن هناك من يحتاجونه أكثر مما نحتاج نحن إليه، كنت أصمت لحظات ثم أعاود أسألها ولكن لماذا لم يقل لنا أنه سيرحل قبل هذا اليوم؟، لماذا سقط فجأة، جدتي أنت تكذبين على، فلو كان سيرحل لقال لنا، لقد اختطفوه، لكن لماذا كان صامتاً ساكناً لا يتحرك قبل اختطافه، حتى إن السيجارة التي كانت في فمه حرقت شفتيه، لماذا لم يصرخ ؟ جلست بجانبه على الأرض أمسح تلك الرمال الصفراء التى علقت بخده وشاربه، أحاول نزع تلك السيجارة من بين شفتيه وهو صامت لايتحرك ولايتوجع، لم يقل شيئا على الإطلاق .. أى شئ.. كان في الأمر شيء مريب، أليس كذلك ؟، صرخت فجأة.

- يا سعاد .. تعالى شيلي الوله ابنك أبو دماغ خمجانة[*] ده من هنا !!

كنت أتطلع إليها باستغراب وأنا أضع حبة الطماطم في فمي، وتأتي أمي راكضة على حسها العالي، وتبدأ ستي في الحديث إلى نفسها بكلام سريع غير مفهوم ، وكان صوتها يتضخم إلى الحد الذى أحسها وقد تحولت إلى رجل بينما تتقلص ملامحها وتثبت على حالها لاتتحرك فى نفس الوقت الذى يعلو صدرها ويهبط بسرعة شديدة، بينما تحتل (الزرابين) تقاطيع وجهها، تجذبنى أمي من أمامها بعنف صارخة:

- قوم دك داء الطاعون .. كده خليت الزربون السوداني يطلع عليها .. ها أعمل إيه دلوقت ..هانمشيه إزاي.. يا وله أنا مش قلت لك تبطل أسئلة كثير .. آه يابن الكلب يابو دماغ جايفه..

كنت أختفي لحظات وأعود إليها وأنا ابتسم في وجهها، فكانت تستقبلني في أحضانها مبتسمة أيضا وتقبلني كأن شيئاً لم يحدث.

(١٥)

لماذا حملني جدي فى تلك الليلة فوق كتفيه فى ظلام الشوارع، وكانت أمواج البحر قد وصلت إلى حدود الشوارع فى تلك السنة، بينما تراكمت قطع الثلج فى الأركان وعلى حوائط

---

[*] خمجان : بمعنى فاسد أيضا

البيوت، وأصبح السير فى الطرقات خاصة ليلا حالة مستحيلة، ومع ذلك فقد تحدى جدى كل ذلك وحملنى فوق كتفيه عابرا كل تلك الأكمنة، ولم تعيقه لطمات الرياح العنيفة فى تلك النوة التى كانت تجتاح كل شئ، كانت الرياح تدفعنا للأمام بعنف أحيانا أو تجذبنا إلى الخلف في أحيان أخرى فيكاد يسقط لكنه كان يثبت قدميه في الأرض فلا يتحرك، وكانت الأمطار تغسل الوجوه، التى كانت تتجمد من البرد فى ذلك الوقت، وكنت معلقا على كتفيه أمد يدي فى الهواء وأضحك وهو يضحك معى أحيانا ويدمدم أحيانا بشتائم متدافعة، أحاول التقاط حبيبات الماء، لكنها كانت تهرب متسربة من بين أصابعي الصغيرة، يقف أمام بائع التمرية الذى يقف على أول رأس القرنة* فى كسرى، وجه الرجل يكاد يختفى فى تلك الطاقية الصوف التى لاتظهر منها سوى عينيه البنيتين على أضواء تعلو وتهبط، تنكمش وتتمدد، تهيج وتكاد تختفى، نسير في شارع الأمين أسفل تلك الأعمدة الضخمة حيث كانت تبنى البيوت وتصنع لها أعمدة خارجية ترفع شرفاتها، ويترك تحت الشرفات فراغ عريض كمظلات للسائرين على أرصفة الشوارع، لاأحد تقريبا يسير فى الشارع، ننحني نحو شارع التلاتيني، سينما مصر تتراقص ألوانها، بورصة السعيدية مفتوحة يختبئ الجالسون فيها تحت المظلة أمامها.

هانحن، هو وأنا أمام الطبيب العجوز، كان سمينا أبيض قصير القامة، برأس تكاد تخلو من الشعر ونظارة طبية سميكة، أجلسنى أمامه وكنت أبتسم فى وجهه غير مدرك لما يحدث.

قال الطبيب:

- إزاى سبتوا الوله لحد عينه ماقفلت بالشكل ده..

نمت على الطاوله أمامه، وكان يحاول تحسس عينى الوارمة، متابعا رأس الدمل الكبير، لكننى صرخت، أمسكنى جدى من ذراعى وثبتنى على الطاولة فلم استطع الحركة، أخذت أصرخ ومشرط الطبيب يلعب فى الورم، وحين فتح (الدمل) كنت قد سقطت فى غيابة الإغماء، ولكن ظلال وجه الطبيب المبتسم بقيت تراوح مكانها فى عينى، قال جدى:

- الوله ده عجيب.. ازاى بيضحك وهو نعسان.. على العموم هو مش هايجيبه من بره .. عيلة مجانين صحيح.. إذا كان هو ولا سته .. ولا حتى أنا..(وانطلق ضاحكا)

أجاب الطبيب وهو يبتسم:

- فعلا عجيب!

*رأس القرنة : ناصية الشارع أو الحارة

لم أفق إلا حين عودتنا، لكني لم أبك ولم أتذمر، وفردت ذراعي مرة أخرى وقعدت ألاعب الأمطار رغم النقح الذى كان فى عينى، لكنى كنت سعيدا للغاية.

(١٦)

تعلمت أن أحب الملائكة .. لكني كنت أغتاظ من أفعالهم في الشتاء، وفي لحظات اختيار الأرواح التي سينقلونها معهم، وكنت أعتقد أن أبوللو هو كبيرهم حين سمعت عنه للمرة الأولى فى المدرسة، ثم من (يانى) بعد ذلك، ثم أكملت معلوماتى من أحد مجلات الأطفال، ولم تدرك ستي ما هي العلاقة بين أبوللو وميكائيل وعزرائيل، وحين سألتني عن الاسم أبوللو قلت لها

- مش عارف.. (سكت لحظات وتابعت)
- بس بيقولوا في المجلة إنه إجريجى.
- إمشي يا بن الكلب ياملقط* وإيه اللي جاب الاجريج الشبيحة** السكرانين طينة للملايكة المؤمنين الموحدين بالله.. امشي .. انجر.

أقفز ضاحكاً، ثم أعود إليها.

- يا ستي أبوللو ده، بيركب عربية دهب بتجرها حصنة وبيمشي في السماء..دول حتى راسمينه في المجلة.
- اتلهي على عنيك وعين اللي خلفوك .. يا سعاد .. يا سعاد .. الحقيني يا بنتي.

وكانت أمي تأتي مسرعة حاملة مقشتها التي ترهبني بها فقط، فكنت أركض ضاحكا هاربا من صرخات ستي إلى حجر ستي أيضا، فكانت تفتح ذراعيها تحميني من سعاد ومقشتها.

* ملقط تنطق بكسر الميم وفتح اللام وتشديد القاف وتسكين الطاء وتعنى الذكى لحد الخبث، وهى تقال غالبا على سبيل المرح.

** شبيح وشبيحة: فتوة أو صايع يحاول السيطرة على الناس بتدخله بعنف فى كل شئ، وقد انتشر الإفرنج فى بداية تاريخ بورسعيد بعد مجئ ديليسيبس، وكان منهم البلطجية ومن يحاول فرض سطوته دون أن تستطيع الحكومة الملكية فعل أى شئ، وكانوا فوق أى حساب.

(١٧)

هل يمكن أن تصدأ الشمس، لا أدري ما الذي دعاني للتفكير ذات يوم في أن الشمس يمكن أن تصدأ أيضاً؟ وكيف يمكن لي أن أحدد مظاهر هذا الصدأ وعلاماته؟ كان ذلك بعد أن شاهدت طبقاً فضياً قد علاه الصدأ، جلست في حجر ستي كالعادة في هذا المساء وسألتها ..

- الشمس ممكن تصدي ؟
- لأ يا حبيبي .. الشمس مش ممكن تصدي ؟
- ليه مش ممكن تصدي ؟
- لأنها كده ..
- يعني إيه .. أنا فهمت من اللي قريته .. إنها من الحديد والنحاس ومعادن كثير بتغلي .. يبقى أكيد ممكن تصدي ولو صدت النور بتاعها مش ها ييجي عندنا، وبعدين فيه حتت شفتها ماكانش فيها نور.. يبقى أكيد النور في الحتة دي الشمس ما قدرتش توصله لأنها في الحتة دي كانت مصدية..

كانت تتطلع في وجهي باستغراب شديد.

- يا سعاد الحقيني – الواد أكيد مسه عفريت .. هاتي البخور خلليني أرقيه ..

لم أدرك أبدا الفرق بين الجنى والعفريت، وإن كنت قد فهمت أن العفريت هو نوع من أنواع الجان، أتت أمي بالبخور وجلست بجانبنا وجعلتني أعبر عليه سبع مرات فيما كانت ستي تقرأ القرآن، ثم أجلستني وجعلت رأسي فوق فخذها، وأخذت تملس على شعري وهي تقرأ هي وأمي .. بينما رحت أنا أغط في النوم متعجبا من هذا العفريت الذي لايخرج إلا بالبخور.

(١٨)

لا أدري كيف كنت أصل إلى هذه النتائج السريعة، لكن من المؤكد أنني رأيت القمر وقد علاه الصدأ أيضاً في مكان ما.

أقسمت لستي أن القمر كان صدئاً، وأنه لا مانع من أن تكون الشمس صدئة، وقلت لها أن هناك علاقة ما بين الصدأ والماء والهواء، وأن سيدنا ميكائيل قد يكون قريباً من الشمس والقمر، وأنه من المؤكد قد ترك الأمطار تسقط عليهما ولأن بهما معادن فإن هذه المعادن حين جفت المياه من عليهما بفعل الهواء – وكنت أظن أيضاً أن الهواء يملأ كل مكان في الكون، ولم أكن أرى فرقاً بين الكون والأرض فكلاهما كانا في نظري شيئاً واحداً – حين جف الهواء ترك بعض الصدأ في بعض الأماكن، وقلت لها إنك يمكن أن تلاحظي ذلك بكل سهولة على حركات القمر، فكل يوم هناك جزء لا يظهر، وربما كان بعض الملائكة يقومون بتنظيفه ولذلك لا يظهر كاملاً إلا في يوم واحد أو يومين، أما الشمس فكنت أتطلع إليها، وعلى الرغم من أنني كدت أصاب بالعمى في أكثر من مرة إلا أنني أجزمت بأنني قد رأيت بقعاً سوداء عليها، أو غامقة ذات لون رمادي غامق عن بقية سطح القمر، وقالت لي جدتي بأن هذه البقع السوداء أو المذنبات والشهب الطائرة في السماء ما هي إلا احتراقات الجن والشياطين، حاولت إفهامها الأمر بشكل آخر، لكنها رفضت فى إصرار الاستماع إلى الهرطقة التي أقولها، كانت تستمع وتضحك وتدعي بالطاعون على من كان السبب في تلويث عقلي، وتطبطب على رأسى وهى تردد فى حنان:

– بكره تخف ياحبيبي.. بكره تخف!

كانت مؤمنة تماما بأني مريض وأنني سأعالج يوما ما مما حدث بعقلي، ومن ناحية أخرى كانت تعتقد بأن مس الجني لي قد ترك عقلي مشوشا بشكل أو بآخر..

(١٩)

كيف كنت أفكر في كل ذلك في تلك اللحظة وأنا قابع في غرفتي وحيداً نائماً على الأرض على تلك المرتبة وبجانبي بعض الخبز الجاف المكسر، وكنت قد وضعت خلف الباب قطعة من الخشب، وكنت أتوجه كل حين نحو غرفة جدتي لكن لم يكن هناك لها أثر، وكنت أسأل نفسي أين ذهبت ؟ !

لا يوجد بالعمارة سواي أنا (والعربي) العجوز وزوجته لكنهما لا يفتحان الباب لأحد، حتى ياني لاأعلم إن كان موجودا أم لا، اشارات الحياة الوحيدة كانت حين لا أجد (بسكليتة) العربي في الصباح الباكر إذا استيقظت في ذلك الوقت، وأجدها في المساء مسلسلة بسلسلة حديدية

ومربوطة في مدخل العمارة إلى عربة الفل، (سرجت*) النور، ووقفت في الحمام أتطلع إلى وجهي، كانت ماكينة حلاقة أبي مازالت على رف الحمام، بها نصف موس "تاست" التمساح، الذي اشتريته له آخر مرة قبل أن يحدث ماحدث، موجودة مكانها وكان الموسى بداخلها عليها شعيرات ذقنة جافة، وقفت أتطلع في المرآة أقلده وأحرك الموسى جيئة وذهاباً حتى وجدت الدم يتناثر على خدي في خط طويل، لم تخرج من فمي أي أصوات كالعادة، حتى الألم لم أكن أستطيع التعبير عنه سوى بتقلصات وجهى، أما فمي فكان ممنوعا عليه إصدار أي أصوات، أخذت أمسح الدماء بيدي، فيتناثر على وجهي ويلتصق بأصابعي، وفتحت الماء وأخذت أغسل وجهي ولكن الدم لم يتوقف، توجهت نحو ملاءة المرتبة ووضعت طرفها على خدي بعض الوقت حتى توقفت الدماء، وحينها قررت بأنني يجب أن أذهب إلى عمي (خضير)، لا أدري ما الذي دعاني إلى التفكير في ذلك ولا لماذا لم أفكر في ذلك قبل الآن، أحسست بأننى سأجد لديه الإجابة على الكثير من الأسئلة التى كانت تراودنى وتؤرقني ولا أبوح بها لأحد، لأنه لايوجد أحد!!.

(٢٠)

كيف هى الحياة بلا أجنحة؟ سرت وأنا أفكر في الطريقة التي يمكن أن ينبت لي بها جناحان، ربما كان ذلك بعد أن شاهدت تلك الأفلام ، عن هذا الرجل الذي يطير، فكنت حين أتطلع للطيور فى السماء أتمنى لو كنت أملك مثلها جناحين ممتلئين بريش بدلا من ذرعي النحيلين، كنت أحيانا أتحسس كتفي كل صباح فأخلع ملابسي الداخلية لأتأكد من أنه لم ينبت لي جناحان من الريش بدلا من ذراعي، أو نبت ريش في جانبي جسدي يمكنني من الطيران، وكنت أفكر أيضاً بأنني على أن أقابل أبوللو أولاً كي يمنحني هذين الجناحين، ورأيت أيضا أنه من المناسب أن يكون الريش بهما ملونا، وأن أختار هذه الألوان بنفسي، كنت أريده بصراحة أن يمنحني جناحين بألوان قوس قزح، ولم أكن أدرى السبب الحقيقي وراء هذه الرغبة، وكنت أعلل ذلك أحيانا بأنني كثيرا مارأيت قوس قزح في الأيام الممطرة في المدينة، كان كبيرا وجميلا بشكل لايصدق، وكنت أتخيل أحيانا بأن أبوللو حين يسأم من عرباته فإنه يقوم بالتزحلق عليه، وإلا مامعنى تلك اللمعات الذهبية التي كنت أراها تبدو لوهلة ثم تختفي!.

---

*سرج: بمعنى أشعل أو أوقد ومنها اسم الآلة سراج بمعنى منير.

(٢١)

هبطت إلى عرض الطريق، أتجه نحو (الجبانات) حيث كان يسكن قريباً من هناك، وكانت ستي تحذرني كثيراً من الذهاب إلى الجبانات في أي وقت، وحكت لي أيضاً عن أول (عون) شاهدته وكيف قرأت عليه (الكرسي وياسين) فاحترق مكانه، كان عقلي مشوشاً تماماً في تلك اللحظة، على أن أقرأ (الكرسي) ثم (ياسين)، وأن أتلفت حولي، وأن أفكر في وضوح في موقع بيت عمي خضير، وأن أحترس من الطائرات التي تجوب سماء المدينة ليل نهار، ومن الكلاب التي بدأت تملأ الطرق والشوارع، ومن البالوعات المفتوحة التي تمتلئ بالجن والشياطين، ومن العيون المشقوقة خاصة القطط التي قد تتحول أي واحدة منها إلى جنية تختطفني وتذهب بي إلى سابع أرض، كنت أتخبط في مسيري فأصطدم بأعمدة وبحجارة وحوائط، وهنا توقفت تماماً وتمنيت ظهور أي جنية، فعلى الأقل حين تختطفني سأرى جدي، فقد أخبرتني ستي بأنه في سابع أرض أيضاً، سنكون معاً، وقفت وقتاً طويلاً وحين أيقنت أن كل الجنيات لا ينظرن إلى الآن لأنني مازلت صغيراً، أدركت بأنني ضئيل للغاية ولن أسترعي انتباه أحد، وهكذا رحت أفكر مرة أخرى في عمي (خضير)، بدأت أركض حتى وجدت نفسي فجأة أمام بيته، كنت أحاول أن أتذكر رقم شقته وطابقه، لكنني لم أجد سوى شقة واحدة ينبعث منها ضوء خفيف، صعدت السلالم وحين وقفت أمامها أدركت بأنها شقته، فها هو عكازه الخشبي الشهير الذي يستعيض به بديلاً عن قدمه التي سقطت فوقها دانة مدفع لم تنفجر فأخذت منها جزءاً في حفرة، وقد اعترف لي ونحن جالسين نصطاد العصافير على شاطئ بحيرة المنزلة بأن هذا هو السبب الوحيد الذي يدفعه إلى عدم القدرة على مغادرة (بورسعيد).

كأنني كنت أرى وجهه حين رأيت العكاز فابتسمت، وربما ضحكت بصوت عال، لكن لم يخرج مني صوت أيضاً، كنت منزعجاً من ذلك، لكني كنت سعيداً للغاية وأنا أتفحص عكازه وفردة حذاؤه وأقف أمام شقته أخبط الباب، فيفتح الباب بعد وقت ليس بقليل تسرب فيه مرة أخرى الخوف من عدم العثور عليه فأعود وحيدا، ولكنه هاهو يقف قبالتي ساندا بكفه على الباب واقفاً على قدم واحدة وهو يسأل في حنق.

- ديك أم مين في الساعة دي ؟ !

(٢٢)

قال لي جدي ذات يوم قبل أن يختفي في الأرض السابعة :

- الحياة والموت بيتفقوا في حاجة واحدة ..

وحين تطلعت إليه متسائلاً ..

- لازم يظهر دم علشان نتأكد من إنهم حصلوا ..

لكنني لم أر دماءك يا جدي حين سرت مع عزرائيل إلى الأرض السابعة .. لذلك مازلت أصدق أنك تحيا في مكان ما !! لكن أين هذا المكان على وجه التحديد، هل على أن أصدق ماقالته جدتى بأنه فى سابع أرض، وأين هى الأراضي الأولى والثانية والثالثة.. لماذا فى سابع أرض ياجدى؟! لماذا؟ كيف كنت تسير معه بينما كنت راقدا على الأرض أمامي؟ قالت ستي إن روحه هي التى انطلقت معه، أما الجسد فكان ماثلا أمامي على الأرض وتحيرت كثيرا لهذا الانفصام بين الجسد والروح، وتسائلت كثيرا عن سر هذا الانفصام العجيب؟!.

(٢٣)

هل كان يغلق أزرار سرواله ويدعك عينيه في آن واحد، بينما يستند على الباب بساق واحدة، وقد تدلي بنطلونه فارغاً من الساق الثانية، ثم حين رآني لم يستطع أن يرى ملامحي..

- ديك أمك .. إنت مين .. انطق ؟ !

تقدمت إلى الضوء قليلاً، صرخ وهو يضع كفه فوق كتفي ويدخلني في أحضانه ويستند على بثقله وأكاد أميل معه ..

- آه ياملقط.. نهار أبوك أسود .. إنت كنت فين ياوله.. أنا قلبت الدنيا عليك بقالى أربع تيام.. ؟ !

جلسنا نتطلع كل منا إلى الآخر، كان يتحسس وجهي من أثر (تعويرة) الحلاقة الزائفة، وخلع رباط رأسي ليرى ما فيها، وأدرك في تلك اللحظة وهو يحدق في بأنني فقدت القدرة على النطق، أدرك فجأة كل شيء، أخذ يطبطب على ظهري.

- ها نروح الاستباليا الصبح .. ما تقلقش .. مصر والسودان ..

لم أكن قلقاً، لكني كنت أفكر بأنني على أن أطلب من أبوللو أن يعيد لي صوتي قبل أن يهبني الأجنحة، وسأطلب منه أيضاً أن يأمر ميكائيل بعدم رش المياه في الشتاء، وأن يأمر عزرائيل بعدم خطف الناس للأرض السابعة دون إنذار، لكني كنت أفكر أيضاً وبشكل ما فيما قالته جدتي عن اليونانيين، ولأني رأيت عمي (خضير) مسطولاً من الخمر أكثر من مرة، فقد تسائلت في حدة داخلي، ولكن ماذا إذا قابلته وكان مسطولاً ؟ هل سأستطيع أن أتحدث إليه ؟!

كان هذا هو كل ما يقلقني في تلك اللحظة.

- أكيد إنت جعان .. مش ها أغيب خمس دقايق .. إقفل الباب ورايا ..

وقفز قفزته الشهيرة وفي أقل من عدة ثوان كان قد أحضر عكازه وأغلق الباب خلفه، جلست على المقعد الخشبي في الصالة ثم جلست على الأرض ورحت أفكر، لم تكن تلك المرة الأولى التى أختفي فيها عن جدتى وأمي وأخوتي وعمى وخالاتي، حدث ذلك أكثر من مرة، لكن أشهر هذه الاختفاءات كان في أحضان (كريستينا) تلك الراهبة اليونانية الصغيرة التي كانت تناديني بـــ " ياساغيري " فى بورفؤاد للمرة الأولى وأنا نائم في سريرها، التي تعرفت عليها آنذاك، ولكني لم أحك لهم ماحدث قط بعد أن وجدونى أمامهم في كراكون المناخ، وكانت هي جالسة هناك على المقعد الخشبي داخل الكراكون تتطلع إلينا في ابتسام وود، تصاعدت صرخات أمي ونظر إلي أبي شذرا تحسستنى جدتي وأمي وخالتي حنان وخالتي أم هاشم، وانتهى الأمر تماما بعد يومين، وبقيت كريستينا على زياراتها المتقطعة لنا، ثم سرعان مااستغرقت في نوم عميق، وكنت مستلقيا برأسي بشكل ما فوق فخذ جدتي، أو هكذا كنت أتخيل، كانت قد وحشتنى للغاية هى وأمى.

(٢٤)

كأن النافذة وباب الشرفة قد فتحتا فجأة وأطل ضوء شمس قوي منهما، ضوء يخطف الأبصار ويعمى العيون، وكأن الجميع يقفون في عربة أبوللو الذهبية، وكأن جيادها الذهبية

أيضا تصهل أمامي، حاولت إخفاء عيني في البداية ولم أستطع أن أحدق في وجهه كثيراً فقد كان كل شيء فيه يلمع بشدة، بدأت الأضواء تخفت وأخذت في فتح عيني ببطء، لمحت أبي وأمي وإخوتي وخالاتى وخالى مسعد وعمى خضير وحتى جدي الذي اختطفه عزرائيل قبل الحرب بأيام قليلة كان يقف بينهم يبتسم وكان قد أشعل سيجارة أيضا، وكنت واقفاً في الشرفة أتطلع إليهم وأنا أصرخ عليهم، "ستي؟ أمه، جدي، عمى خضير، خالى مسعد، خدوني معاكم، ماتسيبونيش لوحدي هنا"، كنت أصرخ!

(٢٥)

توقف ذلك كله حين فتحت عيناي على يده وهي تهزني.

- قوم .. قوم علشان تاكل .. لحقت نمت ..

دعكت جفوني بظهر كفي وأنا أتطلع إليه، كانت رائحة الطعمية والخبز الساخن يخترقان أنفي، لم أفكر كثيراً من أين أتى بها، لكنني انغمست في الأكل بتلذذ ونهم، وكان هو قد أفرغ لنفسه كوباً من (منقوع الصرم) الذي فهمت من جدتي أنهم كانوا يأتون بالأحذية القديمة ويضعونها في ماء كثير ويتركونها لأيام كثيرة وكانت تحذرني من الشرب منه، (كفاية نيلة على عينه عمك خضير .. والراجل اليوناني اللي ساكن في العمارة وأبوللو بتاعك)، وكنت مستغرقاً في هذه الفكرة وحين هممت بسؤال عمي خضير عن هذا المشروب، أدركت للمرة الألف أني لا استطيع النطق فتركت ذلك أيضاً للحظة التي يعود إلى فيها صوتي، قال لي عمي خضير ..

- تعرف أنا بأدور عليك بقالى يومين .. كنت فين ؟ ! .. ستك جت لحد عندي وسألتني عليك .. لفينا الدنيا كلها .. أكيد كنت مستخبي .. خايف من صوت القنابل والرصاص .. مش كده .. ديك أبوهم كلهم ..

أتطلع إليه في حب، كنت أشعر داخلي في تلك اللحظة بهدوء عظيم، أكلت كأنني لم آكل من قبل، كان لمذاق الطعمية طعم السحر، كأنني لم أتذوقها من قبل في حياتي القصيرة، استغرقت بعدها في نوم مريح لأول مرة منذ أربع ليال، وكان عمي خضير يغني "طلعت يا محلا نورها شمس الشموسة" وكان يرفع زجاجة منقوع الصرم نحو شفتيه، كان يتحدث دائما عن سيد درويش وعن مغامرته فى الأسكندرية، قالت لى ستى أن سيد درويش كان (راجل سكرى) أيضا وكنت أتعجب من تلك السعادة التى يتمتع بها جميع من يتناول منقوع الصرم العجيب،

وكنت قد أضمرت في نفسي أنني لابد من يوم أتذوقه فيه لأعرف مالذي يحدث بالضبط، ولماذا هو في نظر عمي خضير حلالا، وحرام في رأي ستي؟ كان أمرا محيرا آخر من أمور حياتي في ذلك الوقت.

(٢٦)

كأنني اختزنت ذاكرتي كلها على هذا النوع من الأسئلة الذي أخذ في التحليق معي حتى الآن، فلم أكن أستطيع أن أفعل شيئا آخر، الوحيدة التي أوقفت الأسئلة في حلقي كانت ابنته (هدى)، وكانت أمها مصرية تفضل التحرك داخل شقتهم عارية، كنت غالبا في منزلهم مختبئاً تحت السرير مع (هدي) ولم أفهم كثيراً في هذا الوقت السبب وراء ذلك لكنني أرجعته (لمنقوع الصرم) الذي كانت تشربه هي أيضاً فتفقد قدرتها على التحكم في نفسها، وكثيراً ما كنت أرى عمي خضير قالعاً قميصه وهو يحتسي هذا المنقوع.

ولكن الغريب في هذا الأمر أنه كان يزيد الناس سعادة، مرة أو مرتين وربما ثلاث هي التي دخلت فيها مع جدتي في نقاش عريض.

- منقوع الصرم حرام مش كده يا ستي.
- أيوه يا حبيبي .. أوعى تقرب منه لتروح جهنم.
- هو أنا ما قربتش منه .. أنا بس شفت عمي خضير .. وياني بيشربوا مع بعض وكانوا مبسوطين قوي
- ما هو علشان كده حرام ..
- حرام علشان مبسوطين .. ولا حرام علشان بيشربوا منه.
- حرام علشان أي حاجة .. اتلهي على عينك واسكت ..
- طب ليه احنا زعلانين بقى .. زعلانين علشان هم مبسوطين .. يعني هم لو ماشربوش ها يبقوا زعلانين .. ولما يشربوه ينبسطوا .. ويغنوا ويضحكوا .. علشان كده ها يخشوا النار ..

- آه ياملقط يابن الكلب .. (ثم تصرخ) يا سعاد .. الحقيني.

وتأتي أمي راكضة وفي يدها المقشة، فأجد نفسي واقفاً في الركن أضحك .. لم أفهم أبداً السبب وراء كراهية ستي لأبوللو .. وحبها لميكائيل وعزرائيل رغم ما يفعلانه .. ولم أفهم سر كراهية الجميع لمنقوع الصرم .. وكنت أفكر بأنني لا أطيق رائحة حذائي بسبب العرق .. ولكن هل لو وضع في ماء سيكون له طعم آخر ؟ !، وهكذا كانت أولى تجاربي العلمية .. حيث أحضرت فردة حذاء قديمة في حقيبة المدرسة القماش، وأخفيت علبة من الصفيح فيها أيضاً ووضعت الحذاء فيها وملأت نصفها ماء، وانتظرت عدة أيام، ثم حاولت أن أشرب منها لكنني اكتشفت سوء طعمها فألقيت بها من الشارع من شرفة حجرة ستي، وحين سألتني ستي عما أفعله سكت وضحكت وركضت نحوها ووضعت رأسي فوق فخذها وسألتها :

- ليه منقوع الصرم اللي بيتعمل في البيوت بيبقى طعمه وحش ..

سألتني في فزع وكان إصبعها الأسود النحيف يكاد يخترق عيني:

- وانت عرفت منين أن طعمه وحش .. أكيد دقته ياملقط.. يا سعاد !

أقسمت لها بأنني لم أتذوقه، وكنت أعلم بأنني كاذب، لكني احترت ماذا أفعل ؟ فقد كانت تجربة ذات طعم سيء للغاية، وربما هذا ما دفعني لتذوق طعم هذا المنقوع ذات يوم، لكنني اكتشفت للمرة الثانية أنه لا يكاد يوجد فرق بين تجربتي الأولى والثانية فأقلعت عن المحاولة، الغريب في الأمر هي حالة الانبساط التي تصيب الناس رغم رداءة الطعم والرائحة.

قال لي في مرة حين سألته :

- أنا بأشرب علشان أنسى ..

ولم أفهم ما الذي يريد أن ينساه، وحملت السؤال إلى جدتي ..

- أصله بيقول أنه عاوز ينسى .. ينسى إيه يا ستي .. طيب ماشى ولما هو عاوز ينسى إيه اللى بيفكره.. هاه .. إيه اللى بيفكره ياستى.. إيه.. هاه؟؟

تطلعت إلى في حيرة، وهنا أدركت أن الناس لا ينصاعون دائماً للأوامر التي تأتيهم من الآلهة، كان اكتشافاً غريباً، وزاد ألمي حين اكتشفت الاكتشاف الثاني، حين قالت لي جدتي ذات يوم :

- يا وله بطل تروح بيت ياني .. دول مش من ملتنا ..

- يعني إيه ملة يا ستي ؟

- يعني من دين تاني ..
- وفيها إيه .. هو مش ربنا واحد ..
- لأ .. هم ليهم رب .. واحنا لينا رب ..
- ويا ترى دول غير أبوللو ؟
- إلهي يخيبك وله .. يا وله اسمع الكلام وما تتعبش قلب..
- لا يا ستي والنبي .. ليه فيه ربنا عندهم .. وربنا عندنا .. وأبوللو كمان ؟ !
- يا سعاد .. يا سعاد الحقيني يا سعاد ..
- يعني ها أقابل أبوللو ولا لأ يا ستي ..

تهدأ قليلاً، وتطبطب على رأسي :

- أقطع دراعي إن ما كان لبسك .. عفريت ..
- يعني ها أقابل أبوللو ولا لأ ..

تستسلم أخيراً ..

- ها تقابله .. يا حبيبي ها تقابله .. أمال .. لازم تقابله ..

من أجل كل هذا كنت أحبها، فأمي وخالاتي لا يطيقون أسئلتي، وهي كانت وحيدة أغلب الوقت في حاجة إلى من تتحدث معه، بينما جدى لايعود إلا فى ساعة متأخرة، وقد يغيب أحيانا عدة أيام، وأمي كانت مشغولة أغلب الوقت بنا وبطلباتنا، وكانت ستي تجلس في الشرفة وتقوم بإعداد القهوة على (السبرتاية) وكنت مورد طلبات البن والعسل والطحينة التي كانت تعشق أكلهما، وكذلك "الكسبة"* من شارع (كسرى) لها، وحين سألتها عنه:

- كسرى ده اسم ملك من الروم اتسمى الشارع باسمه..
- ولا قصدك كسرى عظيم الفرس .. شعوب كده في آخر الدنيا..
- لأ كسرى الأولاني هو اللى اتسمى الشارع باسمه.. كان اجريجى كافر..
- ولما هو كافر بنحط اسمه ليه على الشارع .. هاه.. بنحط اسمه ليه؟؟..
- والنبي يا بني عندك حق !..

* الكسبة: نوع من المشهيات يشبه الجبن ذو لون غامق ومحبب ويتساقط منه الزيت وهو مصنوع من بقايا الحلاوة الطحينية.

- طيب كان يعرف أبوللو ولا لأ .. لو كان يعرفه يبقى اسمه كويس .. مش كده..
- مش عارفه يا وله ..
- أكيد أبوللو زاره في يوم ..
- إلا قوللي .. انت مين اللي قالك حكاية أبوللو دي ..
- أنا سمعتها فى حصة وسألت المدرس .. طلع هو كمان بيحبه .. أمي وخالاتي طلعوا ما يعرفهوش .. سألت خالتى حنان قالت إنها أول مرة تسمع بيه مني.. وخالتى أم هاشم قالت إنها سمعت اسمه لكن ماتعرفهوش شخصيا لكنها برضه عارفة إنه كان عايش في بلاد الجريج، حتى عمى خضير مايعرفهوش(وتوقفت قليلا) بس اللي يعرفه كويس قوي أكثر من كل دول عم (يانى) .. بيقول إنهم قرايب.. علشان كده أنا باروح لعم (يانى) مؤكد ها أقابل أبوللو عنده .. وهدى ورتني صور له في جرنان قديم عندهم شكله حلو ودقنه طويلة وبيضا قوى ياستى.. قوى.

انسحبت جدتي إلى الظل قليللاً وأغلقت عينيها فجأة ثم فتحتهما وسحبتنى نحوها، وأوسعت مكاناً لي على حجرها وأمسكت بيدها ووضعتها على رأسي، وأخذت أتمتم بما كنت أسمعه منها، ضحكت ضحكة خفيفة، ثم وضعت يدها على فمى وبدأت هى فى التمتمة وأخذت تحرك كفها على رأسي وصدري، كنت مستمتعا للغاية بمايجري لي، كان حجر جدتي هو جنتي حين أشعر بالقلق، أو يصعب على البوح بما في صدري فكنت أبوح لها بكل شئ، كنت أعلم أنها تشعر بالضجر فتنادي أمي، لكنها ماكانت تتركها تضربني، كانت تسحبني سريعا خلفها أو تضعني في حجرها، وكانت أمي تتراجع سريعا فكانت تعلم بأن نداء ستي لها ليس إلى وسيلة لتهديدى ومن ثم أصمت بعدها وأتكوم في حجرها فتبدأ هي في النوم وسرعان ما أروح أنا أيضا في النوم..

(٢٧)

صمت الشوارع يطرح نفسه علينا، فلم نستيقظ أنا وعمي خضير سوى العصر تقريباً، ولما لم يكن هناك ما نفعله حتى المساء، فقد أتى لي بملابس نظيفة لا أدري من أين، قال

إنها من الراهبات الجريك (في بورفؤاد)، كنت قد أحضرت منهم أشياء كثيرة فيما مضى أنا أيضا عن طريق (كريستينا)، سكت فجأة بعد أن لبست الملابس، بينما قال هو.

- بكره نروح الاستباليا .. أوعى تنسى لازم تفكرني .. أني* لما بأشرب بانسى.. إنت عارف..

ولا أدري كيف كان يمكنني أن أقوم بتذكيره، كأن لساني قد مات داخل حلقي أو قطع، وكأن حنجرتي لم تعد موجودة، وكأن الحياة كلها بلاجدوى حين تفقد القدرة على الاتصال بالآخرين، كانت لغة الإشارة هي البديل الوحيد، وكنت أفكر بأنني لو فقدت القدرة على الرؤية فكيف كنت سأتصرف؟ كانت أمي تبحث عن أسرار صمتي وحديثي فقط مع جدتي، كنت أتكلم معها فقط في المنزل مع أحاديث قليلة مع خالاتي، حتى كان هذا اليوم الذي أخذتني فيه للاسبتاليا للبحث عن أسرار صمتي المفاجئ، لماذا كنت أصمت أياما عن الكلام مع أي أحد ؟.

(٢٨)

كانت أمي تسحبني من يدي بينما كنت أتلفت باحثا في الوجوه عن ما لا أعلمه، حتى وجدت نفسي في حجرة الطبيب.. كان الطبيب أجنبياً في زيارة لمستشفى مصر والسودان، وكان طويلاً أبيض ذو شعر ذهبي، لا أدري لماذا أتذكره حين يأتي الحديث عن أبوللو، كان يشبهه الآن إلى حد بعيد، كان الطبيب يتفحصني ويتفحص رأسي، ويحاول الحديث معي هو والطبيبة المصرية التي سألتني أسئلة كثيرة أجبت عن بعضها وفشلت في الإجابة عن البعض الآخر لا لسبب إلا لشعوري بالخجل، (ستي) الإنسان الوحيد الذي لا أشعر معه بالخجل وأمطره بأسئلتي حتى أنني كنت أسأل نفسي أحياناً من أين آتي بهذه الأسئلة ولماذا تتدافع هكذا مني نحوها ؟ كأني أختزنتها لها، ولها فقط .. أين هي الآن ؟ كنت أشعر بأن الأمور ازدادت سوءاً في الأيام الماضية، لكن ها هو عمي (خضير) قد وجدته، وهو كما هو لم يتغير، كنت أخرج معه في رحلات صيد العصافير بالفخاخ الحديدية ذات الأنواع والأحجام المختلفة، فمنها الصغير للعصافير الصغيرة، ومنها الكبير للطيور ذات

*أني : يستخدم اسم الإشارة "أنا" في بورسعيد بهذا الشكل "أني"

الأحجام الكبير، وكان علينا أن نذهب أولا لحفر طينية حول البحيرة لنلتقط منها كلاب البحر* البنية اللون، وكانت هذه الكلاب بجانب بقايا الخبز المبلول هما الطعام الذى نضعه للطيور على الأفخاخ أو في سنارات الصيد، ثم نجلس هناك بعيدا تحت الأشجار، هو وأنا ننتظر ما ستأتى به الريح، وكان ينام كثيرا أحيانا فيما أذهب أنا لالتقاط الطيور من الأفخاخ، وإن لم نفعل ذلك نذهب لصيد السمك بالسنارة أحياناً، كنت أجلس مكاني لا أتكلم، لا أتحدث كثيراً مع أحد، لا أدري كيف لاحظوا في المدرسة ذلك، ظنوا أنني متخلف عقلياً في البداية، ولكني عدت بعد ذلك، وكنت أحقق درجات عالية، على الرغم من دخولي في مشاجرات صغيرة عنيفة لأثبت لهم أنني لست مجنوناً، لكنني لا أدري السبب وراء رغبتي الحقيقية في الصمت والانعزالية، انزعجت أمي في البداية من اسم المرض (حالة توحد) لكنني لم أعر هذا الأمر اهتماما، وتطلعت للطبيبة وأنا واقف بين أقدامها لا أدري شيئاً، وأخذت تشرح للطبيبة أحوالى، ومن أننى أهرب من المدرسة أحيانا إلى الشاطئ لأجلس وحيدا أغلب ساعات النهار، طمأنتها الطبيبة بعد حديثها مع الطبيب الأجنبى الذى قال أيضا بأن ملامحى طبيعية وليست منغولية، وبأن السبب قد يعود فى ذلك إلى أنه تم سحبى بآلة يمكن أن تكون قد تسببت فى تهتك جزء من قشرة الرأس، ولكن أمي قالت بأنها ولدتني ولادة طبيعية وإن كانت قد ولدتني في الماء، تعجب الطبيب من ذلك، ربما قال أيضا بأن ذلك يمكن أن يحدث لأي إنسان، وحين قالت أمي للطبيبة بأن جانا ممكن أن يكون قد مسني ضحكت الطبيبة وقالت ذلك للطبيب الأجنبي فضحك كثيرا، وفهمت من حديث أمي إلى جدتي أنني أعاني من حالة بسيطة من الوحدة وأنه لا داعي للخوف على وأنهم يجب أن يتركوني أعيش بشكل طبيعي، لكني كنت ألاحظ أن تعاملهم معي كان يتسم بشفقة زائدة عن الحد، إلى الدرجة التي كنت أتمادى فيها أحياناً في الشقاوة ومع ذلك لم يفعلوا شيئاً، كنت أحب ستي ثم هدى ابنة ياني ثم أمي ثم عمي خضير ثم جدي ثم أبى ثم خالتى حنان ثم خالتي أم هاشم ثم يانى وكريستينا وأخيرا حامد الفاروقى، أما الباقي فلم أكن أعيرهم اهتماماً إلا حين تحدث مشكلات تجبرني على الرضوخ لهم والاضطرار إلى سماعهم، وربما هذا هو أيضاً ما دفع أمي للخروج من المدينة بدوني، ربما أتت للمستشفى ولم تعرف أني موجود، وربما تركت لعمي خضير المهمة، فقد فعلتها أنا من قبل، حين هربت إلى "كريستينا" ومكثت لديها تلك الليلة قريبا من شاطئ بورفؤاد وأخذنا ننصت لأصوات السفن العابرة للقناة، لكني لم أفهم الأمر جيداً، كان هناك شيئاً غريباً لم أدركه ولم يحدثني عنه عمي (خضير).

***تستخدم هذه الحشرات الصغيرة في بورسعيد قريبة الشبه بالصراصير لكن لها كلابات صغيرة من الأمام بديلا للدود عند الصيد.**

- أنت ليه يا وله ما جتليش هنا من أول يوم أو رحت لأم سناء أنا كنت واقف على راس القرنة في شارعها يومين ..

تطلعت إليه مستفسراً، وكان يستطيع قراءة نظراتي ..

- آه أم سناء موجودة ما سافرتش .. مراتي سافرت هي وبنتها .. قالت لي انت مجنون ومشيت .. وأنا سبتها تمشي .. بصراحة كده أني نفسي أقعد يومين مع أم سناء .. كانت كابسة على نفسي يا أخي ..

أم سناء عشيقته الأخيرة، لم أع على عشيقته السابقة، أما أم سناء فهي عشيقة دائمة، لا أدرى لماذا كان يسميها باسم أم سناء، سمعته مرة يقول أن اسمها (أمل) لكنه لم يكن يستعمله كثيرا، يذهب إليها في الليل حين يهدأ كل شيء، يعبر الطرق من قلب المدينة حتى شاطئ الكنال الداخلي فيسير بين الملاحات هناك حتى مساكن القابوطي، تاركاً خلفه مصنع الغزل والنسيج، واضعاً تحت إبطه عكازه وهو يقفز به ولا يسير، وتحت الإبط الأخرى زجاجة منقوع الصرم ولا يخرج من عندها إلا قبيل الفجر بقليل قبل أن يستيقظ أي إنسان، يلاعب ابنتها الصغيرة ويحضر لها هدايا بسيطة، يشتري الروبابيكيا في الصباح، ويبيعها لبعض التجار في السوق في المساء، لا أدري إن كان يكسب من ذلك أم لا، لكنها كانت الشيء الوحيد الذي يجيده، حتى ستي قالت إنه ذات يوم باع عكازه ليلاً حين لم يجد ما يبيعه وفي الصباح اشتراه مرة أخرى، كيف باعه وكيف اشتراه لا أحد يعلم ؟ ! وأنه حين يضيق به الحال يتحول إلى سارق صغير، فينتش الأرغفة من الأفران، أو يسرق بطيخة في السوق، أو يركض بقطعة لحم من أمام الجزار في سوق الحميدي، كان يتحول إلى سارق صغير وكان جميع من في المدينة يحبونه رغم ذلك، كانوا يضحكون من أفعاله، ويتركونه يفعل مايشاء.

توقفت الحياة بالمدينة، ولم تتوقف حياة عمي خضير، ها هو يضحك ويسخر من كل شيء كعادته، ومع ذلك فلم يترك جنازة في المدينة إلا وسار فيها أو كان خلفها أو أمامها، وكان لا يتورع عن فتح (التربة) والدخول إلى قلبها وحمل الميت وتقليبه على الأرض وفك رباط الكفن ورش العطر والمسك حول الجسد، ثم يخرج ليأكل لدى أهل الميت، وفي المساء يكون لدى أي عشيقة من عشيقاته المتناثرات في أركان المدينة، حتى استقر على أم سناء، ها هي زوجته قد اختارت الرحيل مع أول طلقة في سماء المدينة، فبعد خديعة الأيام الأولى والتي لم يشك فيها أحد منا، كان عدد الطائرات التي أذيع أنها سقطت أكثر من الطائرات التي توجد في العالم، ومع ذلك كان الجميع يصدق، حتى وقعت الواقعة ..

(٢٩)

في هذا اليوم اللعين خرجنا جميعاً للشوارع .. كنت أشعر بأننا جميعاً عراة نرتجف في عز حر يونيو – ولم يكن أبي موجوداً، وكانت جدتي مستندة بمرفقيها على الشرفة .. كأننا كنا نسير في جنازة جماعية .. وكنت أغمض عيني وأتخيل أنها جنازتنا نحن .. نحن من صدقنا كل شيء .. نحن من صدقنا الكاذبين .. كيف لم ندرك أن ذلك ممكن أن يحدث؟ لم يتخيل أحدا أن ذلك ممكنا أن يحدث ولا في أحلامه حتى، كان الجميع يثق في عبد الناصر، لقد رأيته في تلك العربة المكشوفة مع تيتو رئيس يوغوسلافيا، حين أخرجونا من المدرسة لنستقبلهما بالأعلام والورود، يومها كنت اشعر بهذا التوهج الغريب لأني أخيرا سأقابله، وبعد أن مر أمامي وكنت محشورا وسط الأقدام، أدركت أنني رأيته من تلك الشعيرات البيضاء في رأسه والتى كانت تقترب في لونها من لون شعر أبوللو، كانوا أيضا يتحدثون كثيرا عن روسيا التي تساندنا، وعن قوة عبد الناصر نفسه، كان هناك شيئا غريبا بين الناس يحدث، هل كان عبد الناصر بالنسبة إليهم أبوللو كما هو بالنسبة لي، كان أمرا محيرا، وحين كنت أفكر في ذلك كنت أرتعد أن يفعل بي أبوللو مافعله عبد الناصر بنا في ذلك الوقت بالذات، الوقت الذي انقلبت فيه عليه، وكنت أشعر بدهشة كبيرة بسبب موقف أبي، كان يعلم بأنه دخل المعتقل بسبب عبد الناصر لكنه لم ينقلب عليه أبدا، أما أنا فكنت أثور أحيانا عليه، ولم أستطع منع نفسي من ذلك.

(٣٠)

ترتفع الرطوبة فتخفق الأنفاس في اضطراب، في الماضي كان مساء المدينة يمتلئ بالأبخرة التي تتصاعد في السوق من باعة السمنية والتمرية، والملاويق والزلابية، والأفران، وفي الصباح كانت صيحات باعة السمك بجميع أنواعه من البربوني والشبار الصغير (الجوابى)، والباغة الأصفر اللون، والشنشلة وأبو كرش وغطى موسى والبراغيث والشيكال ثم الكابوريا أو الحناجل، إلى الأسماك ذات الأحجام الكبيرة مثل الوقار والقاروس واللوت والنقط والبوري بأنواعه المختلفة كالهليلي والجرانة والسهيلي والقصوفة ثم الشخرم والمياس

والسيوف والدنيس وأشباهه كالصيجان والشفش والسرغس وأخيرا الأحناش وباعة الطيور كالفراخ والسمان والشرشير والمليحة، والعديد من الطيور المهاجرة مروراً بزفرات الأطفال وهم متأففون من ذهابهم إلى المدارس في الصباح، واحتكاكات كاوتش العجلات التي يمتطيها المئات في ذهابهم للهيئة والترسانة* في القناة، أو لمصنع الغزل والنسيج ، أما الآن فلا شيء، السماء صافية تماماً، وفي المساء القمر في السماء بدر، رمادي اللون، على البعد أرى على سطحه تلك البقع السوداء الناتجة عن احتراق الجن أو الصدأ والتى تتحول فى مخيلتى إلى أشكال حيوانات كثيرة، وكنت بشكل ما أستطيع تمييز الأرانب والسلحفات والقطط والخيول، وكنت أحياناً لا أرى سوى أبوللو بعربته الذهبية فقط والجياد الأربع التي تقودها، وأتسائل في نفسي متى سيأتي ؟ !

(٣١)

(ستي) ترتجف فجأة حين أسألها عن السبب في اختلاف لوننا عن باقي الأسرة

- يا وله أنت مش سايب حاجة ما بتفكرش فيها .. ؟

ثم تضحك وتكشف عن أسنانها البيضاء الكبيرة.

- أصل احنا من النوبة أساساً .. بالضبط احنا من بلاد الحلفا في السودان ..
- يااااه .. من السودان .. وإيه اللي جابنا هنا ..
- ده موضوع طويل يا حبيبي .. ودماغي وجعاني ..
- طيب أنزل أشتري ليكي بن وكسبةوتحكيهولي ..

تعدني بالحكي بعد شراء البن، وحين أعود أجلس أمامها، وهي ترتشف من الفنجان وتتطلع إلى وتحكي عن جدتها الكبيرة التي أتت مع أبيها من شمال السودان أيام الخديوي، واستقرارهم هناك في القاهرة، وحين افتتاح قناة السويس استقر الرأي على أن يمكث الجد ببورسعيد لتنظيم استقبال الخديوى والامبراطورة أوجيني وبقية ملوك العالم مع الحاشية، ولما أحسن الاستقبال تم تركه هنا ليقوم في كل مرة يأتي فيها الخديوي إلى بورسعيد باستقباله وترتيب إقامته وهكذا انتهى بهم الحال هناك.

* هيئة قناة السويس والترسانة البحرية.

- طيب وليه عين جدي زرقا ؟
- علشان أصلّه تركي .. أبوه كان من الأتراك العثمانلية ..
- يعني أنت أصلك سودانية .. وجدي أصله من الأتراك ..
- أيوه ..
- طيب هو أبيض خالص وانت سوده خالص .. اتجوزك إزاي ..
- ربنا يهدك يا وله .. يا وله بطل ..

ولم أكن أسكت، كنت أعتبر ما حدث عجيبة من عجائب الدنيا، فكرت في الأمر مراراً وتكراراً، كانت جدتي سوداء للغاية وربما يمكن أن أقول قبيحة، أما جدي فكان وردياً، كيف وقعت عينا جدي الزرقاء الأبيض البشرة لدرجة الإحمرار على جدتي السوداء تماماً، وماذا أحب فيها، كنت أسير أحياناً وأتحدث إلى نفسي، إلى أن سألتها مرة أخرى ذات يوم :

- طب اشمعنى أنا وانت بس اللي سود والباقي بيض .. ليه ما طلعناش كلنا كده أو كلنا كده ..

ولم أكن قد تعرفت بعد على قانون الوراثة (لمندل)، وكنت أجد ذلك أحياناً مدعاة لدهشتي، كيف أصبح كل هؤلاء السودانيين والأتراك واليونانيين جزءا من شعب بورسعيد، هل المصريون تجمع من شعوب أخرى؟ ولماذا أعطى عبد الناصر (يانى) شقة في عمارتنا..؟ حملت السؤال وركضت إليه .. فقال بلكنة يونانية لم تغيرها السنين، مبتدئا حديثه بكلمة طبعا اليونانية والتي ترجمتها هدى لي ذات يوم، إذ كان يرددها دائما.. والتي أتذكر دائما أننى سمعتها من قبل لا أدرى أين؟.

- فيفيا .. يا حبيبي أنا مصري .. فيفيا بورسعيدي .. اوعى تفتكر إني جريجي.. أنا حاربت معاكم في ستة وخمسين وما رضيتش أتعتع من بورسعيد .. بيتي أنهدم في ستة وخمسين علشان كده ناصر اداني الشقة دي في عمارتكم أول ما بناها.. كتير من جدودي عاشوا هنا وماتوا هنا، انت ماتعرفش بورسعيد دي بالنسبة لي إيه!!.

كنا خليطاً عجيباً من السكان ومع ذلك لم نتشاجر يوماً حول لون بشرة أحد منا، وإن كنا نعاير بعضنا أحياناً باختلاف ديانتنا وملتنا، ولكن لم أجد في ذلك بأساً، كانت مساكننا الشعبية غريبة التكوين، كانت كل شقة يسكن بها أكثر من عائلة، خاصة عائلة الولد سيد الفحام وأخته لبنى، وكنا كثيري الشكل معا بسبب أخته وبسبب هدى، ولكن في هذا اليوم انتهى شجارنا إلى الأبد

.. انتهت تلك الشخرات والحركات النسائية القارحة، انتهى قلب المدينة، وتحول إلى شئ آخر، انتهى التاريخ الحقيقي، ليبدأ تاريخ مشوه ومصنوع، انتهى ليحل محله صمت أبدي، لايمكن فك طلاسمه أبدا، كان كل شئ قد انتهى ولايمكن أن يعود أبدا سيرته الأولى.

(٣٢)

لم تكن معركتي الأولى في الشارع مع سيد الفحام، فقد كان سمينا بشكل ملحوظ ذا وجه دائري وعيون واسعة وأنف صغير للغاية لايكاد يرى، وكانت أخته تشبهه كثيرا، وعلى الرغم من شكلاتي معه إلا أن علاقتي بأخته كانت مختلفة تماما، وكان ذلك واحدا من أسباب شكلاتنا، والسبب الرئيسي كان ابنة ياني (هدى)، تحملت الكثير منه بسبب (هدى) وبسبب مضايقاته لها، كانت ذات شعر أسود غزير، وعيون زرقاء، كنت أرتاح لها ولكني لم أتحدث معها أبداً، إلى أن كان يوم وقعت فيه في قعر عربة (العربي) بائع الفل، وهي مركونة في مدخل العمارة، وقد جعلت مقدمتها إلى أسفل أما يداها الخشبيتان فكانتا مرفوعتين لأعلى في الخلف، وفي باطن العربة في الخلف وقعت (هدى)، وأخذت تنادي، لا أدري كيف سمعتها، كان صوتها ضعيفاً للغاية، نزلت السلالم بهدوء ونظرت داخل العربة فوجدتها جالسة هناك وهي تبكي في الظلام مددت يدي إليها، فأمسكت بها، وهكذا خرجت، لم نكن نتكلم كثيرا في البداية، كنا نلعب سوياً، أو نتفرج على الأفلام التي كان يعرضها (يانى) على الحائط لليونان، وكانت هذه المرات التي استطعت فيها أن أرى (أبوللو) عن كثب، أو تمثاله الحجري ولحيته الكبيرة، وكنت في غاية الدهشة من هذه الآلة التي تدور وهذه الصور التي تتحرك على الحائط، حاولت إمساكها فوجدتها تركض على يدي، فكنت أصرخ من الفرح، وكانت هدى تنضم لي في لعبتي مع الآلة العجيبة، وكان (يانى) يقف ضاحكاً وهو يتجرع (منقوع الصرم).

- الوله ده ممسوس فعلا.. فيفيا ممسوس ..

وكانت زوجته تجلس على السرير شبه عارية، ترتدي هذا القميص الداخلي اللامع كعادة نساء بورسعيد، وقد كشفت عن فخذيها تمسك بين يديها قطعة من الحلاوة تقوم باستخدامها في نزع شعر قدميها، وكانت النساء في بورسعيد كثيرا مايفعلن ذلك على سلالم العمارات حين يكون

أزواجهن في العمل أثناء النهار، وكان ياني يقبل أحيانا من الداخل فيقفز إليها على السرير، وكان يروح معها في عناق طويل، ونجلس أنا وهدى تحت السرير نستمع إلى ما يجري، ولم أكن أجد تفسيراً حقيقياً لتلك الشهقات المتصاعدة منهما، إلا حين سألت (ستي) التي قالت وهي تصرخ :

- الجريجى ابن الكلب الكافر ها يعلمك البوظان بينام مع مراته الفاجره قدامكم.. يا سعاد ..

ولم تفهم أمي من جدتي كلمة واحدة، فقد لبسها عفريتها الذي يلبسها عادة حين تصل لأقصى درجات الغيظ، ولا تجد ما تقوله فتأخذ في إصدار أصوات غريبة، أو تتكلم كأن رجلا هو الذي يتكلم، ثم تروح في إغفاءة طويلة تفيق منها بعد مدة ولا تتذكر ما حدث.

(٣٣)

سألتها يوماً لماذا يحدث لها ذلك، وأجابت بأن عليها شيخاً اسمه الشيخ عثمان خلف.

- يعني إيه عليكي شيخ يا ستي ؟ !

تطلعت في وجهي طويلاً وهي ترتشف فنجان القهوة الأسود المحوج.

- يعني جوايا، ساكن جوايا .. أفهمك ازاي بس يا ربي ؟

أخذت تشرح لي بيديها وكفيها السوداوين وأنا أحاول تصور الأمر، وأخذت انتقل ببصري من صدرها إلى كتفها الأيمن فكتفها الأيسر إلى رأسها، لكني لم أجد أحداً، اقتربت منها وفجأة أمسكت بفمها وحاولت فتحه، فصرخت وصدتني بيدها لأسقط بعيداً ..

- أنت اتجننت يا ابن الكلب ..

- أكيد هو مستخبي في حنكك* يا ستي مش كده .. افتحي بس ها أشوف .. والله هاشوف بس واقفل حنكك على طول.

تطلعت في وجهي بتردد وأنا جالس على الأرض بمرفقي الصغيرين، ثم ابتسمت فجأة تلك الابتسامة العريضة وقالت .

---

*حنك: فم

- تعالى .. إلهي يدوخك زي ما دوختني ..

اقتربت منها فطبطبت على رأسي وفتحت فمها على اتساعه فرفعت رأسي وأخذت أتجول بعيني داخل فمها فلم أعثر على أحد، فأسقط في يدي وطأطأت برأسي إلى الأرض وقلت في هدوء :

- ما فيش حد خالص ..
- أصله ما بيطلعش كده يا وله ..
- بيطلع ازاي ؟ ..
- لما باتزربن ..
- يعني لو زربنتك دلوقتي ها يطلع ؟
- بس يا بني أنا مش عاوزه أتزربن .. تعالى .. تعالى .. أحكيلك حدوته ..

يستقر بي المقام على فخذها فأمدد بقدمي على الكنبة التي تلاصق الحائط في نهاية الشرفة والتي صنعتها لنفسها من الأقفاص وبعض الحشيات، وأخذ صوتها ينسكب في هدوء داخل أذني، تطلعت إليها فخيل إلى أنني أرى الشيخ عثمان خلف فوق رأسها وكان يبتسم لي، فابتسمت له ورحت في نوم عميق.

(٣٤)

من المؤكد أن كل من ولد على الأرض ينتمى لتلك الكائنات البشرية والكائنات الأخرى التى لاتملك سوى قدرات محددة ومشروطة بالارتباط بالأرض والطين، ولكن ماذا أفعل إذا كنت أنا قد ولدت فى الماء؟

هكذا كنت أفكر أحيانا، ولم تكن هناك ثمة عوائق يمكن أن تمنعنى من هذا التفكير فى ظل اتهامى الدائم باعوجاج عقلى، أو هكذا كنت أظن، فلم تظهر لى زعانف ولم تعل ظهرى القشور، ولم أكن صاحب ذيل يتراقص، ومع ذلك فلم أكن أتمكن من المكوث تحت الماء كثيرا، وحين حاولت ذلك كدت أختنق لولا يد جدى التى رفعتنى من تحت الماء وكنت قد بدأت أفقد إحساسى، عللت (ستى) أفكارى بهذا المس الغريب من الجان، والسبب فى عدم احتراقى هو أننى حين كنت أخرج من رحم أمى تحت الماء مسنى عون من الجن، والجن من

النار، والماء والنار لايجتمعان، ضدان فريدان، وبالتالى فقد خرج هذا المس على هيئة أسئلة تتدافع ولاتنتهى، حتى أننى سألتها إذا كان الجن من النار فكيف لم ينطفئ تحت الماء؟ أجابت بأنها نار سحرية لاتنتهى ولاتطفئها الماء، كنا نظل فى هذا الجدل لساعات، الذى زاد الطين بله هو إصرارى الدائم على الحصول على إجابات مهما كان الثمن الذى سأدفعه، كانت تلقى إلى بأول الإجابات التى تخطر على بالها، غير مدركة بأن ذلك لم يكن يشفى غليلى على الإطلاق، ولم تكن تحسب حسابا لما يمكن أن يرد على بالى بعد ذلك.

أما كيف ولدت تحت الماء فهذه حكاية عجيبة أخرى حكتها لى وكنا جالسين تحت الشمسية على البحر وكنت أنا أمسك بشقفة بطيخ نمس، وكان عبد الوهاب يغنى (صوت الجماهير)، وكانت هى غارقة فى تسبيحاتها بسبحتها الخضراء الطويلة، حين سألتها فجأة:

- يعنى أنا مش ممكن أغرق..

تفزع ثم تبتسم وتخرج من تسبيحاتها وتقول

- لأ مش ممكن تغرق؟

- ليه بقى مش ممكن أغرق هو اني مش زى الناس اللى بتغرق؟!

- لأ ياحبيبى انت مش زى الناس ممكن تغرق..

- بس أني مرة كنت هاأغرق وجدى هو اللى طلعنى

- جدك كان بيضحك عليك.. بس انت ماتعملش كده تانى..

- طب ليه بقى مش ممكن أغرق.. هاه.. هاه ياستى.. هاه؟

- انت ياوله مش هاتبطل أسئلتك دى اللى مابتنتهيش ياوله؟

أبتسم وأتطلع إليها وأنا بين الشك واليقين، تقرأ مافى عينى

- أصلك ياوله اتولدت فى الميه..

وكانت تلك المرة التي توقفت عند حديثها حول ولادتي فى الماء، نهضت بنصف جسدى من فوق صدرها وكنت قد توقفت عن قضم شقفة البطيخ المرملة، وتطلعت إليها فى استغراب!

- أيوه اتولدت فى الميه.. أمك ولدتك فى التهجير فى حرب ستة وخمسين..

- يااااه وبعدين..!

- كانت راكبة هى وجدك وأنا واعمامها على المركب، وكانت الدنيا زحمة على الآخر.. ما اعرفش إيه اللى حصل لقيتها بتغرق قدامى فى المية.. حد زقها.. اتكعبلت..المهم جدك واعمامها نطوا وراها الميه وأنا ساعتها كنت بأرقع بالصوت.. وبرضه أبوك ماكانش موجود.. كان فى مصر ساعتها.. وأنا ماكنتش عاوزه أهاجر لحد مأمك تولد.. لكن جدك قال لأ..

- وبعدين..!

- أمك لما وقعت فى الميه من خضتها رحت إنت نازل.. أكيد ساعتها مسك العون.. جدك بقى راح ماسكها من شعرها وجرها لحد حفة المركب رفعها الرجالة وبعدين انت كنت متعلق من تحت.. جدك برضه راح نازل تحت الميه وطلع رافعك فى إيديه وكنت انت مربوط فى الحبل السرى فيها..

- إيه الحبل السرى ده..

-ده الحبل اللى ربنا بيخلقه علشان يربط الولد أو البنت بأمه لما يكون فى بطنها علشان مايضيعش لو وقع منها فجأة..

- وبعدين..!

- وبعدين ياحبيبى لما انت طلعت مسكت أنا باسنانى دى الحبل ده ورحت قاطعاه..

ضحكت وقلت لها:

- وهو انت فيكى أسنان ياستى..

ضحكت هى الأخرى وقالت:

- يابن الكلب وهو أنا اتولدت كده.. كان زمان عندى

- وبعدين..!

- وبعدين ياسيدى مسكتك من رجليك وقعدت أخبط على ظهرك علشان تعيط.. الغريبه إنك ياوله ماعيطتش.. بيتهيألى كده والله أعلم إنك ضحكت.. كان الصوت اللى طالع منك ضحك مش عياط.. حتى ساعتها كل الناس اللى فى المركب قعدت تضحك عليك..

- وبعدين..!

- وبعدين إيه تانى ياوله ماخلاص..

- لأ يعنى هو أنا ليه ماغرقتش..

لم ترد على، فقد سرحت بعيدا وأنا لم أكرر السؤال، وتوقفت عن قضم البطيخ، وأخذت أتفحص فى مياه البحر، كنت أدرك بشكل ما أن هناك سرا دفينا يشرح علاقتى بالبحر، كيف كنت أهرب من المدرسة أحيانا وألتجئ إليه، فأجلس فوق تلك الصخور بعيدا هناك بعد مطار الجميل، وآخذ فى الحديث إلى الجنيات اللائى كن يظهرن حين أكون وحيدا، أحيانا ماكنت أراهن فى لحظات شرودى التى لاتنقطع، لكنهن كن يختفين فجأة، إلى أن كان ذلك اليوم الذى أعلنت فيه لجدى وأنا فوق الفلوكة بينما كان هو يغطس ويقب فى الماء خلف شبكته أننى رأيت جنيات صغيرة ملونة، وأقسمت له أننى رأيتهن أيضا فوق سطح العمارة، وكنت ألعب وحدى وقتها لكنهن اختفين فجأة أيضا، كأنهن يرفضن أن أبوح بأسرارى معهن، وأدركت فى تلك اللحظة بأننى لايجب أن أبوح بما أراه، وأن لاأتكلم على الإطلاق بما أراه، وقد يكون هذا سبب أيضا لما أنا عليه الآن من فقدانى لقدرتى على الكلام، لاتصدق خالاتى أيضا كلامى ويضحكن على حديثى، ومع ذلك كنت أعاود الصعود إلى سطح العمارة فى أيام الشتاء خاصة أوقات المغربية، وذات يوم من أيام رمضان، وكنت أقف فوق السطح منتظرا سماع صوت إطلاق مدفع الإفطار، رأيتهن جميعا، كن فى حجم الفراشات الملونة الكبيرة، كان سربا من الجنيات، يلمعن بشدة وكن يرتفعن وينخفضن، فقفزت دون أن أدرى فجأة فوق سور سطح العمارة خلفهن، وسمعت فجأة صراخا فى الأسفل، فنظرت تحت أقدامى لأكتشف أننى أكاد أحلق فى الفضاء، فسقطت على ظهرى وأحسست بأنهن يحملننى، وبدلا من سقوطى فى الشارع من الطابق الخامس، سقطت على سطح العمارة، ولم أشعر بشئ بعدها، وحين فتحت عيناى، وجدت أمى وخالاتى فوق رأسى، كنت على سرير ستى أتطلع إليهن، وظننت أننى رأيت الجنيات فى الأعلى فرفعت يدى فى بطء محاولا الإمساك بهن، لكنهن اختفين ، ولم أحك عن مارأيته لأحد على الإطلاق ماحدث، ولا عن السبب الحقيقى الذى جعلنى أتسلق سور سطح العمارة .

سمعت تمتمات ستى فأحسست بالراحة واستغرقت فى النوم بعد ذلك، لكننى كنت متأكدا هذه المرة من أننى رأيتهن وأنهن حقيقيات وليس من صنع خيالى، ومع ذلك كنت أراهن كثيرا فى الشوارع فكنت أسير وأنا أبتسم دائما ولم تفارقنى الابتسامة رغم كل ماحدث إلا بعد ذلك بسنوات حين انتهى عصر الجنيات.

تطلعت إلى الماء وكان انفجار الفقاقيع جميلا للغاية وكنت أميز أصوات تلك الانفجارات الصغيرة رغم كل الضوضاء المحيطة من أصوات الناس وضحكات البنات والأولاد وصراخ الباعة وأصوات ارتطام الكرة بالمضارب الخشبية، أمعنت النظر فى ستى فوجدتها قد نامت، فأسندت رأسى إلى صدرها وأغمضت عينى ورحت فى تلك الإغفاءة المطمئنة.

(٣٥)

توجهنا جدى وأنا بالفلوكة الصغيرة نحو عرض البحر، وكان يحاول نشر شبكته فى الهواء الذى كان يعاكسه، وحين نجح أخيرا فى ذلك، جلس منتظرا وهو شبه عار، وكانت عضلاته بارزه، خاصة وجنتيه وذقنه وعضلات يديه، وكان حزام الفتق مازال مربوطا على بطنه، كان جسده الأحمر يلمع تحت سطح الشمس، وكانت رأسه الصلعاء تنعكس عليها ظلال المياه كلما انحنى يتطلع فيها فأحسبه جزءا من هذا البحر، اشعل سيجارته وتطلع نحوى باسما، وكأنه قرر أن يحكى لى أحد أسراره:

- تعرف ياوله.. جدى برضه كان عايش فى بورسعيد.. بورسعيد زمان كانت القناة وبورفؤاد وحى الأفرنج، وحى العرب وكانت كل بيوته خشب، كانت فاضية ماكانش فيه زحمة زى دلوقت، كان الواحد يخاف يمشى فيها بالليل لوحده..

استطرد فى حديثه عن جده، ليحكى تلك الحكاية الغريبة التى كنت أسمعها للمرة الأولى، كان جده يسير فى عز الليل على شط الكنال الداخلى، بعد أن دفعته أمه للخروج لإحضار كيس من البن المطحون، تسلح بسكين كبير وضعه فى جراب جلبابه، ومشى فى الظلام سائرا وحيدا حين وجد نفسه أمام حائط مسدود فقفل راجعا فى الطريق المعاكس، ولم يمض بضع خطوات إلا ووجد أن الطريق أيضا المعاكس مغلق بجدار عال يستحيل تسلقه، فاتجه نحو الغرب ولم يمض بضع خطوات إلى ووجد نفس الجدار أمامه، فاتجه نحو الشرق فحدث معه ماحدث من قبل، فاستعاذ بالله، ولم يكمل جملته إلا ووجد أمامه حورية بحر ذات جمال فتان خرجت من الماء عارية تماما تدعوه للدخول معها فى الكنال، فصرخ فيها بأن تنقشع، وأعطاها ظهره، فواجهته من الناحية الأخرى وقد تحولت إلى غلام أبيض عار تماما يراوده عن نفسه فصرخ فيه أيضا، وحول وجهه إلى الناحية الأخرى فأتته الجنية هذه المرة على هيئة عون طويل أسود عار أيضا أخذ فى تهديده ومضايقته فما كان من الجد الأكبر سوى أن أمسكه فجأه من رقبته وأخرج سكينته سريعا يريد القضاء عليه فاسترحمه العون، فقال له جدنا الأكبر بأنه سيتركه على ثلاثة شروط أن يحضر له كيس من البن وأن يختفى هو وحوائطه، والشرط الثالث أن يعمل عبدا لديه كلما احتاج إليه يحضر، وافق العون بعد أن هدده جدنا بالقتل والحرق، وجد جدى كيس البن فى يده واختفت الحوائط، واختفى الجنى بعد أن وعد جدى بالحضور إليه كلما احتاجه، ومن هنا تبدو علاقة أسرتنا بالجان كبيرة ومازالت

مستمرة، وعاد الجد إلى أمه وأخبرها ماحدث، فطلبت منه أن يقسم على ذلك فأقسم، وأمن الأب على كلام إبنه ومن أنه هو أيضا خرج له نفس العفريت وفعل به مافعله ابنه، ومن يومها لم تنقطع علاقتنا بهؤلاء الجان.

كنت استمع إليه وأنا غير مصدق بأن جدى يمكن أن يتحدث فى هذا الأمر، وأدركت فجأة بأن عائلتنا بها هذا المس العجيب الذى لن ينتهى أبدا، وسواء كانت جدتى أو جدى، وإلا كيف تزوج هذا الرجل الذى يشبه الملائكة من تلك المرأة السوداء.

كثرت الأسئلة فى رأسى، لماذا لابد للمرأة أن تتعرى كى تجذب الرجل، ولماذا تحولت إلى ولد أبيض عار؟ ماهذه العلاقة الغريبة التى تربط المرأة العارية بالولد العار، كان بوسع جدنا أن يطلب كنوز العالم فلماذا اكتفى بما طلبه، لماذ لم يطلب أجنحة للطيران أو أن يكون ملكا على العالم؟ لم أكن أدرى كيف تبرز هذه الأسئلة وإلى أين تختفى، كنت أتطلع إلى رأسى أحيانا فى المرآة بحثا عن مكان وجود الأسئلة والاجابات والكلام والأفعال والخيالات فلاأجد سوى ذلك الشعر الأسود الطويل وتلك البشرة السمراء وتلك الندوب بفعل معاركى الصغيرة، (ترى أين مكان هذه الأشياء في الدماغ على وجه التحديد؟) ولما لم أهتد لشئ انتهيت إلى أننى يجب أن أقابل هذا العون الأسود الطويل وأطلب منه أجنحة فى حال ماإذا لم أستطع مقابلة أبوللو.

(٣٦)

"دقت ساعة العمل الثورى فى كفاح الأحرار"

كيف كنت أحفظ هذه الكلمات، وأرددها دون أن أفهم أو أعى كثيرا معناها، سألت ستى لماذا تدق الساعة الآن؟! لماذا تدق فى هذا الوقت بالذات، لكنها واحدة من الأسئلة التى لم تجيبنى عليها، كنا نشترك معا فى إعجابنا بصوت عبد الوهاب.. لكن حكاية الساعة كانت سرا مغلقا على كلينا، أما الكلمات التى كانت تأتى بعد ذلك فكانت بالنسبة إلى كأنها قادمة من المريخ، سألت (حامد الفاروقى) وكنا نسير سويا، وقد أمسكت بيده عقب خطبته لخالتى حنان، تطلع إلى وهو يبتسم:

– انت مش شايف إن عقلك صغير قوى على الكلام ده..على العموم ياسيدى أهى أغنية علشان الثورة تقدر تنتشر فى العالم.. عبد الناصر عاوز كده.. وفيه ناس كتير فى العالم

عاوزينه يعمل كده.. وفيه ناس تانية بتطلب مساعدته.. هو قائد الثورة.. وفيه ناس تالته مش عاوزاه يعمل كده.. الدنيا كده.. ناس معاك وناس عليك.. حتى لو كنت نبي!

– لكن ياعمى الثورة قامت من زمان.. فيه ثورة تانى..

– فيه.. تانى وتالت ورابع.. طالما فيه استعمار ..

– هو إيه الاستعمار.. الانجليز؟

– الانجليز.. أو أى ناس تحتل أراضى وأملاك ناس تانية.. الأجانب اللى بيحتلوا أرضنا وينهبوا ثرواتنا..

– يعنى لما مصرى ينهب ويسرق مصرى يبقى مش محتل برضه..

– لأ.. ده بيتسجن فى مصر وبياخد عقابه..

– يعنى مثلا الدكتور أبو شعر أصفر اللى فى المستشفى محتل..

– لأ .. فيه أجانب كويسين .. زى (وسكت لحظة).. آه.. زى يانى مثلا.. فيه أجانب كويسين وفيه وحشين.. زى ماعندنا هنا مصريين كويسين ووحشين..

– طيب إنت مسافر اليمن ليه.. علشان تحارب الاستعمار..

– آه اليمن فيها رجعية وفيها استعمار بيشتغل مع الرجعية ..

– يعنى إيه رجعية..

رأيت قلقا فى عينيه:

– انت مش هاتبطل أسئلة..

سكت فجأة، وقد انتابتني الحيرة، لايعلم عنى الكثير، وهانحن نصطدم، فجأة لمحت أمامى على الأرض أموالا كثيرة قد افترشت المكان، فصرخت وأنا أشير بأصابعى إليها، وفيما عينا حامد تتابعان أصابعى، كانت عشرات الجنيهات متناثرة هنا وهناك، إضافة إلى عشرات القروش والميه فضه* والشلنات والبرايز، انحنيت لألتقطها،، فأوقفتنى ضغطة أصابعه على كتفى، فارتفعت معه، ووضع إصبعه على فمه وهو يحذرنى.

– إوعى تاخد حاجه مش بتاعتك..

– لكن دى مرميه على الأرض..

---

*عمله كانت تستخدم حتى الستينيات تمثل قرشين صاغ.

- وماله صاحبها هايرجع لها..

أخذت أتطلع إليه برهة، ثم طأطأت رأسى وعدنا للسير من جديد، كنت أقلب الأمر فى نافوخى، وأدركت بأننى لم أعرف حامد الفاروقي بعد، كيف لم ألاحظ شعره الأصفر وعينيه الخضراويين، كان جميلا بقميصه النصف كم التي برز منه عضلات صدره وشعيراته الصفراء الطويلة التي تقترب من ذقنه، أمسكت بيده فى قوة فجأة وكنت أتخيل أننى أسير فعلا مع أبوللو، وكان قد غاب عنى طويلا ولكنه كان يرسل لى تلك الجنيات فأعلم أن وراءه أعمالا كثيرة، لكننى فى هذا اليوم لم أر جنيات، كنت أدندن بمقاطع أغنية طفولية، وأنا أتطلع إلى الشمس البعيدة الراقدة هناك خلف السحب البيضاء والرمادية التي كانت تركض في سماء مدينتي، كنت ممسكا بيده وأنا أتطلع إليها باحثا بعيني الشريدتين عن موقع أبوللو.

(٣٧)

فى تلك الليلة قبل الحرب بعدة أيام، شهدت تلك المعركة التى جرت بين خالتى (أم هاشم) وخالى (مسعد)، كانت قد عادت متأخرة كعادتها فى المساء، وكنا نجلس جميعا فى الصالة وكانت خالتى حنان وأبى وأمى جالسين يأكلون معا، وكانت جدتى تحكى تلك الحكاية الغريبة عن الشيوخ العميان وطريقتهم فى استخراج اللحم من الطبيخ، كنا نضحك حتى تمتلئ عيوننا بالدموع، حين دخلت خالتى أم هاشم، كانت جميلة للغاية، وكانت محط أنظار كثير من الشباب لكنها لم تكن تلتفت إلى أحد، كان كل همها أن تسافر إلى أوروبا، سألتها ذات مرة إن كانت ستقابل أبوللو فضحكت ولم تجبنى، تركتنى لحيرتى، حين دخلت من باب الشقة وكانت ملامحها تشى بالسعادة، قالت وهى على الباب دون أن تنتبه لوجود خالى مسعد:

- جبت تأشيرة اليونان وهاأسافر بكره..

فوجئت بحركة خالى مسعد السريعة، إذ فى قفزة واحدة كان قد أمسك بها، وانهال ضربا عليها بقبضات يده وبأقدامه، سقطت على الأرض أمام الباب وهى تصرخ وحاول أبى انقاذها منه فناله منه ضربة فى وجهه، فما كان من أبى إلى أن رفعه من وسطه وألقى به إلى الحائط ووقف أمامه متنمرا ومستعدا للقتال، أدرك مسعد بسرعه خطأه، كان أبى بحجم مسعد مرتين، على الرغم من جسد مسعد الرياضى إلا أنه تراجع وبدأ يتمتم باعتذارات وتوقف أبى وتوجه نحو خالتى أم هاشم وخلفه الجميع، نهضت من على الأرض وكانت الدماء قد غطت

مناطق حول فمها وأنفها وصعدت إلى خدها الأيسر مع كدمه بدأت تتحول للون الأزرق تحت عينيها الخضراوين، ورغم كل ذلك كنت أراها جميلة للغاية فأخذت أتطلع إليها وكان ضوء مصباح الصالة يضرب فى عينى فكنت أتخيلها ملاكا امتلأ وجهه بالدماء فكنت أضحك وأبكى فى آن واحد.

بدأت فى الكلام وانسحب مسعد إلى ركن الصالة خلف خالتى حنان وأمى، قالت خالتى أم هاشم أنها ستسافر إلى اليونان، وهنا بدأت أنتبه لحديثها، أدركت للوهلة الأولى بأنها المرسال الذى سيحمل رسالتى الثانية إلى أبوللو، كان على أن أكتب الخطاب هذه الليلة، وفكرت قليلا بأنه قد لايعرف العربية، لكننى أفرغت هذه الفكرة من رأسى، فأنا متأكد أنه أحد الآلهة الذين يمكنهم فك أى رموز، لذلك لاداعى لأن أنزعج من هذا الأمر، قالت بأنها حصلت على التأشيرة اليوم وأنها ستغادر.

قال خالى مسعد بأنه سيقتلها وأخذ يشوح بيديه، فيما خالاتى يحاولن تهدئته، قال لها

- "لو مشيتى هاأمرعك*.. عايزة تمشى علشان السنكوح** بتاعك الجريكي.. مش هايحصل.. على جثتى"

تطلعت إليه، ولم تتكلم، كنت أعلم أنا وهي بأنه كثير الخطايا، وكنت أعلم بمحاولته لتقبيل كريستينا، لكنني كنت نسيتها في ظل انشغالي بأبوللو، بينما ظل هو مستيقظا إلى أن سقط على الأرض نائما فى الخامسة صباحا، وهنا نهضت هى أمامنا جميعا وملأت حقيبتها ببعض الملابس وخرجت لاتلوى على شئ، فيما أنا كنت قد ناولتها رسالتى إلى أبوللو خلسة اثناء دخولها الحجرة.

كنا نعلم منذ زمن طويل أنها قررت السفر إلى اليونان للعمل أو للزواج، كنا نعلم جيدا بأنها تحب هذا البحار الجريكي، تكلم الجميع معها، لكن لم يستطع أحد أن يثنيها عما تريده، كانت قوية للغاية، تشبه جدي في عناده، الوحيد الذى لم يحضر هذه المناقشات كان خالى مسعد، صحيح أنه حضر مرة من المرات ولكنه لم يعر الحديث أهمية واكتفى بوعيده، وكان دائم الغياب فقد كانت كل أعماله فى الإسكندرية، أبدى رفضه المطلق لفكرة السفر، وتكهرب الجو، وسكتت خالاتى، وانتهى الموقف، لكن الجميع كان يتوقع حدوث ذلك، على الرغم من كل الاعتراضات التى جرت إلا أنها كانت تزداد عنادا وتظل تكرر كلمة لا دون توقف، كنت أراها مثل جدي أحيانا، وهكذا فى الفجر تسللت من أمامنا

---

* يمرع : يقطع أو يمزق والمعنى سوف أمزق جسدك.

** السنكوح : الفقير النكرة

وفتحت الباب دون أن يعترض أحد، ونزلت على السلم متوجهة إلى القاهرة ومنها إلى بلاد الجريج، أخذنا نتطلع إليها جميعا من الشرفة، بكينا جميعا، أما أنا فكنت سعيدا للغاية لأن أحد أفراد أسرتى سيقابل أبوللو أخيرا وسيعطيه رسالتى.

(٣٨)

هل حان الوقت لأحكى ماذا كتبت لأبوللو، الحقيقة أنه لم يكن أمامى وقت طويل لأكتب للمرة الثانية، كنت قد كتبت إليه من قبل منذ عدة شهور وكانت معنا كريستينا، كتبت الرسالة معي، كتبت بأحرف يونانية لم أفقهها وكتبت أنا بالعربية، كتبت كل ماأمليته عليها بالعربية نقلا عن رسالتي فالتزمت بكل ماقلت وأكدت لي خالتي ذلك، لكنني اكتشفت بعد برهة من الزمن أن ذلك لم يتم وأن كريستينا، أرفقت طلبا بطلبي وهكذا تيقنت من أن أبوللو لن ينظر للرسالة، وتشاكلت مع كريستينا، وحين ضحكت في وجهى نسيت الأمر وقررت أن أكتب إليه يوما ما لوحدي، والآن علي أن أكتب إليه الرسالة بالحروف العربية فقط، لم أكن متأكدا من أنه سيحل رموزها، لكننى استسلمت لفكرة أنه إله وأنه يعرف جميع الحروف، كنت أدرك بأن خالتى أم هاشم سترحل سريعا، ولن يوقفها خالى مسعد أو غيره، كنت أرى ذلك فى عينيها، فى عصبية كفيها البيضاوين، وفى حركات شفتيها القرمزيتين السريعة، كتبت ورقة من عدة سطور قصيرة ووضعتها فى ظرف صغير وكتبت عليه من الخارج **إلى أبوللو** ثم بدأت في كتابة رسالتي إليه

" أنى أعرفك من زمان .. بس انت ماتعرفنيش .. أنى من مصر.. بلد الفراعنة.. أنى مش طالب منك كتير.. كل اللى عاوزه بس جناحين.. شفت حاجه صغيره قوى .. عايز أطير.. ولو مش قادر تدينى جناحين.. خللينى أطير معاك مرة.. كمان أنى عارف انك بتتعبد هناك فى بلاد الجريك.. ولا بطلوا يعبدوك.. لأنى فاهم انك اله قديم قوى.. وعلى فكرة أنى عارف أبوك زيوس.. وعارف انه بيشرب منقوع صرم ومابيبطلش جرى ورا النسوان.. لو مش قادر يعنى..يعنى لو مش قادر.. ممكن أركب معاك عربيتك الدهب ونلف لفه كده فى السما.. أرجوك حققلى الأمنيه دى.. أنى صحيح صغير ويمكن تشوفنى

قد عقلة الصباع.. بس برضه أنى بحبك قوى.. أنى عاوز العيال في الشارع وخصوصا الوله سيد الفحام واخته يصدقوا إني عارفك ويشوفوني معاك.. ولو ماشافونيش مش مهم..

ملحوظة: انا ياما استنيتك فى شارع كسرى بالذات وقت الظهر.. اشمعنى كسرى.. علشان بيتهيألى إنه صاحبك.. تعرفه من زمان ستى قالتلى كده.. ولو مش صاحبك.. اهو تتعرف عليه عندنا هنا فى بورسعيد..

والسلام ختام"

دسسته فى يدها اثناء خروجها، بالتحديد أثناء نزولها على السلم، فقد ركضت خلفها، أعطيتها الخطاب في لهفة، تناولته منى وقبلتنى، وقالت لى كلمة واحدة:

- هاأوصلهوله ماتقلقش..

قبلتنى مرة أخرى، تحسست موضع قبلتها، كانت ساخنة للغاية، هبطت السلم وكانت عيناها مبتسمة، ركضت سريعا إلى أعلى وحشرت نفسى بينهم فى الشرفة، كنت أصعد بصدرى إلى حافة الشرفة وكانت هي تخرج من باب العمارة، كانت تتطلع إلينا، كانت عيناها ممتلئتين بالدموع، وكنا نحن أيضا، وكانت جدتى قد ضمتنى إليها ونحن واقفون، وكانت خالتى أم هاشم تختفى فى تلك اللحظة فى ضباب الشارع التالى، بينما أخذنا للتطلع في وجوه بعضنا البعض في الشرفة دون أن ينطق أحد منا بكلمة ما، وكانت جدتى عيناها منتفختان، فمددت يدى أمسح لها وجهها فابتسمت لى.

(٣٩)

تراكمات المياه الخضراء الآسنة بفعل أمواج البحر وسقوط الأمطار هى ماتبقى فى نهاية الأمر فى الشوارع، كانت تذكرنى بشكل أو بآخر بالجنة، لاأدرى لماذا؟ قالت لى جدتى بأن الجنة كلها خضراء، كنت أتطلع للمياه الخضراء الثقيلة، التى تكاثفت بفعل الطحالب، ثم أبدأ فى الركض فيها خاصة وأنا منتعل حذائى، كانت المياه دافئة على نحو ما، لاأدرى طبيعة هذا الإحساس العجيب الذى كان ينتابنى، كنت أتطلع لتلك البرك كأنها مروج لاتنتهى، كأننا لسنا على الأرض، وكأننى لست من أهل الأرض، كأننى أنتمى لأبوللو.

أتذكر الآن أن بعض النباتات البرية كانت تنمو فى رمال الشارع، وتتفتح أزهارها، وكذلك كان الحال على شاطئ البحيرة، وكان هناك سياج ما ممتلئ بنباتات عباد الشمس، وكنت قد علمت من يانى أن زهرة عباد الشمس تعبد أبوللو ولذلك كانت تتجه إلى الشمس دائما، لأنه إله الشمس.

كنت أدقق النظر فى الطحالب محاولا تلمسها بكفى، لكنها كانت تنزلق سريعا من كفى الصغيرة حين كنت أحاول الإمساك بها، حتى قبض على جدى وأنا أفعل ذلك، فطال زعيقه فى الشارع، وخرج الناس من كل النوافذ والشرفات يتطلعون إلينا، كنت أقف أمامه ويدى مخضبتان بلون الطحالب، غير مدرك للسبب الحقيقى لزعيقه، ويسحبنى من يدى إلى الأعلى حيث تقوم ستى بغسلى من كل ماعلق بى وبحذائى وهى تتمتم تمتماتها الغاضبة، رغم ابتسامتها فى وجهى.

ما الذى كنت أراه فى تلك الطحالب وتلك البرك الخضراء، كأنها قطعة من كوكب آخر أو مجرة أخرى أو عالم ليس له وجود فى الواقع، ربما أهداها إله الشمس إلى مدينتنا، لكنها كانت سرعان ماتجف تاركة خلفها ألوانا ذهبية وزرقاء وخضراء لاتستقر كثيرا حتى تبدأ فى الاختفاء هى الأخرى.

(٤٠)

لا أدرى السبب وراء تلك الأسئلة التى برزت على سطح وجهى، أدرك على نحو ما تفسير تلك الأسئلة، كأن أسئلتى فاجأته فتركت حيرة ما فى عينيه، كان يحاول تفسير الأمر لى بهدوء، فبدأ فى فتح فمه فى تمهل وبصوت ثقيل بطئ، قال:

- أنا قلت لك كده.. أنا قلت إن ستك هى اللى سألت عليك.. ليه مش أمك؟ مش كده.. ماأعرفش.. أمك كمان سألت عليك.. (ثم فجأة ضاحكا) بطل شغل التلقيط ده عليه.. انشاء الله هانقابلهم كلهم..

وربت على رأسى، بينما كنت أتطلع إليه فى حيرة أيضا، كان السؤال فى عيانى مرة أخرى (أين ذهب الجميع؟)

تردد قليلا ثم قال:

- كلهم هاجروا.. يمكن راحوا المطرية.. مش هايبعدوا بعيد أبوك مش معاهم.. انت عارف إنه فى السجن فى مصر..يمكن راحوا المنصورة.. ويمكن راحوا الشرقية.. مش هايقدروا يروحوا بعيد.. هانجيبهم.. مش عاوزك تقلق.. وكمان يعنى علشان تصدقنى.. إنت عارف إنى مابخرجش من بورسعيد.. خصوصا رجلى بنت الكلب اللى فى شارع كسرى.. تعرف ليه مادفنتهاش.. لإنها انحشرت فى الدانة وخدتها جوه الأرض.. ونسيتها بعد كده.. الغريبة إن الدانة انفجرت بعد ماشالوني من على الأرض وبعدنا.. أنا لأول مرة .. أهو لأول مرة هاأخرج معاك لحد مانلاقيهم.. ماتقلقش ياوله.. ياوله إحنا دورنا عليك تلت أيام.. عارف يعنى إيه.. ناس قالوا إنهم شافوك راكب عربية وطلعت بره بورسعيد.. وناس قالوا إنك ركبت القطر.. سمعنا كلام كتير.. عموما ياسيدى كلها يومين ونروح لهم.. هاأوصلك لحد عندهم ماتقلقش..

توقف عن الربت على رأسى فاستكنت لحظات، ثم هب واقفا وقال:

- يللا بينا هانروح لأم سناء.. أهو على الأقل نقعد عندها اليومين دول لحد مانشوف لينا صرفة..

وضع فردة الحذاء الوحيدة فى قدمه وتناول عكازه فنهضت معه وخرجنا سويا إلى ظلام الشوارع الخرمس* والصمت.

(٤١)

دقات خطواتنا الآدمية الثلاثية، والرباعية خشبية الصوت، أكاد لأتبين صوت خطواتى، تنفرك تحتنا حبيبات الملح والرمال، فى الوقت الذى كنت أنصت فيه إلى صوت دقات قلبى، كيف لم أكن أسمع صوت دقات قلب جدتى، وحين سألتها عن ذلك ابتسمت وجذبتنى إلى حضنها مرة أخرى.

يسألنى فجأة عمى خضير:

*الخرمس : المظلمة الساكنة والتي لايسير فيها أحد، لفظ شائع في بورسعيد.

- أمك ماسابتش لك فلوس..

هززت رأسى

- يبقى أمك سابتهم لك قبل ماتسافر هى واخواتك وستك.. يللا بينا الأول نروح نجيبهم وبعدين نروح لأم سناء بعد كده..

أدركت أن به خللا ما هو الآخر، فلم نكن نتحرك بشكل منطقى، كانت الفكرة تأتى لرأسه فى أى وقت فينفذها، تاركا الفكرة الأولى التى كان يعمل من أجلها، كان ذلك غريبا بشكل ما، لكننا كنا تعودنا على أفعاله، فلم أجد فى ذلك جنونا، وإنما غرابة بشكل ما لاأستطيع تحديدها، كيف بدأت معه، وانفلتنا عائدين مرة أخرى.

تناول منى الجنيهات الثلاثة التي أخرجتها من الدولاب، وأثناء نزولنا لمحنا هذا الضوء المتسرب من تحت باب شقة (يانى)، خبط الباب انتظرنا طويلا حتى فتح الباب وظهرت زوجة يانى و(هدى) خلفها، صرخت فى وجهنا من الفرحة، لاأدرى إن كانت عانقت عمى خضير أم لا، لكن من المؤكد أنها حضنتنى فى عنف وقبلتنى، كان لقاء ماأحوجنا إليه فى تلك اللحظة، وبدأت تسألنى أسئلة متوالية حول الجرح فى رأسى وذقنى، وأنهى عمى خضير الموقف بأنه سيحكى (لها كل حاجة)، وقال بأنني لاأستطيع الكلام، تطلعت في وجهى وكانت ملامحى ساكنة تماما في تلك اللحظة.

كأننى كنت أتطلع إلى شقة يانى للمرة الأولى، كانت تمتلئ بالورود والنباتات، التى عرفتها فيما بعد لكنى ميزت الياسمين وأعواد الفل والجرونيا واللانطانا والبلمباو، كان له مزاجا غريبا فى اقتناء الورود، كنت أرى ذلك حتى لدى الجريج الذين كانوا يسكنون بورفؤاد، ما السبب وراء تعلقهم بالنباتات إلى هذه الدرجة؟! وكيف لم تنتقل إلينا هذه الحاسة؟! هل كان ذلك غريبا أيضا؟

أقبل (يانى) من الداخل، جلسنا حول الطبلية الخشب، وكان ذلك غريبا أيضا، كأنني كنت أستعيد رؤية كل شئ من جديد، وضعت المرأة الطعام وزجاجة كبيرة من منقوع الصرم، الذى قال عنها يانى

- إزازة من سنة (١٩٣٨)، فيفيا.. خاجة كدة خلوة قوى ياخضير.. فيفيا..

انشغلنا فى الحديث والأكل ثم صار الحديث ضاحكا بينهم، وتركانا أنا وهدى، انسحبت معها إلى غرفتها الداخلية، لم أكن قادرا على أن أحكى أى شئ، وكنت أحاول أن أنقل لها ماحدث من خلال حركاتى، ولاأدرى حتى الآن إن كانت قد فهمت ماجرى أم لا.

اعتقدت أن عمى خضير نسى أم (سناء)، ولم أكن أدرى شيئا عن قدرته الهائلة على التحكم فى نفسه، كانوا جالسين يثرثرون فى كل شئ، عن عبد الناصر وعن ماحدث، لم يكن يعنينى فى الأمر كله أى شئ، فعلى الرغم من كل الحب الذى كان يكنه أبى لعبد الناصر لكننى كنت أعتقد أنه غرر به وبنا على نحو ما، أليس هو السبب فى خروجنا من مدينتنا الآن؟ أليس هو السبب فى دخول أبى السجن، أليس هو السبب فى ذهاب زوج خالتى حامد الفاروقى إلى الحرب من اليمن إلى سيناء، أليس هو السبب فى جرح رأسى، أليس هو السبب فى أننى فقدت النطق؟ كنت ناقما عليه، لكننى لم أبح لأحد بأفكارى، وكنت مترددا أحيانا بين النقمة وبين حبي له، وكنت غارقا فى أفكار أخرى حول أمى وستى وخالاتى وأخوتى، كنت أفكر أيضا فى خالتى (أم هاشم) وأتسائل عما تفعله الآن، وهل استطاعت أن تقابل أبوللو أم لا، ربما لم تستطع مقابلته، ندمت على أننى لم أذكر اسمى فى الخطاب، كأنه خطاب إلى المجهول، هل سيعرف من أنا؟، هل ستقول له إن هذا الخطاب من ابن أختى سعاد؟، هل سيتعرف على فى تلك المدينة التى ليس بها أحد إلا نحن الآن؟، وأين يبحث عنى، هل أقف فى شارع كسرى فى الظهر، وقفت كثيرا لكنه لم يأت، وهكذا كنت أفكر فى البدائل المتاحة، لو كان بإمكانى النطق لقلت ليانى، لقد حاولت على الأقل أن أشرح ذلك لهدى لكننى لم أستطع.

(٤١)

سكر يانى بعد أن غرد ورقص هو وعمى خضير، جلسنا نتفرج هدى وأنا أثناء رقصهما، كان مشهدا غريبا لعمى خضير وهو يحاول أن يرقص تلك الرقصة اليونانية ويحاول أن يدب بقدمه على الأرض، فكان يقفز لأعلى ويهبط مرة واحدة متأبطا ذراع يانى الذى كان منتشيا تماما، كاد يسقط أكثر من مرة، لكن ذلك لم يحدث، كيف كنت غارقا فى الضحك مع هدى وزوجة يانى، كنت أضحك بلا صوت، وأرتج مما يحدث، كان المشهد غريبا فى هذا الوقت ونحن فى هذه الحالة وكل شئ ضائع، كيف يرقصون ويضحكون بهذه الطريقة، لم أكن أدرك طبيعة البشر فعلا، إنهم يرتكبون أكثر الأفعال جنونية فى اللحظات التى كان يجب عليهم الانكفاء، هكذا هم البشر، مختلفون عن الآلهة، مختلفون تماما سريعوا النسيان وسريعوا الانغماس في الحياة حين نظن أن الموت نسينا

ولو للحظات، وفجأة سقط يانى مغشيا عليه، لاأدرى أيضا كيف سحبه عمى خضير وزوجة يانى إلى السرير ووضعاه فوقه، وانسحبا إلى خارج الغرفة التي كنا نجلس بها حيث كنت راقدا على الكنبة فى الصالة وبجواري هدى، كانا مازالا يضحكان، تناول عمى خضير زجاجة المنقوع، وذهبا إلى غرفة داخلية أخرى بعد أن تطلعا لبعضهما بنظرات لم أستطع تفسيرها فى ذلك الحين، طلبت من هدى تشغيل ذلك الجهاز الذى كان يعرض صور التماثيل اليونانية ومنها صورة تمثال لأبوللو، اشعلت الجهاز وجلسنا سويا فى أحد الأركان نشاهد تلك الصور المتتابعة على الحائط أمامنا، كانت تسألنى وأحاول الإشارة إليها بما أعرفه كانت تصغرنى بعامين تقريبا وكانت عيناها واسعتين جميلتين، كانتا تشبهان عينى أبوللو على نحو ما، ربما بسبب أبوها اليونانى، لكن فى تلك العينين كان هناك شيئ غامض هذا الغموض الدفين الغارق في الصفاء فلا أدري له أولا من آخر، كأننى رأيتهما من قبل، كنت جالسا أتحقق منها، حين حانت منى التفاتة إلى أحد الأركان فوجدت تلك اللوحات التى أذكر جيدا أن يانى كان يضعها على حامل فى مدخل العمارة لتبين عدد الطائرات الإسرائيلية التى سقطت أثناء الحرب، كان الأمر كله خدعة، خدعة لعينة، لو سقطت كل تلك الطائرات فعلا فمالذى كان سيدعونا إلى الخروج، من الذى كذب واستمر فى الكذب، حتى صدقنا كل شئ، هل كان يمكننى الإجابة فى تلك اللحظة، بعد أن ألقيت باللوحة التى أمسكتها على الأرض وعدت لمشاهدة الصور على الحائط، كنت جالسا وفجأة أعتقدت أننى نمت أنا وهدى، استيقظت على عمى خضير وهو يلكزنى فى صدرى لأنهض فى تثاقل، وخلفه أم هدى تقول له:

- سيب الوله للصبح وتعالى خده .. الوله نايم حرام تصحيه دلوقت..
- لازم يقوم لسه ورانا مشوار طويل..

خرجنا سويا وكانت هدى قد نامت على الكنبة، وكنت مستغربا من قدرته على الصمود ومن قدرتى على ملاحقته، لم يكن لى غيره فى تلك اللحظة، وقبل أن يخرج، دخل الغرفة وأحضر زجاجة منقوع الصرم، ولفها فى جريدة قديمة بعد أن أغلقها، وقال لأم هدى:

- سلمي لى على يانى لما يصحى..

خرجت معه، فجأة قال لى:

- تعرف..

تطلعت إليه متسائلا

- هدى دى بنتى مش بنت يانى..

واستكمل..

- انت عارف أنا بأقولك ليه؟.. علشان مش هاتقدر تقول لحد.. كأن سرى فى بير..

كنت أتطلع إليه فى ذهول، لكن ماذا كان يعنينى فى الأمر فى تلك اللحظة، لم يكن يعنينى إذا كانت هدى ابنته أو ابنة الشيطان، كان كل مايعنينى أن نخرج للبحث عن أمى وستى وإخوتى وخالاتى، أو على الأقل أن يأتى أبوللو فيمنحنى تلك الأجنحة، أم تراه كان يكذب على مثلما فعل بنا عبد الناصر، ومثلما فعل عمي خضير الآن، هل الجميع كاذبون إلى هذه الدرجة حتى الآلهة؟ كيف يقول عمى خضير ذلك، كيف؟، أخذنا نسير فى الطرقات وأنا غارق فى تلك الأفكار كان هو يتكلم فى تثاقل ولم أدرك تقريبا شيئا كثيرا مماقاله، إذا كان عمى خضير هو أبو هدى الحقيقى فما الذى يفعله يانى مع تلك المرأة، هل تعمد عمى خضير أن يأتى بنا إلى بيت يانى أولا قبل أن نذهب لأم (سناء)، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يقل ذلك مباشرة، ثم إذا كان هو الأب فما هى علاقة يانى بأم هدى، زوجها؟ ولماذا لم تتزوج عمى خضير؟، وإذا كان هو زوج أم هدى فمالذى يفعله يانى فى بيت أم هدى؟، وإذا كان الأمر ليس كذلك فماهى حقيقة علاقة عمى خضير بأم هدى؟ وهل يانى يعلم؟ ، أم ربما لايعلم!، خطايانا كلها تتركز هنا فى هذه المسألة على وجه التحديد أن نعلم ونتعامل بأننا لانعلم، كانت هناك كثير من الأسئلة التى تتلاحق، مرة يخيل لى أننى غير معنى بكل ذلك، ومع ذلك أجد عقلى يحوم حول الإجابات على تلك الأسئلة، أو الباقي من عقلى على الأحرى، إذ كنت أعتقد أن جزءا من عقلى قد ذهب مع مس الجان لى حين ميلادى كما أخبرتنى ستى، وفي خضم كل ذلك كان على أن ألهث خلفه على الرغم من ساقه الوحيدة كان يسير بسرعة فى الظلام ويبدو أنه يعلم جيدا أين يسير، كان يشير إلى أحيانا بأماكن الحفر أو الأماكن الزلقة أو المكتظة بأسلاك الكهرباء المكشوفة أو بعض البرك الآسنة التي تجمعت بشكل غريب رغم الصيف القائظ، أو الحجارة، السؤال الأخير الذى لم أستطع الإجابة عليه هو لماذا اختار عمى خضير هذا الوقت بالذات ليعترف فيه بأنه الأب الحقيقى لهدى؟ لم أستطع أيضا أن أسأله، هل لمنقوع الصرم والرقص علاقة بهذا الاعتراف، كانت تلك الفكرة تراودني وأنا أنطلق خلفة، وكنت أتسائل هل يعلم الجميع بتلك المسألة؟ ولماذا هم صامتون؟.

مضيت خلفه وكانت الأرض كلها صامتة كالعادة.

(٤٢)

كأن عمى خضير يقرأ مايدور داخل بقايا عقلى، فيندفع فجأة فى حوار طويل كأنه يدور امامى الآن:

- إيه هو الحقيقى فى رأيك.. إحنا وإحنا ماشيين بالليل.. ولاتفتكر الطيارات الاسرائيلية اللى كانت بتقع وبنهلل لها فى الشوارع.. ولا خطب عبد الناصر.. ولا جيشنا اللى اتمرع فى سينا.. ولا تفتكر أبوك المرمى فى السجن.. ولا ستك واخواتك..ولا حامد الفاروقى اللى سافر ومراته حامل فى شهرين.. هايشوف بنته ولا ابنه ولا لأ.. راح فين.. ولا هدى بنتى أنا.. اللى مأقدرش أقول إنها بنتى.. طبعا مانتش فاهم حاجة من اللى أنا بأقوله.. ولاعمرك هاتفهم.. ولا حد هايفهم..تعرف ياوله..(وسكت لحظة).. حتى أبوللو بتاعك مش هايفهم.. طاعون فيك وطاعون فيه..

كان منقوع الصرم قد نال منه أخيرا، كان السكر قد طوح برأسه تماما، إذ توقف فجأة وتفحصنى مليا:

- شكلك مش فاهم حاجه.. يللا امش ياوله ماتقفش..

هناك من خلف مناطق المساكن الشعبية اتجهنا نحو القابوطى، سرنا بجوار الملاحات، ولم يكن هناك أى ضوء لكننا كنا نعرف طريقنا جيدا، وبين مبانى القابوطى المكونة أغلبها من طابقين توقفنا.

رفع رأسه إلى السماء قليلا يحركها يسارا ويمينا، كانت هناك بعض النجوم، كان يبدو كأنه يتشمم شيئا ما، أو يتحسس الطريق نحو منزل أم سناء، كان كل شئ غامضا، وكنت قد توقفت عن الأسئلة مع إحساسي بالتعب في أقدامي، ولم أكن أعلم إن كان عمي خضير يعلم بهذا الألم أيضا في قدمي أم لا، كانت بي رغبة شديدة في النوم، لكنه كان غائبا تماما في أفكاره الصامته، يحدث نفسه ولاأفهم ماذا يقول.

(٤٣)

قال لى جدى انه لو أراد الغنى لاغتنى منذ زمن طويل، كان عاقدا يديه وقد ظهرت عضلاتهما والتصق شعرصدره بجلده بفعل المياه المالحة، حيث وقف على حافة الفلوكة بعد أن ألقى شبكته فى الماء .

كان يمكنه الزواج من أم السعد بأى طريقة، خاصة وأنها تطارده فى كل مكان ولاتستطيع الافتراق عنه، كان يعلم ذلك جيدا، وكان يعلم أن ستى تعلم ذلك أيضا، كان سيحصل على محلاتها وفاكهتها وخضارها لو تزوجها ، يتوجه إلى قلب الفلوكة ويلف سيجارته بعد أن جلس وأسند ظهره إلى الخشب بقلب الفلوكة، وبعد أن انتهى من لفها ووضعها بين شفتيه وأشعلها، تناول شبكة أخرى من بطنها وعقد إحدى ثقوبها على إصبع قدمه الأكبر وأخرج مغرزة وأخذ فى تضييق بعض الثقوب التى اتسعت بفعل الأسماك التى أمسكت بها من قبل أو بعض الأشياء التى علقت بها، أو غلق تلك الفتحات التى تقطعت أو قفل بعضها بعقد جديدة حمراء اللون حتى لاتهرب منها الأسماك إذا علقت بها، وكنت أنا أتابع جنياتى الصغيرات على سطح الماء الذى هدأ تماما، كنت أراهن من فوق سطح الماء وهن يتحركن فى الأسفل وكنت أقول لجدى ذلك فكان يضحك ويقول

- آه يابن الكلب ياملقط..

ثم يترك كل مافي يده وينهض واقفا ويحملنى بيد واحده من على أرض الفلوكة ويلقى بى فى الماء.. حيث كنت أغوص إلى جنياتى لكنه لم يكن يتركنى أهنأ، إذ أجده خلفى فاتحا لى عينيه فى الماء ، فنغوص معا فى الأماكن القريبة من الشاطئ وغير العميقة، نظل في ذلك لساعات طويلة، كنت قد تعودت على ذلك، ولم أكن أستريح إلا حين أفعل ذلك معه، كان كثيرا مايضحك ضحكته العالية حين نستطيع الفوز بسمكة كبيرة أو بعض المحار والبكلويز الكبير.

وحين نعود إلى القارب يستمر فى حكاياته عن أم السعد، وعن عدم رغبته فى الثراء، وهى رغبة أصيلة فى أسرتنا كما قال، يعود عهدها إلى الجد الأول والجد الثانى الذى رفض عرض الجنى، ولم يطلب منه مالا، كان يردد دائما، لدينا مايكفينا وأي زيادة عن مايكفينا ستخصم من حق إنسان آخر، كنت أتعجب من طريقته في التفكير، لكني لم أقل لأحد أبدا ماأفكر فيه!.

(٤٤)

- قربنا نوصل..

- مهما وصلنا هانفضل برضه بعيد..

كان التعب قد حل بى وهو مازال فى ألغازه كنت اشعر بذلك، أشرت له بما معناه، هل دنونا، فأجابنى بذلك اللغز الذى تركه لى.

(٤٥)

كان يانى كثير الحديث عن بلاد (الجريس) التى كنا نطلق عليها (الجريك) أو (الجريج) ، يأخذ فى شرب مشروبه وهو جالس على تلك الطاولة فى ركن الصالة مرتديا فانلة داخلية بيضاء، لم أعرف وقتها أن تلك البلاد تسمى بلاد الإغريق، كان نقلا غريبا للحروف، لكن كيف كان يتأتى لى وقتها مع عدم معرفتى التعبير عن ذلك، ولم أدر حقيقة من نشأ أولا الإغريق أو الفراعنة وماهى العلاقة بينهما، وماهى العلاقة بيننا الآن وبين من عاشوا فى تلك العصور، كان ذلك فوق إدراكى وفوق عقلى، تحدث عن هذا المعبد العجيب الذى يقع فى أعلى تلة فى أتينا، وكيف كان يصطحب عشيقاته الصغيرات إلى هناك، وكيف كان ينتظر تلك الطيور الكبيرة فى قلب الليل ولكنها أيضا لم تكن تأتى، فكان يتخيلها بعد أن يكون قد غرق فى مشروبه مع البنت التى معه فلا يعد يفرق بين الحقيقة والخيال، كيف كان يتخيل رحلات أوديسيوس وهو واقف على الشواطئ الصخرية فى اليونان، وقال إنه كثيرا ماكان ينزل الماء ينتظر جنيات البحر، كان يتخيل أنهن يتراقصن حوله ايضا.

هل اختلقت ذلك عن طريق (يانى)، فاستقرت تلك الخيالات داخلي لتأخذ معها عقلي كله، كنا أنا وجدى فى الفلوكة وكان غاطسا تحت سطح الماء فأخبرته بأننى رأيت الجنيات فابتسم فى وجهى، وسألنى فى تحد عن مكانهن الآن، لاأدرى لماذا نظرت بعيدا ناحية قوس قزح الذى كان يقسم السماء وأخبرته بأنهن هناك الآن، لقد ابتعدن بعد صعودك للماء، تطلع هو أيضا لقوس قزح، وضحك ثم صمت فجأة، وقال.

- يمكن يكون عندك حق..

تطلع فى وجهى فى المرة الأخيرة كثيرا بعد ذلك، ولم يقل لأحد ماحدث أبدا.

(٤٦)

كنا نتجه جميعا نحو النادى، حيث سيتم زفاف حامد الفاروقى إلى خالتى حنان فى تلك الليلة، كان الشتاء عاصفا فى ذلك العام، وكانت الأمطار قد استباحت كل الحوائط والسطوح وأسفلت شوارع أوجينه والتلاتيني وكتشنر وتلك الصخور السوداء فى الحميدى وغيره، كان أبى يسير فى الخلف وأمامه خالاتى وأمى وإخوتى وبعض الأقارب والجيران، وكان يانى يسير مع زوجته، وكان عمى خضير فى المقدمه بعكازه الغريب، يضحك مع خالاتى، وخلفه جدى وجدتى اللذان أخذا فى حديث هامس، وكنت أسير بجانب أبى الذى لاحظ ارتعادى من البرد ففتح أزرار معطفه وأدخلنى إلى جانبه، فدخلت إلى هناك وفجأة لاحقتنى جنياتى الصغيرات فى ظلام المعطف، كن فوق رأسى تماما فانطلقت منى تلك الضحكة الطفولية، ففتح أبى معطفه فجأة وسألنى فى عنف:

- بتكلم مين ياوله؟

لم أستطع الرد، فتمتم وهو يبتسم.

- آه يابن المجانين.. هاتجيبه منين ماهو كله من ستك وجدك.

وأغلق معطفه مرة أخرى فلم أضحك لجنياتى فى تلك المرة بل أخذت أبتسم وأتحدث معهن فى صمت، حدثتهن عن تلك المرة حين انتظرنى في البلكونة كان واقفا بها يتطلع إلى الشارع من حيث آتي، حين لمحني اختفى في الداخل، ورأيته وأنا صاعد فبدأت أرتعد، كنت أدري بالجريمة التي ارتكبتها عقب خروجي من المدرسة، فتح الباب،

وأمسكني من ذراعي وألقى بحقيبة المدرسة، وأمرنى بخلع ملابسى، ثم قام بلحس صدرى بلسانه، كان قد أدرك أننى هربت إلى البحر، سألنى.

- رحت البحر..

هززت رأسى فى استسلام فيما كانت ستى قد أقبلت ووقفت خلفى فى انتظار ماسيفعله، وكان لابد أن ينتهى الأمر بتلك العلقة الساخنة والحرمان من الخروج، لكنه فى هذه المرة لم يفعل شيئا من ذلك، سحبنى من يدى ودخل بى إلى الحمام وفتح الدش وأوقفنى تحته، وكان يتحدث عن خطورة الذهاب إلى البحر وحيدا خاصة عند غروب الشمسن لاأدري لماذا فكرت في أبوللو، أيكون هو الذي أوقف أبي، كنت أبتسم وأنا أشهق أيضا تحت الماء البارد، حين قال أبي:

- أحسن تغرق

- أنا مش ممكن أغرق..

- ليه سمكه ياوله..

- لأ بس انت عارف إنى اتولدت فى الميه

- انت مين اللى قالك الحكاية دى..

- ستى

- والله الولية دى خربت دماغك..

ثم ابتسم أخيرا وطبطب على رأسى بعد أن انتهى من إزالة رغاوى الصابون من على جسدى وقال:

- هتخرج معايا دلوقت.. رايحين القهوة هاطلبلك سحلب تشرب ومش عاوزك تفتح بقك خالص فاهم.. تقعد جنبى مؤدب..

كنت سعيدا للغاية فهى المرة الأولى التى يصطحبنى معه إلى المقهى، كان يعتقد بأننى كبرت وأننى يجب أن أخرج معه أحيانا.

كانت تلك المرة الأولى التى أرى فيها أصدقاءه وبعض أطفالهم فى مثل سنى، كانوا جميعا جالسين يتكلمون عن خطاب عبد الناصر الأخير وعن انتخابات النقابة وعما سيفعلونه.

أشار أبى إلى الانتهازيين الذين تحدث عنهم عبد الناصر وأنهم لايجب أن يعطوا أصواتهم إلا لمن يستحقه، وفوجئت بأن أبى مرشح لانتخابات العمال فى مصنع الغزل والنسيج،

كان يتحدث عن عبد الناصر وعيناه تلمعان، قال بأنه الوحيد الذى حقق أحلام العمال فى هذا البلد، وتحدث أيضا عن الاتحاد الاشتراكى ودوره المنتظر فى تطوير البلد وتطوير ثقافة الناس، الشعب، وبأنهم يجب أن يفتحوا أعينهم لأعداء الشعب، لاأدرى لماذا تركت الأطفال وانغمست فى متابعة هذا الحوار، وفجأة تاه كل الكلام منى حين رأيت جنياتى، كن هناك بعيدا فى السماء، وفجأة خيل لى أننى لمحت أبوللو معهن فى السماء فنهضت إلى هناك، انسللت من جانب أبى ولم يلاحظ هو ذلك، وقفت فى التلاتيني، فى قلب الشارع، بعيدا عنهم، وكادت سيارة مارقة تدهسنى، حين صرخ الناس على المقهى، نهض أبى فزعا، وركض نحوى وحملنى من على الأرض فجأة، وأخذ يتحسسنى وكنت أبتسم بشكل ما، وأجلسنى بجانبه وهو يزعق فى وجهى حين هدأه أصدقاؤه وقالوا شقاوة عيال، تطلع فى وجهى كأنه يؤنبنى على قيامى، لكننى بكيت فجأه، ولم يدر سبب بكائى الحقيقى، قال بعضهم إنه خوفى، بينما كنت أنا أعلم بأن سبب بكائى هو اختفاء أبوللو وجنياتى.

عدت مع أبى تلك الليلة وقد غمرت السعادة قلبى برؤية أبوللو حتى ولو للحظات، استقبلتنى ستى بجانبها على السرير، وسألتنى عماحدث فأخبرتها بكل شئ، سألتها فجأة:

- بتحبى عبد الناصر ياستى..
- أيوه بحبه
- ليه ياستى..
- مش عارفه ياوله.. بس لولا هو ماكناش سكنا فى البيت ده..

فكرت للحظات.

- سمعتى صوته وهو بيخطب فى الراديو
- أيوه ياسيدى سمعته
- تفتكرى الصوت بيتنقل فى الراديو إزاى

ابتسمت وقالت.

- مش عارفه.. بس أهو كله شغل عفاريت
- يعنى كل حاجه فيها عفاريت..
- أنا عارفه.. (ثم صمتت قليلا وابتسمت وعاودت الكلام)

- آه يامقرم*.. يللا نام..

كانت مازالت تبتسم وهى تشد اللحاف إلى صدرى وقالت:

- يللا نام .. بكره فيه مدرسة..

تطلعت إليها كانت أسئلتى بلا إجابات محددة لديها، وكان كل شئ مرتبط بالجنيات والعفاريت، أيقنت سبب حبى لستى، كانت لاتمتلك إجابات عقيمة لاأفهم منها شيئا، كانت حلولها بسيطة، وكان حضنها دافئا يمتلئ بالملائكة والهدوء.

(٤٧)

كانت المرة الثانية التى أخرج فيها مع أبى قبل دخوله السجن بالقاهرة بزمن قليل، حين ذهبت معه إلى المصنع. ذهبت معه ليلا، كان الجو حارا وكنت أعده بأننى ساظل مستيقظا معه حتى الصباح، رددت ذلك على مسامعه طويلا حتى رضخ فى النهاية، حملت عامود الطعام الذى تعده له أمى أثناء خروجه في الورديات الليلية بالمصنع، وركبت أمامه على عجلته قبل أن تبيعها أمى قبيل الحرب بقليل، كان الجميع يحيونه وهو داخل إلى المصنع، منذ البوابة حتى قاعة الغلايات فى مصنع الغزل والنسيج، كان يصعد على تلك السلالم الحديدية المعلقة على الغلايات من الخارج، ليراقب شيئا ما أو ليقرأ عدادات الغلايات التى كانت عقاربها تدور فى كافة الاتجاهات، ثم يهبط، بعد ذلك يأخذنى فى جولة فى المصنع، قابلت كثيرين، لاأتذكر منهم أحدا الآن سوى بواب المصنع، كان صعيديا ضخما بعض الشئ يرتدى ذلك المعطف الصوفي ذا اللون الكاكي الكالح، وكان يشعل سيجارته جالسا لايفعل أى شئ سوى رفع يده بالتحية للجميع، حتى أنا شخصيا لم أفلت من تحيته، كنت أشعر بأن هناك سحابة من نوع ما تقف فوق رأسه، حتى أبى حدثنى عنه ذات يوم بعد زمن طويل، فى منتصف الليل كان السهر قد أعيانى، كان يأتى لأبى كل فترة كثير من العمال بالمصنع يتحدثون معه، كانت كلها أحاديث حول انتخابات نقابة العمال بالمصنع، وكان أبى شديد الحماس، كان يتحدث كثيرا عن عبد الناصر وعن رغبته فى رؤية العمال يحصلون على حقوقهم، أبسط حقوقهم فى الحياة أن يعملوا جميعا، وأن تختفى البطالة، يذكرنى باليوم الذى ذهب فيه ليسجل اسمه فى دفتر كبير بالمحافظة ضمن

* مقرم: تعنى الذكى أوالحويط، الذى يدرك ماوراء الكلام.

الذين يبحثون عن عمل، لم يستغرق الأمر عدة أيام حصل بعدها على عمل بالمصنع، فكيف لايحب عبد الناصر.

يتذكر تلك الأيام التى كاد يتسول فيها، لولا عبد الناصر ومافعله معه، ليس مهما إن كان رآه أو لم يره، إنه يذكر ملامحه جيدا ويحفظها، ويردد كلماته فى الصباح والمساء، كان سعيدا بنا وبحياته، لاينغص حياته أى شئ، حتى كان هذا اليوم الأسود الذى كانت الحماسة قد أخذته دفاعا عن حقوق بعض العمال بالمصنع، كان يعلم بأن المدير ينتمى لتلك الشخصيات الانتهازية التى تحدث عنها عبد الناصر فى خطبه كثيرا، وحين واجهه بسرقات المصنع، وسرقات الأقمشة وبيعها في السوق السوداء، وبعدم اهتمامه بحصول العمال على حقوقهم، ووقوفه في وجه النقابة، وبأن قرابته لأحد الضباط الأحرار هي السبب وراء تعيينه مديرا للمصنع بينما هو لايفقه شيئا في الحقيقة سوى مصالحه الشخصية، ونعته أخيرا بالانتهازية، وبأنه أحد أعداء الشعب، تطور الأمر سريعا بينه وبين مدير المصنع إلى أن أمسك أبي بتلك المقشة وطارده فى جنبات المصنع، وفى النهاية هاهو يقضى فى السجن عدة شهور، دفاعا عن العمال وحقوقهم ووقوفه فى وجه الانتهازية، وهاأنا أسير فى تلك الليلة وراء عمى خضير خلف مصنع الغزل والنسيج بحثا عن أمل.

(٤٨)

مالذى فعله خالى مسعد بعد أن هربت خالتى أم هاشم إلى اليونان، اختفى هو الآخر بعدها بعدة أيام، إثر العديد من الشكلات مع إخوته البنات ولما لم يجد من يقف بجانبه اختار الرحيل هو الآخر، قالت خالتى حنان إنه لايستطيع مواجهة كلام الناس، ولاأدرى لماذا كان الناس يتكلمون؟ وماعلاقة ذلك بخالتى أم هاشم، إنها فى اليونان الآن تقابل أبوللو وكل الآلهة التى سمعت من يانى عنهم، لاشك أنها قابلت زيوس، ولاشك أنها زارت جبال الأوليمب، ولاشك أنها ركبت مع أبوللو فى عربته كنت متأكدا من ذلك لاأدرى لماذا؟ وصلنا منها خطاب بعد عدة أيام كتبته إلى خالتى حنان، أرسلته من بلاد الجريج، بلاد هؤلاء الآلهة العظام، قالت إنها فى أتينا، أصبحت تعمل الآن وتسكن فى أحد الفنادق القريبة من ساحة الحمام هناك وقريبة فى نفس الوقت من الأكروبوليس، لم أفهم ماهو هذا

الأكروبوليس، كنت أنتظر أن تحكى شيئا عن أبوللو، لكنها لم تذكر شيئا إلا فى نهاية الخطاب حين وضعت ملحوظة صغيرة موجهة لى، بأنها لم تقابل أبوللو بعد، لكنها حين ستقابله سوف تسلمه رسالتى، انتظرت خطابها الثاني طويلا لكنه لم يأت حتى خرجت أنا على حدود بورسعيد فاقدا النطق خلف عمى خضير.

(٤٩)

تزوجت خالتى حنان معنا فى نفس الشقة، وأصبحت غرفة النوم الثالثة لخالتى حنان وحامد الفاروقى، حتى عاد لليمن مرة أخرى، كانت أحيانا تأخذنى معها فى خروجاتها، كانت تسير تكلم نفسها، أو تكلمنى ولم أكن أدرى بماذا أجيب، هاهى حامل فى ابنتها، وكان ذلك قبل النكسة بزمن طويل حين أنجبت ابنتها الأولى، وحينها عاد حامد من اليمن، لم يجلس طويلا، وعاد بعد عدة أيام إلى سيناء، تاركا لها حملا آخر فى بطنها، وذهب أبى إلى السجن بالقاهرة.

حين أنجبت ابنتها الأولى، كنت أتطلع إليها فى لفتها، ورأيت هؤلاء الجنيات حول رأسها، ولم أحدث بذلك أحدا، وكان وجهها يضحك دائما، وكنت أسأل جدتى عن سبب ضحك ابنة الفاروقى، فكانت تقول لى إجابة واحدة، إن الملائكة هم الذين يفعلون بها ذلك، ولم أفهم أبدا كيف يمكن لطفل صغير أن يعقل شيئا عن الملائكة!!

(٥٠)

لم يبق أخيرا سوى لغز وحيد لا أجد له إجابة، أين أمى وجدتى؟ ولم يجبنى عمى خضير، كان يردد فى تلك اللحظة:

– طاعون فى كل حاجة.. طاعون فى مراتى وولادى.. طاعون فى يانى.. طاعون فى مراته .. طاعون فى أبوك.. طاعون فيه.. طاعون فى عفاريتك وجنياتك.. (وتوقف ونظر لى بعينين ناريتين وأكمل ضاحكا) طاعون فيك انت كمان.. وكمان طاعون فيه..

وعلى رأي حميدو "صنعة يلعن ديك دي صنعة".. طاعون فيكم.. طاعون فيكم .طاعون فيكم ..طاعون فيكم ..طاعون فيكم ..طاعون فيكم.

وفجأة سقط أمامى على الأرض غارقا فى نوم عميق.. بعد ثوان تصاعد شخيره الذي أعرفه جيدا، كانت ملامحه هادئة لم أدر ماذا أفعل.. جلست بجانبه على الأرض أتطلع حولى، أسدد نظراتى السريعة المتلاحقة إلى كل الأركان علي أتبين شيئا في الظلام في البداية، أتطلع إلى السماء.. أحاول الصراخ.. لاصوت ولا حس.. كل شئ صامت.. لم أستطع أن أفهم إلى من على وجه التحديد كان يوجه عمى شتائمه ولعناته، لقد وجهها لى ولنفسه وللجميع، ماذا كان يقصد بهذه الشتائم المتلاحقة، ولماذا ثورته المفاجئة التى حيرتنى سنين طوال، فلم أهتد لإجابة محددة، لكنني كنت أعلم أن يفعل ذلك حين يضيق صدره فيوجه شتائمه إلى المجهول، إلى الحوائط، والسحب، والبشر الذين لايعلمون السائرين عن بعد، ولكن منذ متى كانت مدينتنا صامتة؟.. كان على أن أعترف فى تلك اللحظة أن مدينتنا ماتت وشبعت موتا.. وأننا الآن جالسان فوق جثتها.. حتى أنا لاأستطيع أن أبكى ولا أستطيع أن أتكلم ولا أستطيع أن أصرخ، كنت تعبا للغاية، وكان عمى خضير على الأرض قد بدا هادئا تماما يتصاعد شخيره في انتظام كان متسارعا في البداية ثم أبطأ رويدا رويدا حتى أصبح مثل دقات الساعة، كان صوتا مترعا بالحياة في تلك اللحظة بالذات، يكسر حدة السكون والخوف الذي كان يتعاظم في البداية داخلي ثم سرعان ماسكن.

(٥١)

وضعت رأسى على ظهره وأسلمت عينى للسماء، وكانت تلك المرة الأولى التى رأيت فيها أبوللو عن قرب، على الرغم من الليل، لكننى رأيته يسبح فى السماء هناك بعيدا خلف النجوم، وكان قد بدأ يقترب منى هو وجياده، أراه يقترب قافزا عبر النجوم والكواكب، كان سريع الحركة ومع ذلك كنت أستطيع رؤية ملامحه جيدا، فابتسمت ابتسامة كبيرة، أقبل حتى وقفت عربته أمامى، فسحبنى من فوق عمى خضير في هدوء بديع ووضعنى جانبه وخلع تلك العصابة المربوطة حول رأسي، ووجدت نفسي فجأة قادرا على الكلام، قلت له جمله واحدة:

- استنيتك كتير .. الجواب بتاعى وصلك!!

ابتسم فى وجهى ثم احتضننى بيده اليمنى وكانت أصابعه كبيرة للغاية، وهنا أدركت أنني بصحبة إله فامتنعت عن الخوف الذي كان قد تملكني للحظات، وانطلق بى إلى السماء وهناك بعيدا رأيت النجوم الفضية عن قرب، ولاعبت جنياتى الصغيرات الممتلئات بالمرح والألوان، كن يضحكن تلك الضحكات الصغيرة، يطرن بالقرب من رأسي فأتفحصهن مليا، كن جميلات بشكل لايصدق، كن رغم ألوانهن مائيات الجسد فكنت أرى الكون كله من خلال أجسادهن الصغيرة، كأن أجسادهن الصغيرة مرصعة بتلك النجوم البعيدة، أو كأن تلك النجوم كائنات حية تتحول فجأة إلى فراشات لها ذيول طويلة لامعة، كنت أرى عيني أبوللو الكبيريتين، وكفه الضخمة وهو يناولنى قدحا ما ذهبى اللون فتجرعته، ثم صعد بي هناك قرب القمر الغارق في السكون، فضحك لي هو الآخر، ثم أعقب ذلك إلى الشمس فلم أشعر بحرارتها، فخرجنا من دائرتها إلى الأعالي هناك بعيدا لأغرق في هذا النور الذي لاينتهي، ومعي أبوللو وجنياتي الصغيرات، ووجدت نفسى أنام وقد اطمأنت نفسي للمرة الأولى منذ رحيل جدتي، فهبط بى إلى الأرض مرة أخرى، ووضعنى فوق صدر عمى خضير هذه المرة الذى كان قد فرد يديه على اتساعهما، واتخذ من الأرض سريرا عريضا فى تلك البقعة الرملية، فنمت أنا الآخر، وكنت أفكر بأننى لم أطلب منه أجنحه لكننى فى تلك اللحظة كنت قانعا تماما بما تم، فقد تحققت كل أحلامى فى تلك الليلة هناك أمام مدخل القابوطى، ولم يرنى أحد، كنت كطفل أفكر بأنه على الأقل يجب أن ترى جدتى وأمى وأصحابي الذين كنت أتشاكل معهم ماأنا فيه، لكني بشكل ما كنت سعيدا بأننى كنت وحدى معه، وقلت لنفسى فى الصباح سوف أخبر عمى خضير بأننى أريد رؤية أمى، وبأننا يجب أن نذهب إليهم مهما كلف الأمر، كنت قد اكتفيت من أحلامى فى تلك اللحظة.

(٥٢)

فتحت عينى على قرص الشمس فى السماء، كان كبيرا للغاية كأنه سقط من السماء بيننا، كأننا نحن الثلاثة هى وأنا وعمي خضير فقط الكائنات الوحيدة في هذا العالم، وكأن لها عينان كبيرتان تحدثنى من خلالهما، وكأننى أدرك نظراتها، لكنى لم أستطع مواجهتها كثيرا، كانت حامية للغاية، ولم أدرك أننا نائمان فوق جزيرة من الملح إلا في تلك اللحظة،

وكان جافا تماما، وكان عمى خضير راقدا لم يتحرك، فجأة حركتنى السخونة ولفحة هواء شاردة، تقلقل عمى خضير من مكانه وكنت قد اعتدلت جالسا، فتح عينيه هو الآخر ببطئ، تطلع إلى، ثم أغلق عيناه مرة أخرى، حدقت أيضا للسماء، وعدت أحدق لقرص الشمس الذى أخذ في الابتعاد سريعا كما كان قريبا منذ لحظات ، كان يحاول الكلام، سمعت صوته، كأنه يأتى من قعر بئر بعيد:

(قال شيئا لم أسمعه بوضوح)

ثم سكت وعاد يردد نفس الكلمات، فلم أسمع شيئا للمرة الثانية.

تطلعت إليه، وكان يحاول الكلام، كانت شفتاه ترتعشان، ولم أدر السبب وراء ذلك، هل هي حمى أصابته، أم صعوبة مايريد قوله، أم أنه يشعر بالبرد فى هذا القيظ اللعين، وخرجت الحروف أخيرا من بين شفتيه:

- أمك..

سكت للمرة الثانية، وكأنه عاد لالتقاط أنفاسه، كان يحاول أن يقول شيئا ما لى، شئ شعرت في عينيه بأنه أخفاه عني طويلا، شئ لم يعد يستطع إخفاءه أكثر من ذلك، شعرت بأنه تعب للغاية وأنه خائف من أن يموت لذلك قرر أن يقول لى ماأخفاه عنى طويلا ، راح وأغمض عينيه، ثم عاد بنفس الكلمة مرة أخرى:

- أمك..

ثم خفت صوته تماما، وفتح عينيه، وتطلع لي طويلا كأنه لم يرنى من قبل، كنت أظنه يتفحص الدم الجاف على ذقنى والذي حاولت غسله عدة مرات لدى أم هدى فلم أفلح، لكنه ترك آثاره على تلك العصابة حول رأسي، كمن يراني للمرة الأولى، كأن وعيه أصبح ماثلا أمامه بأنني موجود منذ زمن طويل معه، كان يتطلع لي في ذات الوقت كأن روحه تخرج من جسده، وعاد يكمل:

- ماتت .. مش فاهم.. ماتت .. ماتت.. طاعون في الدنيا كلها!

..

..

..

نهاية الجزء الأول

الجزء الثاني

خيــار هرقـل

(الـحميدى)

(٥٣)

هل كان عبد الناصر يعلم بما أنا فيه الآن؟ وهل كان بإمكانه إنقاذي مما وضعني هو فيه؟ هل كان يعلم بكل ماسيحدث لي؟ وهل أستحق منه كل هذا؟ وهل دخول أبي السجن كان هو وراءه؟ هل ذهاب عمي حامد للحرب هو المسئول عنه أيضا؟ وهل خطط لكل ذلك؟ لماذا لم يطلب مساعدة أبوللو وربما أى إله من تلك الآلهة التي تسكن جبل الأوليمب، كلها كان يمكن أن يكون لها دور في حل تلك المعضلات؟ من المؤكد أنه كان سيحل له الكثير من هذه المسائل! هل يعلم أيضا بأنني وعمى خضير نركب هذه العربة النقل القديمة الصدئة منذ ليلتين؟ هل يعلم بأنني لم أر أمى منذ ما يزيد عن الأسبوعين وبأنني غاضب من كل ماحدث لى؟ وأنني غير متأكد حتى الآن من حقيقة ماقاله عمي خضير؟ هل ماتت أم أنه قال ذلك بسبب ضربة الشمس التى جعلتنا لمدة يومين نائمين في منزله قبل أن نقرر الخروج؟ أم أنه قال ذلك بفعل منقوع الصرم الذي كان يتجرعه؟ أم لأنه قد يكون.. ربما.. ربما زهق مني؟ حتى لو كان قد زهق مني فإنني لايمكن أن أتركه الآن، إلى أين أذهب؟ رغم كل ذلك فإننى لا أعرف جيدا ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم أجد عمى خضير!!

كنت أشعر بالاختناق وأنا جالس فوق عربة النقل الكبيرة وحيدين أنا وهـو، نمـر بـالقرى المكتظة بأطفال بؤساء، والطرق الطينية الوعرة، وتلك الأسفلتية الممتلئة بالمطبات والحفـر، كما أن الشمس طول النهار لاتغيب فنضطر للاختباء منها في جميع أنحـاء سـطح العربـة، فنتنقل من مكان لآخر نتحاشى الشمس، أشعر أحيانا أنها لاتود أن تغيب، والهـواء الـساخن السريع الحركة الذي يجفف عقولنا وأعيننا، والرطوبة الخانقة في أحيان أخرى التـي تكـبس على صدورنا، والحرارة التي تحرق وجوهنا وظهورنا وأقفيتنا على مهل، والكلاب النابحـة، وأشجار الكافور ذات الرائحة الزكية التي نتوقف تحتها أحيانا، والتي تخفف عنى مـا أراه أو أسمعه أو أحس به أحيانا، لم نكن أقل منهم، من الأشياء والحيوانات والبشر ورموز الطبيعة الخالدة، السماء خالية من السحب تماما فأشعر بها كصحراء لانهائية، لقد مددنا أيدينا لكل من كان بالطريق، حصلنا على بعض الكلمات المشجعة وبعـض البـيض والخبـز المرحـرح والشمسي والفاش والمنين والقرص والجبنة القريش والجبن القديم وحبـات طمـاطم وخيـار وكوسة وبلح وجرجير وفجل وسريس وملانة وشرش فى كيس بلاستيكي وويكة فـى طبـق وفخذة فرخة مسلوقة وملوحة وساندوتش باذنجان، وأرغفة ممتلئة بالفول والطعميـة وبعـض الشاى الناشف وبعض السكر فى النهاية وأخيرا قطعة بطيخ، ولم يخل الأمر من بعض نظرات الشفقة والدعوات لنا، وكان عمى خضير يضع كل ذلك فى جراب من الخيش أحضره معـه،

لاأدرى إن كنت أعرف هذه الأسماء وقتها، لأنني رفضت طويلا أن أعرفها ليس لسبب محدد، لكنني كنت أعتقد بأنني أنتمي لعالم الأسماك والآلهة المحلقة حول الشمس وليس عالم الأرض وتلك النباتات الغريبة، كنت معلقا من عرقوبي ببورسعيد التى أصبحت خلفى الآن بعشرات الأميال، حتى حين ذهبت لجدى الثاني في القرية لم أود أن أحفظ تلك الأسماء لكن هاأنا قد تذكرتها بالرغم من رفضى التام لها، لكنها كانت تتكرر بشكل دائم أمامي.

(٥٤)

هذه المرة الثالثة لى خارج بورسعيد، بعد ولادتي الغريبة فى الماء فى عام (١٩٥٦)، وزيارتي لجدي في أعماق الريف، هاهي المرة الثالثة التى أخرج فيها، هل كنت أرفض خروجي حين وقعت واصطدمت رأسى بالأرض ورحت فى تلك الإغماءة فأذهب للمستشفى لترحل أمى أو تموت ومعها جدتي وأخوتي، ولأجد نفسى وحدي غريبا فى مدينتي التى أفرغت فجأة من كل علامات الحياة التى أعرفها ولتحل مكانها حياة كاكية اللون لامعنى لها بل أكاد لا أشعر بوجودها، أمضيت عدة أيام باحثا عن عمى خضير حتى وجدته، وبعد عدة مشاوير فى المدينة قرر الرحيل فجأة بعد أن اكتشف أن أمل أم سناء قد غادرت هى أيضا، اتخذ قراره بالمغادرة في لحظات، قرر فجأة بعد (١١) عاما مغادرة المدينة هو أيضا، وتناسى تماما موضوع قدمه المدفونة مع دانة مدفع التي انفجرت وهو يحرك رأسه إلى الخلف يشاهدها فى قلب الشارع هناك فى المسافة الواقعة بين بورصة السعيدية وسينما مصر، وبعد أن وقع صارخا في الشارع حمله الناس وركضوا بعيدا لتنفجر الدانة بعد ذلك تاركة حفرة كبيرة ولتختفي قدمه معها، يقول لي أحيانا وهو يضحك أن الناس كانوا يركضون به وكانت رأسه تتطلع للخلف يشاهد قدمه للمرة الأخيرة قبل أن تتلاشى مع انفجار الدانة، كان يردد دائما بأن دماؤه تفرش شارع كسرى كله كيف نسى ذلك فجأة لا أدرى، كان قد أدمن الخروج من بورسعيد والذهاب لشاطئ بحيرة المنزلة أو ليجلس هناك بين التلال الرملية خلف مطار الجميل، تلك التلال الكابية اللون، كان ينتظر قدوم الشتاء لتكون كل صباحاته هناك لاحتساء منقوع الصرم وصيد العصافير والسمان، أما ليالي الصيف فكانت للعشيقات في المساء، والغريب أنه كان يستطيع العوم ويغوص بهن في أعماق المتوسط، كان يصطحب عشيقاته أو زجاجة المنقوع الذي لم يتخل عنها أبدا، وكانت جدتى تردد بأن حادثة قدمه قد تركته مجنونا ولذلك فهي قد سامحته على كل شئ حتى لو كان يحتسي هذا المنقوع، كانت تخاف فقط أن

تطولنا جرسة* بسبب "عمايله السوداء"، الغريب أنه كان يصر أن أناديه بعمي على الرغم من أنه كان أخا لأمي، كان يرفض تماما كلمة خالي، لاأدري لماذا؟ هل كانت هناك علاقة ما بين اختفاء أم سناء وبين رغبته فى الخروج؟ كيف سار فى شوارع القابوطى فى قلب الليل يصرخ ويحاكم الجميع، وأنا أسير خلفه لا أكاد أعي شيئا.

عدنا بالعربة النقل مرة أخرى، إلى بورسعيد حيث أصرت الوحدات العسكرية في الطريق على عودتنا وركوب القطار من بورسعيد، وقفنا على الرسوة هناك خارج بورسعيد، لاأدري من أين أتى هذا القطار الذي نركبه الآن، كان الرصيف ممتلئا بالبشر، وكنت أعتقد بأن المدينة قد خلت منهم ولم يتبق سوى عمي وأنا وبعض الجنود والكلاب والفئران، حتى دلافين القناة قد هربت كما يخيل لي، فى القطار ركبنا سويا وهو لا يكاد يعي ماذا يحدث، كأننا ندخل في نفق مظلم لانخرج منه إلا لندخل نفقا آخر، كانت رحلتنا سويا بهدف العثور على ماتبقى من أسرتي، أما هو فلم أستطع أن أعلم حقيقة أهدافه؛ فقد كان يغير رأيه دائما، كنت أنتظر تلك اللحظة التي سيغير فيها رأيه ولم تطل كثيرا، إلى أن فتح عينيه في الفجر على أصوات حركة عجلات القطار، كان القطار يسير بشكل بطئ للغاية، ولم نكن ندرى السبب، وحين رفعت بصري إلى النافذة أخذت أتلوى وأتحرك فى عنف، وهنا استيقظ عمي خضير.

كنت أتطلع من نافذة القطار وكان الوقت فجرا، كان الضباب يرحل إلى الأعلى أو باتجاه الجنوب مع حركة رياح صيفية نادرا ماتأتي في هذا الوقت بالتحديد، كانت تهب لاندري من أين؟ وكنت قد توقفت عن التفكير في جنياتي الصغيرات وفي أبوللو منذ بعض الوقت، التصقت عيناي بالأسفل بجوار عجلات القطار الحديدية، كان يسير ببطء لامتناه، كأننا نركب عربة كارو، وكانت ترعة الإسماعيلية تبدو على بعد عدة أمتار.

أطل عمي خضير برأسه معي، وفجأه بدأ هائجا، ثم قام وهو يصرخ بإفراغ كل مافي جوفه، وكان صوته هو الوحيد الذي أسمعه:

- ياأولاد الكلب .. ياأولاد الكلب.. ياأولاد الكلب

وتوقف أخيرا وأخذ يتطلع في سكون وهو يلهث، ثم سقط على الكرسي بجانبي وانزلقت أنا إلى جواره على المقعد من النافذه.. كنت ألهث أنا أيضا في رعب، لم ينمحي هذا المشهد من ذاكرتي حتى اليوم.

---

*جرسة : بمعنى فضيحة ومنها الفعل يجرس فلانا أي يفضحه، ربما تكون مشهورة هذه الكلمة فى محافظات مصر، لكنها تستخدم بكثرة هناك.

(٥٥)

كيف تنمحي انكساراتنا؟.. لاتنمحي شأنها شأن تلك الجروح العميقة التي تترك علـــى أجسادنا ندوبا غائرة يراها الجميع ويمصمصون شفاههم، لايمكنهم رؤية ندوب عقولنا، لكنهـــا تظل هناك في مكان ما، لاتبرحه أبدا، آلاف الذكريات الأخـــرى لايمكـــن أن تغطيهـــا، آلاف الأطنان من الأتربة لايمكن أن تخفيها، ملايين الأفراح لاتخفي ندوب الذاكرة، ندوب الجـــسد يمكن إخفاءها ببعض العمليات الجراحية أما ندوب العقل فلاتنفع فيها أدوات الجراحة ولاينفع لها الجراحون أو الجراحات التعويضية، الحل الوحيد المثالي كان في رأيي أن نفقد الـــذاكرة، نفقدها تماما، أن نكون كقطعة خشب تسبح على وجه الماء، لاتدري من أين أتت ولا إلى أين تذهب، أن نفقد عقولنا فقد أصبح الإنكسار جزءا لاينفصل من ذاكرتنا، يراوح دائما في نفـــس المكان، من استطاع نسيان جروح الروح والعقل..

لاأحد،

لاأحد،

لاأحد.

(٥٦)

كنت أحدق في القطار من الداخل بعد أن سقط عمى خـــضير فـــي غيابـــات النـــوم، واستسلم بعد أن تقيأ، رفع عكازه وأسنده إلى صدره وراح في غيبوبته، كانت شفتاه تتحركان، كان يحاول أن يقول شيئا وكنت أحاول قراءة مايقول، أحدق في وجهه، أتفحـــص ملامحـــه، شعره الناعم الأسود الطويل، وبشرته البرونزية التي اكتست بطبقة من الملح والعرق، وتلـــك الغضون والتجاعيد المحفورة في وجهه، توقفت وعدت برأسي إلى الوراء محاولا التفكير فيما يحدث، لكني لم أستطع أن أدرك شيئا، كنت أتسائل عن قدرتنا على الرحيل بعدة ليـــال مـــن إعلان عبد الناصر للنكسة والتنحي، كأنه كان يعترف بأنه لاقدرة له على احتمال الأمر، كأنه يسقط من كل تلك الأبراج التي صنعتها له، كأنه يعلن فشله، كأنه يعتـــرف بأنـــه وراء كـــل

أحلامنا المستحيلة التي تلاشت في أيام قليلة، كأنه يقول لنا عليكم بالقهر، لكن هناك في ركـن ما داخلي لم أصدق كل ذلك، كما فعلت تماما مع جدي، لم ينهار عبد الناصر أمامي حتى بعد دخول أبي السجن، كنت مؤمنا بأنه لو عرف فسيخرجه، كل ماعلي أن أرسل إليه هو الآخـر بخطاب، سأفعل ذلك حين أرتاح، حين أجد أمامي قلما وورقة، يجب أن أفعل ذلك في أقـرب وقت، كيف لم أفكر في ذلك من قبل، على الأقل لن يفعل معي مثلما فعل أبوللو، نحن هنا في مصر ولسنا في بلاد الجريج، من المؤكد أنه سيرد، إذا رجع عن فكرته في التخلي عنا، عليه أن يطرح تلك الفكرة جانبا، عليه أن يرجع إلى مقعده ويقاتل معنا أو نقاتل معه، ذكـر ذلـك عمي خضير، لقد فعلها من قبل في ستة وخمسين ويمكنه أن يفعلها الآن مجددا، رأيت بعـض الأشخاص الذين ساروا في الشوارع يعلنون رفضهم لتنحيه، من أين ظهروا بعد اختفائهم من كل شوارع المدينة التي علا كل شئ فيها العجز والتراب، الشوارع النظيفة اللامعـة اختفـت وحلت محلها شوارع غريبة خالية من البشر، كأنها تشبه أنفاق الفئران، كنت أشعر بأن تلـك الحيوانات الباقية تمرح في دمي، وتشربه، وتتقيأه في أركان شوارعنا وعلى شـواطئنا التـي ماتت، في سينما (الأهلي) حين كنت أهرب لأتفرج على (شازام) وهو يتحول إلى بطل طائر يجوب أعماق الفضاء والبحار، فيحمي حبيبته ويقضي على جميع أعدائه، كيف واتتني تلـك الفكرة الغريبة بأنني يمكن أن أكون مثله؟ وحتى البطل في فيلم (سانجام) كان طيارا أيضا، أنا لست أقل منهما سواء كنت أمتلك أجنحة أو عباءة يمكن أن تساعدني على الطيران أو أمتلـك طائرة، كنت أتمنى أن أقابل أبوللو وجها لوجه لأطلب منه تلك العباءة أو الأجنحة، كنت قـد طرحت فكرة الطائرة جانبا الآن، إذ ستحتاج مني إلى وقت للتدريب عليها، أمـا العبـاءة أو الأجنحة فالعمل بهما سهل، كانت تلك الفكرة تبدو مستحيلة لي الآن، حتى إذا امتلكـت تلـك الأجنحة فإلى أين أذهب بها، أذهب إلى خالتي في أثينا، أم أذهب إلى جدتي التي لاأعلم إلـى أين ذهبت هي وإخوتي، ولو حاولت الذهاب إلى أبي فلن أستطع لأنني لاأعلم في أي سجن هو الآن، فهمت من عمي خضير أن مصر بها عشرات السجون، ففي أي سجن هو يقبع الآن؟ أم أذهب إلى أمي إذا كانت حقا قد ماتت، وأذهب أيضا إلى جدي في سابع أرض أبحث عـنهم، كيف أدلف إلى أودية الموت؟ وكيف أتحدث مع (عزرائيل)، وماهي اللغـة التـي يمكـن أن أتحدث بها معه؟ أتذكر كلمات جدتي حين قالت لي بأن (عزرائيل) يتحدث السوريانية*، ولـم تشف غليلي بحديثها عنها، كانت لغة سرية خاصة بالملائكة وبشعوب قديمة كانت تعيش فـي مكان ما، لاأعرف أين مكانهم الحقيقي، حتى بعد سنوات لم أعرف، كنت أسألها هل معنى ذلك مثلا أن كل كلمات لغتهم يغلب عليها حرف السين؟ أو الراء أو النون؟ لم تستطع أن تجبنـي

* تنطق أيضا السريانية وهي لغة تحدثت بها عرب المشرق قبل مجئ الإسلام.

وهى جالسة تحتسي فنجان قهوتها الصغير، قالت فقط فى اقتضاب إنها لغة سنتكلم بهـا يـوم القيامة، كيف نتحدث يوم القيامة بلغة لم نعرفها؟ هل سيلهمنا الله بها، ولماذا اختارها على وجه اليقين؟ لم أعرف؟ كنت أشعر بأن هناك سرا ما في كل إجابة كنت أتلقاها، هناك شئ غامض لم أستطع أن أحل ألغازه، وكنت متأكدا بأنني يوما سأحل تلك الألغاز خاصة حينمـا أكبـر، حينما أصير في قامة أبي أو عمي خضير، لكن هناك شيئا ما أيضا يقول لي بأن ذلـك لـيس صحيحا، وبأنني سأخلق لنفسي دائرة أخرى من المشاكل أعيشها، وعلى ذلك كنت متأكدا بأن كل تلك الأفكار ستذوب وتختفي يوما ما، ولن يبقى على سطح ذاتي شئ آخـر، أردت منـذ بضع ليالى أن أقول لها ألا يشبه كل مايحدث يوم القيامة، لكنها لم تكن موجودة، فكرت فـي ذلك وأنا أحاول تقليد أبي في حلاقة ذقنه.

(٥٧)

أدقق فى العربة التى جلسنا فيها، بعض النساء والأطفال الذين استلقوا على المقاعـد فـى فوضى عارمة، بعد عدة ساعات شاهدت الضفة الأخرى لترعة الإسـماعيلية، كـان هنـاك عساكر فى الناحية الأخرى يبتسمون ويشوحون بأيديهم، وحين نظرت لعمى خضير فى تساؤل قال:

- اسرائيليين..

أخذت أتطلع إليهم محاولا التدقيق في ملامحهم لكنهم لم يكونوا يختلفون عنا كثيرا، سوى أنـه كانوا يضحكون فى الوقت الذى تصاعدت من أعماق عربة القطار التـي نركبهـا نهنهـات خفيضة لتكسر صمت العربة.

هاأنا أراهم للمرة الأولى وجها لوجه، صمت يائس مسموع ونهنهات مرتعـشة، تـصل إلـى أسماعنا مختلطة بأصوات الضحكات العابرة للترعة إلينا، يتوقف القطار ويسير فـى هـدوء، تنقطع الأصوات فجأة، أتطلع مرة أخرى لم يكن هناك أحد فى الناحية الأخرى مـن الترعـة سوى الرمال الصفراء العريضة، اختفت الحياة فجأة كما ظهرت، كأني كنت أتطلع إلى أشباح مجهولة آتية من عدم.

يخرج عمى خضير رغيفا ويقسمه نصفين بينى وبينه، ثم يخرج قطعة من الجبن الأبيض ويقسمها أيضا نصفين فيضع نصفها في نصف رغيفي ثم يقضم النصف الآخر مع قطعة خبز، أبدأ فى الأكل فى صمت، ثم أتوقف وأتطلع إليه، وأعيد النظر إليه فى تساؤل، لكنه يشيح بوجهه بعيدا عني، كان مدركا لما أريد سؤاله عنه، لكنه لم يجبنى، تركنى أحاول أن أتخيل كيف ماتت أمى؟! هل ماتت حقيقة أم لا؟ لم يجبنى أبدا فى تلك اللحظات، تركنى لخيالاتى وأوهامى، تركنى لأسئلة لم أسألها أبدا، كانت حيرتى هى كل عقلى فى تلك اللحظة وكانت شفتاى مخيطتين فلا أتكلم أبدا!!

(٥٨)

هاهو خيارنا الوحيد أنا وهو، بعد أن نهض من نومته الاضطرارية، فى القابوطى على تلك الأرض الملحية. وقال تلك الكلمات التى أصابتنى فى مقتل ، كنت أشعر بأن هناك شيئا ما غير طبيعى فى كلماته، لم يتحدث عن أمى إلا فى تلك اللحظة وهو نائم، شتمنا كلنا ولعن جدودى وجدوده، وترك الطاعون والسل يمرحان فى الرذاذ الذى تناثر من فمه وهو يحرك رأسه صاحيا من نومته التى انهار فيها على الأرض، ليقرر بعد صحيانه أن نخرج من المدينة فورا، ولم أكن أدرى كيف سنفعل ذلك؟ فلم يكن هناك أحد يمكن أن يساعدنا على ذلك، إلى أن اكتشفت أن الحياة تسير بعيدا عن ناظرى، أنا وحدى الذى كنت أراها ميتة، أنا وحدى الذى لم تكن للحياة مظاهر أمام عينيه، كأن الحياة هى ماكنت أعيش فيه، فلما انتهى ماأعيش فيه، تحولت إلى الموت، ماهو الوجود بدون أن يكون لدينا إحساس به، وحين نفقد هذا الاحساس يتحول الوجود إلى عدم، أليس هذا هو معنى الحياة.

ليست لدينا خيارات كثيرة هو أو أنا، فخيارنا أن نبقى معا، فهو الباق من حياتى السابقة، ربما أكون عبئا عليه، لكنه يقول أحيانا بأن حياته تسير كما هى فى وجودى، ولو لم أكن موجودا لفقد طعم كثير للحياة، نتعلق أحيانا بقشة ليبقى لحياتنا طعم، وقد تكون شوكة، حتى الشوكة نحتاج إليها، نتشبث بها أحيانا على الرغم من الألم والدماء التي تفجره من أجسادنا وأرواحنا، لكنها أحيانا خير من اللاشئ.

بعد قرارنا بالرحيل، أو قراره هو بالأحرى ولم ينتظر أى معارضة منى، سرنا عائدين إلى منزله، وهناك جلس يحتسى منقوعه، وأخذ فى حديث طويل عن أم هدى، ولم أكن أنتظر منه هذا الحديث، كنت أريده أن يتحدث عما حدث لأمى، لكنه لم يأبه لما كان يراه فى عينى كان

يهرب من نظراتى بشكل أو بآخر، كان يتحاشانى يكلمنى كأننى غير موجود، ربما نسى ماقاله لى عن أمى، ولم أكن أستطيع الإلحاح عليه، كنت معلقا من عرقوبى معه.

كنا نسير فى بطء عائدين إلى منزله، حين قال فجأة وهو يهز رأسه، كأنما يقنع نفسه بـــالفكرة قبل أن يقولها، وتحدث كأننى الذى سيتخذ القرار في الذهاب من عدمه:

- أنا عايز أروح لياني تانى..

وكان على أن أرضخ لخياراته للمرة الثانية، سرت وأنا لاأعلم إلى أين نسير، ثم اصر علـــى أسنانه وقال.

- لازم أقول له إننا هانمشى (ثم صمت قليلا) .. مش ممكن نمشى إلا لما نقول لهـــم.. مش كده.. لازم نقول لهم.. عيب نمشي كده برضه.. مش كده.. انـــت إيـــه رأيـــك.. (تطلع نحوي ثم انفجر ضاحكا).. آه مش واخد بالي.. داء الطاعون في دماغي..

ولم أفهم لماذا يجب أن نقول لهم إننا سنغادر، من سيهتم إذا غادرنا بورسعيد أو مكثنا بها، لقد غادر الجميع دون أن يقولوا لأحد إنهم سيغادرون، وغادر الأهل دون أن يأخـــذونى معهـــم، تركونى لحيرتى مع عمى خضير، كنت أنظر إليه أحيانا لأتأكد أنه ليس مجنونا، كيف يتأتى له أن يتجرع هذا المنقوع ويسهر تلك الليلة الصاخبة بعد إعلان عبد الناصر للنكسة بعدة أيـــام، وكيف تأكد الجميع بعد الحرب بيومين أيضا أننا خسرناها رغم تأكيد الإذاعة لنا بأننا ننتقل من نصر إلى آخر، عشرة أيام انتهت فيها الحرب وغادر الجميع فجأة، خلال ثلاثة أيـــام خلـــت بورسعيد من كل شئ وأصبحت أيامى كلها هامشية لاحركة فيها ولا إحساس.

حين جلست مع هدى عاودنى هذا الإحساس قليلا لكنه اختفى بعد ذلك حتى جنياتى الصغيرات تركننى مع عمى خضير ولم يعاودن الظهور بعد ذلك، حتى بت أعتقد بأنهن لن يظهرن مرة أخرى.

خلت ذاكرتى الآن من كل الناس الذين عرفتهم خلال السنوات السابقة حتى الولد الذى كانـــت مشاجراتى معه لاتنتهى اختفى أيضا ذات يوم، مات، وبعدها بأيام اختفت من بعده أخته، ثـــم اختفت أمه وأبوه وجدته وجده مرة واحدة، لاأدري إلى أين، لكنني كنت متأكدا بـــأن مـــصير أخته سيكون مميتا أيضا، لاأدري أيضا من أين أتاني هذا الإحساس وجثم فوق صـــدري فلـــم أستطع منه خلاصا إلا بعد سنوات؟!.

أحاول أن أتذكر مشاجراتى معه فتخذلنى ذاكرتي كما خذلنى الجميع، عدا عمى خضير هـــو الوحيد الذى تفتحت عليه حياتى الآن، إذا صح أن أطلق عليها حياة، ليس لى خيار فـــى هـــذا الأمر، على تقبله كما هو، فهو الوحيد الذى يمكنه أن يدلنى على الطريق الآن، الطريق إلـــى

جدتى وإخوتى على الأقل، وإن كنت أعلم بأنه بحالته تلك سوف يكون طريقنا معـــا ممتلئـــا بالمصاعب.

كنت أدرك أن هناك مصاعب كثيرة علينا اجتيازها معا فى رحلتنا إلى مرفأ أحلامى القديمة، لكنني كنت مصمما على المضي حتى النهاية في طريق البحث عن الجميع، كنــت صـــغيرا لأفكر بهذا، لكن هناك كثيرا من الأشياء في حياتنا التي تتملكنا فلا نستطيع منها فرارا، سواء كنا مفتوحي العينين أم عكس ذلك، إنه القدر في النهاية.

(٥٩)

لاأدرى كيف كنت أفكر بهذه الطريقة، هانحن واقفان مرة أخرى أمام عمارتنـــا، بعـــد أن هبطنا من القطار وهو متوقف وعدنا سائرين كأن بورسعيد لا تريد لنا أن نرحل منها، تتشبث بنا، تتشبث بي، كنت أعشقها، كأنني لم أغادرها أبدا، هاهي السقالات الخشبية التي كانت معدة لإضافة طابق جديد في عمارتنا في أماكنها، ولم أكن أدري من سيقوم ببنائه الآن ولمن؟ ينادى عمى خضير على ياني، لاأحد يجيب، نصعد السلالم وندق الباب بعد مـــدة تفـــتح أم هـــدى، تستقبلنا بنفس الترحاب وتأخذ فى إعداد الفطور فيما يأتى (ياني) من الداخل مازحـــا وهـــو يدعك عينيه.

- انت خبيبى رخت فين؟

رد عمي خضير بنفس لهجته وهو يبتسم، وكان (ياني) يعلم أننا نحاول تقليـــده أحيانـــا، وكان مرحا للغاية، فلم يتوقف أبدا أمام محاولاتنا الطائشة معه

- اخنا رخنا مشوار صغير ورجعنا ياخواجه..
- انت أكيد مافطرتش لسه .. فيفيا ياخضير.. نفطر سوى ونشرب كاس خبيبى..

بانت علامات الارتياح على وجه عمى خضير، وأتت هدى من الداخل وتعلقت بيـــدى. كـــان هناك سبب ما لعودتنا إلى يانى وهدى لم أستطع تحديده تماما، كان عقلي مغلقا، ومجبرا على أن أسير في نفس الطريق، كان يريد شيئا من (ياني) لكن ماهو على وجه التحديد لم أستطع

أن أخرج بتفسير واحد للأمر، لقد دخل بعد الإفطار إلى الغرفة الداخلية هـو ويـاني جلسا طويلا، وحين خرجا لم أفهم شيئا كان وجه عمى خضير مصفرا، ولم أستطع تفسير ملامح ياني، كان هناك شيئا ما غير طبيعي، شتان مابين ليلة أمس وهذا الصباح، لم أسأله، كنت أسير معه فقط، كنت أفكر أحيانا بأن على أن أهرب منه، لكن كان السؤال إلى أين أذهب؟.. لم أستطع الاهتداء لمكان واحد، لكني عثرت أخيرا على ضالتي، (كريستينا) كيف نسيتها فى هذا الزحام، كان علي أن أذهب إليها، إليها وحدها فقد كانت ملاذي دائما حين تغلق كل السبل في وجهى، عرفتها منذ أعوام ثلاثة حين ضللت الطريق لأول مرة، علي أن أذهب إليها الآن، علي أن أحاول، لم أستطع مقاومة الفكرة طويلا، كان على أن أفكر بأي وسيلة أترك فيها عمي خضير لساعات أذهب إليها ثم أعود، يجب أن أراها، الآن قبل أي وقت آخر.

(٦٠)

كان شم النسيم، وكنا جميعا في بورفؤاد، بعد أن ركبنا المعدية الكبيرة التى عبرت بنا إلى الناحية الأخرى حيث تكلمت مع دلافين البحر وأنا معلق على سورها الخشبى، كانوا يصرخون على هناك لكنى لم أكن أسمع سوى صوت تلك الدلافين البيضاء اللامعة تحت أشعة الشمس الهائلة التي كان يطلقها أبوللو – الذى كنت قد سمعت باسمه عرضا لكني لم أكن قد صادقته بعد– تلك الأشعة التي كانت تشتد أحيانا كلما تكاثفت سحب الشتاء كأنهما في صراع كل منهما تريد السيطرة على السماء، تحت تلك الأشجار التى تتناثر على الشاطئ المواجه للبحر جلسنا على تلك الحشائش الطويلة، بعد ساعات من أكلنا للبيض الملون والسمك البربوني المقلي على هيئة كف اليد* وكفتة البراغيت، لا أدرى كيف انسللت من بينهم وركضت خلف تلك الطائرة الورقية الملونة، تابعتها بعينى وأنا أسير خلفها حتى وجدت نفسي فجأة بعيدا عنهم، لم أهتم كثيرا كنت أتابع الطائرة الملونة، بين تلك البيوت البيضاء المكونة من طابقين ومتراصة بجوار بعضها البعض، والتى صنعت أبوابها وشرفاتها من خشب أبيض لامع أيضا، انشغلت عن الطائرة للحظات ورحت أتفرج على تلك البيوت، وحين تطلعت للسماء كانت الطائرة قد اختفت، وأدركت أننى ضعت عن أهلى، وقفت وحيدا هناك بين بيتين من تلك البيوت لاأعلم ماذا أفعل، كنت أمام خيارين، إما أن أحاول العودة من حيث أتيت أو الوقوف مكاني لاأتحرك ولأنى لاأعلم شيئا عن الطريق الذى أتيت منه فقد اخترت الحل الثاني

---

* يتم قلي سمك البربوني الصغير في بورسعيد بطريقة مختلفة أحيانا عن قلي بقية أنواع السمك، حيث تجمع كل أربع أو خمس سمكات وتلصق معا من ذيولها على هيئة مروحة باستخدام الدقيق وتقلى.

الأسهل وكانت الشمس قد بدأت في المغيب في مكان ما خلف تلك البيوت البعيدة، وحين بـــدأ بكائى يتصاعد انفتح أحد أبواب تلك البيوت وخرجت منه امرأة صغيرة السن، بيضاء قصيرة إلى حد ما، ترتدي تلك الثياب البيضاء وتضع صليبا كبيرا على صدرها، كان وجهها ناصــع البياض ، فتوقفت فجأة عن البكاء وأنا أجرى مقارنات بينها وبين ستي، كان بياضها شـــاهقا غريبا لم أشاهده من قبل، وكانت الأعوام الست أو السبع التي أرزح تحتها تسمح لعقلي بعبث طفولي غريب فكنت أركب بشرتها على وجه ستى فأجد ستي إمرأة جميلة للغاية، كيف لم أكن ألاحظ هذا الجمال، هل سواد اللون يمحى الجمال، وهل البياض يبدي الجمال إلى هذه الدرجة، توقفت عن البكاء تماما حين اقتربت مني، وأخذت تحدثني بتلك اللغة الغريبة، فلم أفهم منهـــا شيئا، قلت لها إنني كنت مع أهلي منذ دقائق، ولا أعلم إلى أين ذهبوا فجأة، أمـــسكت بيـــدي وتحركت بي إلى نهاية صف تلك البيوت الجميلة الغريبة وتطلعت للأمام فلم نجد أحدا فعادت للناحية الأخرى، كانت تحدثني بسرعة فلم أع شيئا، وأخيرا سحبتني من يدي إلى داخل المنزل الذي خرجت منه، فجأة ظهرت أمامى امرأة أخرى أكبر منها سنا لكن وجههـــا كـــان ممتلئـــا بالتجاعيد والنمش وترتدي نفس الملابس التي ترتديها المرأة الصغيرة، تبادلا حـــديثا غريبـــا سويا، فهمت منه أنني لايجب أن أدخل هنا وأنه يجب أن أخرج، تطلعت حولي في حيرة لولا ضغطة المرأة الصغيرة على كفي حينها شعرت بشئ ما يقول لي لاتخف.

(٦١)

تركت عمى خضير يصعد السلم صعدت خلفه أول خطوتين وكان هو قد صعد الـــسلم كله في خطوتين ووقف أمام شقة ياني، وفجأة انسللت عائدا، راكضا في اتجاه القنـــاة كنـــت أجري وألهث، عبرت من خلف العمارات، فلا يستطيع عمي أن يراني، عبرت (الخـــرارة) وسينما الأهلى ومصنع الثلج ودخلت من شارع جانبي إلى الحميدي، كانت كـــل المحـــلات مغلقة، باعة السمك والسمان واللحم والخبز، قلب المدينة الساهر حتى الصباح أصبح مغلقـــا، أرى بعض الأشباح فأتخفى منها، تعثرت وكدت أسقط، استندت بمرفقي على الحـــائط، حـــين وجدت أمامي فجأة واحدا من هؤلاء العساكر الذين تناثروا في أنحاء البلدة يختفون طويلا ثـــم يظهرون فجأة، ولم أكن أعلم جيدا ماذا يفعلون؟ كانوا مختلفين عن هؤلاء الذين رأيتهم نائمين على بطونهم بعيد قليلا عن شريط القطار الذي أقلنا أنا وعمي خضير، مختلفون قلـــيلا عـــن هؤلاء الميتون والقتلى الذين امتلأت بهم ترعة الإسماعيلية، كيف عدنا فجأة بعـــد كـــل تلـــك

المسيرة الليلية مابين القطار والعربة أنا وعمي خضير، لاأدري لماذا كنت مسرورا بـــالعودة وكنت أركض معه بعد أن وصلنا مشارف المدينة وتوقفت بنا العربة النقل هناك بين عربـــات الجيش المتوجهة إلى بورسعيد وكيف تركنا ذلك الضابط بعد أن تفحص أوراق عمي خضير، تردد كثيرا قبل أن يتركنا لولا بكاء عمي خضير له، كما أشاح له بعكازه وسقط على الأرض صارخا في حالة هستيرية وتقلب على الأرض قبل أن يمسكه الضابط من يـــده فـــي حنـــان ويربت على كتفه، ولم يكتف عمي خضير بذلك بل قال له إنه بقدم واحدة يبحث عـــن ابنتـــه ولابد له من العثور عليها، كانت شمس الفجر على وشك الظهور، وكان كل شئ أحمر قاتمـــا في الخلف وكان الباقي في مخيلتي صورة هؤلاء الجنود القتلى والعربات العسكرية المقلوبـــة في الترعة، كان هذا هو معنى الحرب التي نخوضها الآن، حرائق وقتلى واختفاءات ومـــوت وجحيم وصوتي المقطوع وغياب أهلي، وموت أمي إذا كان موتها صحيحا، على أن أجد حلا، الحل ليس لدى عمي خضير المقسوم بين زوجته وإبنتيه، وبين زوجة (ياني) وابنته منهـــا، هدى كما صرح لي، فهو مثلى أيضا لايعرف ماذا يفعل، ربما أجد الحـــل لـــدى كريـــستينا، كريستينا وحدها، كان الخوف الذي يملؤني من أن لا أجدها يكاد يقتلني، وحين وجـــدت هـــذا العسكري أمامي، لا أدري لماذا صرخت داخلي وركضت في الحميدي إلـــى الأمـــام دون أن أنظر خلفي، الأمام فقط، كدت أتعثر وأسقط أكثر من مرة، لكني كنت أعود وأتماسك، كانـــت أضواء الشارع شاحبة زرقاء وغير موجودة في الكثير من النواصي ورؤوس القرن ، ولأول مرة في حياتي أكتشف بأن الحميدي شارع طويل، طويل للغاية، يكاد لاينتهـــي، كـــان هـــو مخرجي الآن إلى قناة السويس، كم ركضت فيه أنا والَلالّي، ولبنى وهدى وسيد الفحام أخـــو لبنى على الرغم من شجاراتنا الكثيرة العنيفة سويا، وكم اختبأنا بين عربات السمك والخضار، وحتى داخلها، لم يكن شئ يحول بيننا وبين مانريد فعله.

(٦٢)

لبنى، لماذا لم أحك عنها من قبل، كيف نسيتها في خضم كل مايحدث، لم أكن قـــادرا على التركيز في كل الأشياء والأشخاص، بعض الأشخاص يبرزون فجأة من عـــدم اللحظـــة لنكتشف أن حياتك على صغرها امتلأت بالكثير، الكثير من الضحكات والـــدموع واللعنـــات والآمال والاحباطات، لبنى سري الأول عن المرأة، قبل هدى، فلم تكن هـــدى ســـري الأول، ربما كانت خالتي أم هاشم هي المرأة الأولى التى رأيتها عارية، لكنها كانت خالتي، فلا أظـــن

أن عيني وقعت منها على سوء أما لبنى فعلى صغرنا فلم نكف عن البحث عن سـر المـرأة داخلها، ونقلته لي كاملا دون خجل أو حياء، لكن عقلي الصغير أحيانا لم يستوعب ذلك، كنت أبحث عن تحقيق أحلامي الصغيرة دون أن أهتم كثيرا بمحاولات المرأة الصغيرة، إلى أن كان ذات يوم هناك خلف مطار الجميل، كنا قد خرجنا من المدرسة ظهرا ونحن حاملان حقائـب المدرسة الجلدية، لاأدري كيف أقنعتني بأن نسير في الاتجاه المعاكس ناحية مطار الجميـل، هناك في أشتوم*، ربما لم أكن في حاجة إلى أن يقنعني أحد بالذهاب إلى هناك فكـم ذهبـت وحدي بعد الخروج من المدرسة، لم يكن الطريق طويلا، سرعان ماوصلنا إلى هناك وبـين تلال الرمال الكثيرة خلعت ملابسها كلها كما ولدتها أمها، كنت أتلفت حولي مخافة أن يظهـر عمي خضير فجأة فقد كان هذا المكان ملجأه حين يود الانفراد بنفسه وحيدا، لكنـه لـم يكـن موجودا، كنا في العاشرة تقريبا من عمرنا هذه السنة المجهولة تماما في حياتنا لغرقنـا فـي ملذات الاكتشاف قبل أن نعي، ولم نكن نعلم أن الحرب على الأبواب، كان صدرها صـغيرا للغاية، ولم أستطع أن أحدد ملامح هذا الشئ الذي بين فخذيها، طلبت مني أن ألحقها في الماء، وركضت هي إلى حافة الشاطئ تغوص بقدميها الصغيرتين في حبيبات الرمال والمياه لتفـك أسرار الحياة، لم أتردد كثيرا فخلعت ملابسى أنا الآخر وركضت خلفها إلى الميـاه الـساخنة بأمواجها الهادئة تماما، قفزت لأغطس عميقا هناك في قلب الماء، كان العالم أزرق تماما أمام عيني، وكانت تلك الأسماك الصغيرة اللامعة تركض في جماعات، أبتسم إليها وأتخيل جنياتي أو أستحضرها، ثم أقب لأجدها أمامي، كانت تتكلم فلا تصمت، تكلمت كثيرا عما يفعله أبوها وأمها على السرير وأنها تراقب ذلك كل يوم، وماتراه منهما، وأنها تريد أن نفعل ذلـك معـا، ولم أفهم كثيرا مما قالته، تركت نفسى لها، كانت تقبلني، ولم أعرف أبدا كيف تكون القبلة، هل هي نفس القبلة التي أراد خالي مسعد أن يأخذها من كريستينا؟ كانت تحدثني عن محـاولات أخوها سيد الفحام لتقبيلها، كما أسرت لي بأنه يعريها وهي نائمة وأنه كثيرا ماحاول النوم معها وأنها تشعر بالقرف منه، أخذت أتفحص ملامحها وأنا في الماء، كانت بيضاء وسمينة إلى حد ما وكنت أشك بأنها تصلح للقبل أو لأي شئ آخر، حتى حين كان يحدث ذلك لم أكـن أشـعر بأي شئ، سواء على سلم العمارة حين تجدني مع هدى فلاتتركني إلا وشفتاها تلامس شـفتي، وكانت أيضا ذات ملامح حادة فكان أنفها صغيرا كأخيها لايكاد يظهر في وجههـا الأبـيض الدائري ولكن عينيها كانتا واسعتين أكبر من عيون أخيها وفيهما مايشبه الجحوظ، لم تختلـف كثيرا عن أخيها، كنا غارقين في أفعال طفولية حين سمعنا هذا الصوت آتيا من مكان ما على الشاطئ، فالتفتنا سويا ناحيته، كان على إحدى التلال المرتفعة يقف سيد الفحام أخوها الأكبـر

* أشتوم الجميل: هي المنطقة التي يقع فيها مطار الجميل في بورسعيد.

واللالى صديقنا المشترك، كنت أتطلع إليهما في خوف مختلط بسذاجة، فيما كان سيد الفحـــام، يلقى بالسباب والشتائم بصوت عال فوق رأسي ورأس أهلى جميعهم، كان يقول بأنه سيقتلني ويشرب من دمي وكنت أعود بظهري إلى الوراء في الماء وكانت لبنى خلفي تماما ترد عليه سبابا بسباب قائلة بأنها لاتخاف منه، وأنها ستفعل ما تشاء، بل هددته بالقتل ان اقترب منـــا، وكانت تردد بينها وبين نفسها بصوت خفيض غير مسموع كلمة تكررها لم استطع أن أسمعها في البداية لكن حين أصبحت خلفي تماما سمعتها تقول بصوت خفيض " هقتله..هقتله..هقتله"، وكان هو مستمرا في سبابي دون أن يستمع إلى ماتقوله.

(٦٣)

لم أتسائل كثيرا عما يفعله عمي خضير، أو ماذا قال ليانى أو زوجته، ومإذا كان يبحــث عني أم لا، كنت أركض في نهاية الحميدى حين اندفعت سيارة حربية صغيرة أمامى وتوقفت، فتوقفت أنا الآخر أتطلع حولي في حيرة، كان ضابط وجنديانان، أدركت في تلك اللحظة مــن عمري على وجه التحديد، أنني فقدت سطوتي على المدينة، وأنه لم يعد مسموحا لي بحريــة الحركة، هاأنا أصادفهم في كل الشوارع والأزقة كالجراد حين ينتشر، كانت جــدتي تحــدثنى عنه أحيانا، فأتخيل أسراب النمل في بعض بيوت بورسعيد الخشبية القديمة وكيف سقط بعضها بفعل النمل، وكيف أعادوا بنائها، لم أدر ماذا أفعل فاستسلمت وقد انحنيت على قدمي أمــسك ركبتي بكفي، صوت لهاثى المرتفع هو الصوت الوحيد المسموع مختلطا بــصوت خطــوات الأحذية العسكرية التي تقترب مني وإضاءة السيارة الخافتة والتفاتات لجنود على مبعدة، كنت أشعر بأن هناك من يراقبني من الأعلى، هناك بعيدا بين تلك النجوم الفضية، لكني لم أســتطع أن أحدد من، هل هو أبوللو أم جنياتي الصغيرات، وضع الضابط يده على كتفي، وسألنى:

- رايح فين كده.. وبتجري ليه؟

ارتفعت بقامتي ونظرت إليه حاولت الكلام فخرجت الأصوات من فمي غائمة لامعنى لها، قال فى ود واضح:

- إهدأ .. خد نفسك.. وحاول تتكلم

لم تكن محاولتي الثالثة أو الرابعة أو الخامسة بأفضل مــن محــاولتي الأولــى، أدرك أننـــي لاأستطيع الكلام، فهمس لي:

- أخرس .. مش كده..

هززت رأسي، قربت عليها ودعاني في لهجة آمرة هادئة لركوب العربة معه، ركبت بين الجنديين في الخلف ولم أستطع أن أتحقق من ملامحهما في تلك اللحظة، وانطلقت السيارة عائدة من الحميدي مرة أخرى، ولم أدر بعد ذلك إلى أين اتجهت، وجدت نفسي في شارع الثلاثيني* لا أدري كيف؟ كنت قد فقدت بوصلتي فى بورسعيد في تلك اللحظة، كانت المدينة يعاد تشكيلها جذريا، ولم أكن أدرى عن ذلك شيئا.

(٦٤)

هدأت حدة النقاش بين المرأتين، أحسست بأن المرأة الثانية الأكبر سنا قبلت بفكرة مكوثى وبياتي معهما الليلة على مضض، ولكنها أكدت على المرأة الصغرى بأننى يجب أن أرحل في الصباح أو هكذا فهمت من إشاراتهما وحديثهما الجريجى الطويل، رأيت الفرح في عيون المرأة الأولى التي أمسكت بيدى وصعدنا معا إلى الطابق الثاني، أغلقت الشرفة، كان الأثاث بسيطا للغاية، أخرجت من دولاب الملابس كمية كبيرة منها، خاصة تلك التي تناسب جسدى، كانت ملابس جديدة ملونة، كنت أتعجب من احتفاظها بهذه الملابس، لكننى اخترت بعضا منها وجدته جميلا، خاصة البنطلون الدنجريه الصغير، والقميص الأبيض الذي كان يمتلئ بورود ملونة، كنت أشبه عمي حامد حين ارتديتهما، وأحضرت لي أيضا هذا الحذاء ذا النعل الكريب، ثم أخذتنى إلى الحمام، وهناك خلعت عني كل ملابسى ووضعتني تحت الدش، ثم دعكت جسدى كله بالماء والصابون، وبعد ذلك جففتنى، وأخذت في وضع الملابس على جسدى النحيل، ثم وضعت أمامى كمية كبيرة من الطعام فالتهمتها جميعا. كانت تضحك وهى تضع الطعام في فمي وتحدثنى وأنا لاأكاد أفقه شيئا من حديثها، كانت تتكلم إلى كثيرا وتردد بعض الكلمات كأنها تؤكد على أننى أفهم حديثها، لولا أننى لاحظت تلك الكلمة التى كان يرددها أيضا يانى، كلمة غريبة "فيفيا" كان يرد بها دائما على أم هدى إذا أراد إنهاء الحديث وكنت أستطيع أن أرى أمارات الاستسلام على وجهه الأحمر، وكان يصرخ أحيانا " فيفيا.. فيفيا..فيفيا"، كانت تلك الكلمة تعني الانصياع والقبول والتأكيد على تنفيذ الأمر، فأخذت أردد لها "فيفيا" وهى تضحك وترددها معي، كان صوتنا يعلو ويهبط ويتداخل وينفصل ويتهادى ويتسارع ونحن نتضاحك هي وأنا، تجرى خلفي تحاول دغدغتى، هناك في الشرفة في

* شارع الثلاثيني في بورسعيد سمي كذلك لأن عرضه ثلاثون مترا فاشتق من هذا الرقم اسمه.

منتصف الليل وكان صوت البواخر العابرة للقناة يأتينا عاليا أحيانا مختلطـا بكلمـة "فيفيـا" اليونانية من فمى وفمها.

أخذت تحاول تعليمي بعض الكلمات اليونانية، كانت تحاول التحدث بالعربية، وكنـت أضحك لأننى لم أكن أفهم ماذا تقول، قالت:

- باراكالو[٢].. باراكالو.. باراكالو..

كنت أردد خلفها دون أن أدرى حقيقة ماذا تريد ، ثم قالت:

- مين فادلاك.. باراكالو.. مين فادلاك.. باراكالو

وأدركت أنني حمار فلم أفهم ماذا تريد.. لم أفهم باراكالو .. ولم أفهم مين فادلاك وكنت أظنها كلمة يونانية حتى عهد قريب، إلى أن أدركت أنها تعنى "من فضلك".. وربما ظنت أنني أكثر ذكاءا مما أبدو عليه على صغر سنى فدفعت إلى بكلمة أخرى:

- إفخاريستو[٣]..

فرحت أتطلع إليها غير مدرك تماما لما تريد أن تخبرني به :

- إفخاريستو بولى .. شوخران.. إفخاريستو بولى.. شوخران..

كنت أضحك وأركض أمامها وتوقفت هي عن محاولة تعليمى، وسألتني أخيرا وهي تضع كفيها تحت رأسها كمن يحاول النوم:

- أتيموس .. كيمامه..

- كيمامه..

نطقتها بهدوء خلفها، كنت قد تعبت من الركض أنا وهي في الغرفة العلوية، كانت تحـضنني وتقبلني تلك القبلات السريعة على خدى كلما نجحت في محاكاتها أو أضحكتها، كنت أشـعر بهذا الحنان الخفي الذي يمكنني التقاطه في أى مخلوق، وكنت ناسيا تماما لكل ماتركته خلفـي وأنا واقف أبكي بجوار منزلهما الأبيض، رفعت غطاء السرير وأدخلتني تحته وخلعت ملابسها ودخلت معي، وتطلعت لي وهى تقبلني وقالت:

- كاليسبيرا بيذي مو[٤] .. كاليسبيرا يا ساغيري..

---

[2] تعنى لو سمحت أو من فضلك Parakalõ

[3] بمعنى أشكرك جدا أو شكرا Evkharistõ Poly، وينطق حرف الفاء كأنه V في الإنجليزية

ولم أفهم ماتريد قوله، فأخذت تردد أمامي :

– كاليسبيرا.. كاليسبيييييييرا..

فقلت لها أخيرا

– كاليسبيييييييرا..

كانت الشرفة مفتوحة وكان هواء البحر المتوسط يضرب وجهينا وكنت قد بدأت أغفو في أحضان كريستينا الراهبة اليونانية على شاطئ قناة السويس هناك في هذا العالم العجيب ناسيا كل شئ حتى جدتي لم أتذكرها، كيف تم ذلك لا أدري، حتى أنني لم أفكر في الطريقة التي سأعود بها إلى أهلي وهل بحثوا عني أم لا؟ وكيف قضوا ليلتهم بدوني؟ ومتى اكتشفوا اختفائي؟ وماذا فعلوا بعدها؟ أسئلة كثيرة لم أهتم بالإجابة عليها، كيف كنت أهتم وأنا أشعر بأنني انتقلت لعالم آخر وزمن آخر لم يكن في حسبان عقلي الصغير!.

(٦٥)

قبل حادث البحر وقبل أن أخلع ملابسي تماما مع لبنى هناك بعيدا خلف تلك التلال الرملية التي تقع أيضا خلف مطار الجميل، كان ذلك مطلع العام الذي ذهبت فيه للمرة الأولى إلى المدرسة الابتدائية، كانت بعيدة عن عمارتنا في المساكن الشعبية، بالقرب من الجبانات حيث كان يدفن موتى المدينة، كنت أخاف الذهاب هناك حتى لاتخرج لي العفاريت والأعوان كما كانت جدتي تقول لي، ومع ذلك ذهبنا إلى هناك أنا وسيد الفحام واللالي وأخوه الأصغر رضا وكذلك الولد ميمي الذى يلعب الجمباز في المدرسة والولد سامبو ابن عم سيد الفحام بعد أن خرجنا من المدرسة، كيف أقنعنا سيد بالذهاب إلى هناك، كانت دعوة لاكتشاف العالم المحيط ببورسعيد والذي لم نخترقه من قبل، وكانت تجربة للتخلص من الخوف، لقد اتهمني بالخوف من العفاريت، وكان علي في تلك اللحظة أن أثبت له أنني لاأخاف من العفاريت، ولا أخاف من أي شئ، ولاأخافه هو حتى، فعلى الرغم من شجاراتنا التي نادرا ماخرجت منها منتصرا، لم يكن من السهل أن أنسحب، كنت أتطلع في عيونهم الصغيرة كنت أرى علامات التحدي لقدراتي، كم حدثتهم عن قدرتي على التعامل مع الجان وبأنني أحمل هذا المس، كانوا

---

[4] كاليسبيرا kalesera وهي كلمة مركبة من kale بمعنى طيب / خير، وكلمة speraبمعنى مساء / الليل، وبيذى مو paidi mou بمعنى ياصغيري

يضحكون قائلين بأننى "نتاش"*، كان على في تلك اللحظة أن أثبت لهم أنني لست نتاشا وأنني لم أختلق تلك الأفكار وأن جدتي على الأقل وحدها تعلم علم اليقين بأنني لست "نتاشا".

سرنا معا ككومة من التراب تنفجر بفعل الريح، ركضنا إلى هناك حيث الجبانات، وعلى مدخلها وقفنا جميعا، وفجأة دفعوني للأمام، أتطلع حولي فلاأرى أحدا فيما هم يقفون في الخلف تماما لايتحركون، وكانت أمارات التحدي تشتعل في عيونهم، أصبحت أمامهم بحوالي عشر خطوات ثم عشرين فأكثر، دخلت بين أول جبانتين وكنت أرتجف وأتردد بينما كنت أتلفت ناحيتهم لأرى ضحكاتهم المكتومة قبل أن تنفجر، قطعت أربع خطوات أخرى إلى الداخل، وفجأة التفت خلفي فلم أجدهم كانت صيحاتهم وهم يركضون عائدين من حيث أتينا، فعلوها أولاد الكلاب وتركوني هناك وحدي أمام جيوش الجان والعفاريت والأشباح والأعوان والأرواح، تلفت حولي كان كل شئ أسود غطيس، كأن الدنيا أظلمت فجأة في عيني، فركضت إلى الخلف فأخذت أصطدم بالحائط وأسقط، كان الرعب قد سيطر على تماما وفجأة سمعت صوتا آتيا من الخلف فكدت أسقط مغشيا علي.

(٦٦)

حين ظهر سيد الفحام واللالي، كنت في الماء أقف بلا حراك وأنا أتطلع إليهم بينما غطست لبنى وتحركت حتى وقفت خلفي تماما تتطلع من وراء ظهري إلى أخيها الذي كان الشرر يتقد من عينيه، بينما وقف اللالي يضحك وهو يشير نحونا، وكان يأتيني سباب سيد مشوشا، وكنت أعلم أنني مقبل على شكلة كبيرة لاأعلم كيف سأخرج منها، وكنت أفكر بأنني عار الآن تماما وأن ملابسي هناك بين يديه، كنت واقفا في الماء أحرك قدمي تلك الحركات الخفيفة، وكانت لبنى خلفي تماما والشمس خلفنا، كنت أتمتم محاولا استدعاء أبوللو لإنقاذي في تلك اللحظة من بين يديهما، وكنت أفكر أيضا فيما ستفعله لبنى، ندهت في سري على جنياتي أن يأتين ويحملنني أنا ولبنى عاريين فوق بساط الريح إلى أي مكان آخر لايوجد فيه سيد الفحام، لكنها بدأت تشتم أخاها من خلف ظهرى، الذى أخذ يلم بعض الأحجار من الرمال ويلقيها علينا، كنت أظن أن بعضها يسقط على وجه الشمس وبعضها يسقط على وجه الماء، كنت حذرا من أن يسقط شئ منها علينا فكنت أغوص أنا وهي أحيانا، وكنت أسبح بهدوء إلى الناحية الصخرية خارجا من الماء حين صرخ عليه اللالي بأننا سنهرب منهما، فركضا نحونا

* نتاش : كذاب

ملتفين من الناحية الأخرى فانطلقت سابحا تحت الماء عائدا بسرعة وكنت أعلم بأنهما سيكونا بطيئين في الحركة على الرمال، فأخذت غطسا سريع لأظهر بعد عدة أمتار قريبا من الشاطئ الرملي وفي قفزتين كنت أمام ملابسى فحملت ملابسي بين يدى وركضت بكل مافي من قـوة عاريا تاركا خلفي حقيبتي التي لم أعبأ بها في تلك اللحظة، لكني عـدت وتناولتهـا، كيـف لأدري، اجتزت الكثبان الرملية وكان بيننا حوالى الخمسة أمتار وكنت أعلـم بـأنني أخـف وأسرع منهما بكثير، لكن الحقيبة الثقيلة التي كنت أحملها كانت تعوق حركتى فألقيـت بهـا خلفي، وأكملت ركضي عاريا على الأسفلت أمامهما فسبقتهما بخطوات كثيـرة فتوقفـا فجـأة فتوقفت أنا الآخر وأخذت أحاول أن أرتدي لباسى الداخلى وحـين قمـت بمحاولـة ارتدائـه وجدتهما يركضان نحوى فأكملت ارتدائه سريعا وعدت للركض، كنت في الأمام واللالي خلفي يحاول أن يلحق بي، وسيد خلفه، ركضت بكل مافي من قوة حتى سبقتهما بخطوات كثيـرة، كان الأسفلت لامعا والشمس تعكس سرابا أمامي بعيدا، أمسك بملابسى وتوقفنا جميعـا مـرة أخرى حين أتاني صوته عاليا:

- هاتروح مني فين ياله.. شنطتك معايا ياروح امك.. هاأديها لأبوك..

وهنا أدركت ماوقعت فيه فتوقفت تماما وأخذت أرتـدي ملابـسى، البنطلـون والفالنـه* والحذاء، سرت قليلا حتى اختفيا حين توقفت فجأة وقررت العودة إليهما للحصول علـى حقيبة المدرسة بأي ثمن، كنت أعلم بأن الأمر سيتفاقم كثيرا، وكنت مدركا تمامـا بـأنني سأحصل على بعض اللكمات وربما السجحات، وبأن كرامتي سوف تمتهن، لكن ضـياع الحقيبة أو تسليمها لأبي سيكون معناه علقة أكبر بكثير مما قد أناله، وهنا توقفت أتطلع إلى الشمس مخاطبا أبوللو في السماء:

- يعني انت مش عاوز تساعدني أبدا.. هو أني كل مرة أطلبك فيها مش هاألاقيك.. والله هاأخاصمك وما هاأعرفك بعد كده.. يرضيك يعني إن يحصللى كل ده وانت بتتفـرج كده.. أني قلتلك أهو لو ماساعدتنيش مش هاأعرفك وهاأخاصـمك ومـش هاأكلمـك تاني..

كنت أغلي من الداخل، وكنت أعلم بأنه إن لم يفعل شيئا فإن في ذلك قطيعة بيننا إلى الأبد، وسأهجر كل خيالاتي وأفكارى عنه سأمحوها بأستيكة، فالإله لابد أن يقف بجانـب مـن يحبونه، وإلا لم يعد إلها في نظرهم هكذا كنت أفكر، لقد فعل أبوللو الكثيـر مـن أجـل الجريح، وأيقنت بأنه ربما لأنني مصرى فهو لايحاول مساعدتي ولكن فكرتي عن الآلهـة

* الفالنة: أصلها الفانلة، وهي اللباس الداخلي العلوى ولكن في اللهجة البورسعيدية يتم قلب حروفها استسهالا.

أنهم لايفرقون بين الأجناس، وهكذا كنت مطمئنا تماما وأنا عائد بإرادتي الكاملة إلى سيد الفحام، وكنت مطمئنا بأن (اللاللي) لن يتدخل، وكنت أفكر أيضا فيما فعلاه بلبنى، كنت أخطو في ثقة فجائية لاأدري من أين واتتني!.

(٦٧)

الهزيمة، كنت أشعر بالهزيمة الكاملة حين تملكني هذا الخوف القاتل أثناء وقوفي في الجبانات، حين حاولت الخروج فوجدت الجدران في كل الطرق تسدها، حين وقعت تلك اليد على كتفي فانتفضت راكضا:

- انت ياوله .. تعالى هنا.. أنا عمك العربي..

توقفت عن ركضي، وأخذت أنظر خلفي في تردد، أحاول التدقيق في ملامحه قد يكون جنيا أو عفريتا متخفيا، كان يضحك وهو يراني أتراجع للخلف في خوف، أخذ يناديني:

- تعالي ياله ماتخافش..

كان يمسك عجلته الممتلئة بالورد والفل والياسمين، سألته وأنا مازلت أقف بعيدا:

- طب اديني أمارة إنك عم العربي مش عفريت..

أخذ يضحك عاليا وقد توقف تماما:

- ماتخافش أنا عمك العربي اللي ساكن تحتكم في العمارة.
- وإيه كمان؟
- مش انت أبوك بيشتغل في مصنع الغزل والنسيج؟
- تعرف جدي؟
- أعرف جدك بياع الخضار؟
- لأ مابيبيعش خضار؟
- طب ياسيدي .. أكبر صياد سمك في بورسعيد..

هدأت تماما في تلك اللحظة فأقبلت ناحيته، فربت على رأسى وسألني:

- بتعمل إيه هنا؟

حكيت له الحكاية أثناء خروجنا من الجبانات إلى الطريق الأسفلتي، ركب بسكليتته، وركبت على المقعد الخلفي لها، وأثناء مشينا مررنا بسيد وميمى وسامبو واللالي، فشتمتهم:

- ياولاد الوسخة..

ضحك العربي، وكانوا هم يسيرون على الطريق الأسفلتي يضحكون، فتوقف ضحكهم وأخذوا يركضون وراءنا، فتوقف العربي بعجلته ناظرا إليهم بعنف، فتوقفوا جميعا وركضوا عائدين من حيث أتوا، وعاد العربي يقود البسكليته وكان يدندن بلحن ما وكنت أشعر بأن البسكليته تسابق الريح، وربما لو زاد السرعة قليلا لصعدنا إلى فوق إلى أعالي السماء، وكنت أبتسم سعيدا بأنني انتصرت على هؤلاء الأوغاد.

(٦٨)

في المنزل علمت بأنه علي أن أسافر للقاء جدي لأبي وللمكوث معه عدة أسابيع في الإجازة الصيفية في العام الذي سبق الحرب، كنت مندهشا تماما من هذا السفر المفاجئ وأسبابه، وكنت سعيدا لقيامي بالسفر للمرة الأولى في حياتي وحيدا، وكنت غير سعيد لأنني سأبتعد عن مدينتي وعن ستي وأمي وخالاتي وهدى وكريستينا، وشعرت بأن هناك في الأمر شيئا غريبا، لم يوافق أبي من قبل على سفري، وكان يرفض سفري وحيدا لجدى عشرات المرات، فلماذا وافق الآن؟ أما ستي فأصرت على أن أنام في أحضانها تلك الليلة، وبكت كثيرا، فيما أقبلت أمي بعد منتصف الليل لتخرجني من أحضانها فأرتدي ملابسي وتقبلني خالاتي، وأخرج مع أبي بحقيبة ملابس وبعض المأكولات، فأركب خلفه أيضا على البسكليته إلى محطة الرسوة، حيث وقفنا ننتظر على الرصيف قدوم أحدهم ليصطحبني إلى هناك في أبو زعبل في القطار.

(٦٩)

لم تكن علاقتي بآلهة الآوليمب قد تشكلت كلها بعد فلم أكن أعرف إلا أبوللو من أفكار سابقة وقراءات وحكايات مدرس التاريخ الأستاذ عوض الحارتي، وكانوا يتهمونه أحيانا بالجنون، لكننى لم أكن أعبأ بما يقولون؛ ألا يقال عني أيضا بأن بي مسا من الجنون!، أو مس من الجان!، كنت أراه عاقلا للغاية، كان يتحدث إلينا في هدوء وحب ومودة، لم يرفع عصاته في وجه أحد منا يوما، ولم أره يضرب أحد فينا يوما، كان يحرك عصاته في الهواء من بعيد وكنا نضحك، سألته ذات يوم:

- ياأستاذ عوض..
- أيوه يابني
- هو مش أبوللو يبقى إله..
- أيوه
- وزيوس يبقى أبوه..
- تمام..
- يعني احنا ولاد أبوللو..

ضحك في وجهى، ثم توقف قليلا يفكر فيما أقول، وعاد يبتسم ويتطلع لي في إعجاب بما توصلت إليه، وقال.

- مضبوط..
- يعنى ممكن يبق اسمى على اسمه مثلا ابن أبوللو زيوس..

انطلق ضاحكا، وردد شيئا ما بينه وبين نفسه، ثم قال:

- كلامك منطقي ومعقول..

ركضت من أمامه دون أن أنتظر إجابة أخرى، وكنت قد أقسمت بيني وبين نفسي بأنني يوما ما سوف أصير ابنا لأبوللو، وأنني حين أكبر يمكنني أن أغير اسمي، صحيح أنني رأيت الأستاذ عوض أحيانا يكلم نفسه، لكننى أيضا لقيت ستى وهي تكلم نفسها، فلماذا لم يتهمها أحد بالجنون هي الأخرى، وكم وجدت أناسا يكلمون أنفسهم في الشوارع، حتى أنا أيضا أحيانا كنت أمشى أكلم نفسي، في الحقيقة لم أكن أكلم نفسي تماما وإنما كنت أكلم جنياتي الصغيرات، كنت أتحدث إليهن وكنت أطلب مساعدتهن في حل واجب الحساب الذي لم أكن أفقه فيه شيئا، كنت أري أستاذ الحساب كالمطرقة لايحمل في يديه سوى عصا كبيرة يهزها

بعنف فوق رؤوسنا، وأحيانا ماكان يصيبه الجنون حين يدرك مدى بلادتنا في الحساب وعدم قدرتنا على التفرقة بين الصفر والواحد، فكان يدور بالضرب في كل الفصل، وكان يردد أن العلماء بيننا فقط هم الذين يستطيعون الحساب والجمع والطرح والقسمة أما البقية فسيعيشون تنابلة، لافائدة ترجى منهم، وأننا إذا نجح واحد منا في أن يكون عالما فإننا يجب أن نأتي إلى قبره و"نطرطر"* عليه حين يموت، لاأدرى لماذا وقفت أمامه فجأة وقلت له بـــأنني ســـوف "أطرطر" على قبره، وهكذا حصلت على علقة لم يأخذها حمار في مطلع فـــي ذلـــك اليـــوم البغيض وسكت عن الكلام معه بعد ذلك نهائيا فطردني عدة حصص ثم عفا عني فجأة ولـــم أدر أبدا السبب، الحقيقة أن هذا كان رأي جميع أساتذة الحساب من بداية أول مـــدرس فـــي التاريخ الإنساني حتى آخر مدرس فيهم في نهاية التاريخ، لكنني كنت أفـــسر الأمـــر بـــأنهم فاشلون لأنهم لم يستطيعوا أن يحببونا في الحساب، لماذا نحب مدرسي اللغة العربية والتاريخ والرسم والموسيقى ونكره مدرسي الحساب بالذات، لأنهم كلهم كانوا كتلك المطرقة فـــي يـــد أستاذنا.

(٧٠)

الشخصية الثانية في علاقتي بآلهة الأوليمب كانت هرقل، أما زيوس كبير الآلهة فلـــم أكن أعلم عنه الكثير ولم أحاول، تركت ذلك لزمن قادم أستطيع فيه أن أقـــرأ عنـــه، توقفـــت معرفتي عنه كلها حول أنه كان أبا أبوللو، وأنه كان يعشق النساء، وكانت مغامراتـــه كثيـــرة معهن، فقد قال لنا مدرس التاريخ الأستاذ عوض أنه كان "بتاع نسوان"، وربما هذا هو السبب في عدم احترامي له من ناحية، لكن من ناحية أخرى كنت متيقنا من أنه كبير آلهة الأوليمب، أما هرقل فقد رأيت أفلامه في سينما الأهلي، لكن العبارة التي سمعتها من الأســـتاذ عـــوض لصقت في نافوخي ولم تغادره حين تحدث عن وقوعه في أزمـــة الاختيـــار بـــين الفـــضيلة والرذيلة، ولم أستطع أن أفسر في ذلك الوقت هاتين الكلمتين، وإن كان الأستاذ عوض قد قال بأنه تعرض لمحنة أن يختار بين أن يكون الشر في الأرض أو الخير، وأخيرا اختار الخيـــر بعد أن كاد الشر يسيطر عليه.

لم يكن سؤال الفرق بين الخير والشر قد أخذ طريقه إلى عقلي حتى تلـــك اللحظـــة، وإن لـــم يتركني بعد ذلك أبدا، وكان تعريف الشر على وجه التحديد هو السؤال الأهم، فأخـــذت أفكـــر كثيرا، ولم أهتد إلى إجابة، لم أحاول أن أتعب نفسي كثيرا في الفرق، أو ما إذا كـــان الـــذي

* نطرطر : نتبول ولا أدري إن كان لها علاقة باللهجة البورسعيدية أم لا إذ أجدها شائعة حتى في القاهرة.

يحدث لنا خيرا أو شرا، لقد كنت أضحك لأنني لم أجد فروقا كبيرة، كنت أرى في ذلك الوقت بأن هرقل تم اللعب في دماغه، وأن زيوس السبب، وكنت أرى أن زيوس غاوي لعب، سواء مع النساء أو مع الأفكار، وبالتالي فما طرحه كان في مخيلتنا فقط، وعلينا نحن فقط أن نختار الأفضل للجميع، هل كنت حقا أدرك ذلك وأنا في هذه اللحظات النادرة التي كنت فيها قادرا على التفكير؟ لاأستطيع الإدعاء بذلك، لكني اهتديت بشكل ما أن ماكان مطروحا على هرقل مسألة غريبة لم يكن يجب أن تطرح، كنت قد تعلمت أن الفضيلة والرذيلة كالنور والظلام، إما أن نعيش في النور وإما نعيش في الظلام، ولكن النور والظلام متتابعان، نراهما كل يوم، وعلى ذلك فالحياة هكذا تمتلئ بهذا وتمتلئ بذاك، كانت جدتي تحدثني عن الفضيلة وتشبهها بالجنة، والرذيلة تشبهها بالنار، وكانت تقول بأنه عليك أن تختار، إنه نفس موقف هرقل، كلنا نتعرض لنفس الموقف بشكل أو بآخر، ولكنه كان أولنا، فلماذا وجدت الرذيلة إذا على الأرض إذا كان قد اختار الفضيلة.. كان الأمر أكبر من قدراتي فكنت أقف عند تلك الأسئلة متحيرا لكني كنت أرى الفضيلة في لمسات هدى وكلمات (ياني) وطبطات أم هدى واللحظات التي يفيق فيها عمي خضير، واللحظات التي مرت بنا على العربة النقل، وكان الشر المطلق في جثث الجنود التي ملأت ترعة الاسماعيلية وفي تلك العربات المحترقة، وفي ركوبي في تلك العربة الآن، كنت أشعر بأن هناك شرا مستطيرا سيحدث!.

كنت أعتقد أيضا بأننا جميعا نقع في لحظة الاختيار هذه الآن، هل اخترنا أن نحارب؟ ولماذا تشتتنا جميعاظ هل نجلس في بورسعيد أم نرحل عنها؟ هل ماتت أمي فعلا أم أن عمي خضير يلعب في دماغي؟ هل سجن أبي كان اختيارا للفضيلة أم اختيارا للرذيلة؟ هل اختيار عمي خضير لمنقوع الصرم اختيار للخير أم للشر، للفضيلة أم للرذيلة؟ هل ذهاب عمي حامد الفاروقي للحرب مع اسرائيل بعد أن كان يحارب في اليمن خير أم شر، هل اختفاؤه فضيلة أم رذيلة، هل اختيار أي أحد منا في حياته لأي موقف، هل هو اختيار للفضيلة أم للرذيلة في ظل عدم معرفتنا بالمستقبل، هاهو أبي اختار مايظنه فضيلة، وهاهو الأمر قد انقلب علينا جميعا رذيلة وشرا، ماهي تلك اللحظة على وجه التحديد التي يمكن أن نختار فيها اختيارا صحيحا؟ عبد الناصر نفسه قد يكون اختار الحرب من وجهة نظره بأنها فضيلة وهاهو الأمر ينقلب علينا جميعا رذيلة لاتنتهي؟ كيف كان له أن يعلم؟ وكيف كان لعمي خضير أن يعلم وكيف كان لأبي أن يعلم؟ وكيف كان لي أن أعلم أنني حين ركضت خلف البراشوت الهابط من السماء أنني أركض وراء الرذيلة، وهاهي نتيجة اختياري الآن هو ما أنا فيه؟ كيف كنت معميا إلى هذه الدرجة بأن اختياري في لحظة معينة وزمان معين وإحساس معين لا يجب أن يخدعني؟ على أن أفكر جيدا، لكن من يستطع أن يفكر جيدا، حتى عبد الناصر أخطأ وحتى أبي أخطأ

وحتى عمي خضير أخطأ وحتى أنا أخطأت، كنا جميعا مخطئين في خياراتنا على الرغم من كل ماحولنا من مظاهر وأدلة تمنعنا من ارتكاب هذا الاختيار الخاطئ، كانت أقدارنا تدفعنا إلى هذا الخطأ.. أم أننا جميعا يجب أن نخطئ، في الوقت الذي لايجب فيه على الآلهة أن تخطئ، فهاهو هرقل لايخطئ الاختيار في اللحظة الأخيرة، ولكن من الذي يحكم على هرقل، آلهة مثله، أما نحن فمن يحكم علينا ليس مثلنا، وإنما هم نفس الالهة الذين يختفون هناك في أعالي جبال الأوليمب!.

(٧١)

لم يخطر ببالي حين ركضت هاربا من عمى خضير أنني يمكن أن أقع في هذه المشكلة، كنت راكبا في تلك اللحظة في عمق السيارة العسكرية، كأنني كنت أنظر من خارج السيارة إلى أبي، كانت ملامحي غارقة أيضا في الظلام مثله تماما، كأنني أفعل نفس أفعاله وأتخذ نفس صوره، كنت صغيرا للغاية كي أدرك كنه مايحدث وأسبابه، سواء مع الآخرين أو مع أنفسنا، ولم تكن هناك أي إضاءات سوى سيجارة الجندي الذي يجلس بجواري أما الجندي الآخر فهو نائم في نهاية العربة، حين يحاول سحب نفس منها فتشتعل أكثر، فكانت تظهر تفاصيل السيارة الداخلية للحظات ثم تختفي، ولم يكن بداخلها مايسترعي الاهتمام، حتى وجه الجندي الجالس بجواري كنت أشعر بأنني رأيته من قبل في مكان ما، وكنت قد رفعت رأسي من بين يدي وأخذت في التلفت حولي علني أعلم أين أنا، لكن كان كل شئ غارقا في ظلام أشبه بمدينتي التي تضئ للحظة ثم تختفي طويلا حتى شمس أبوللو لم تكن تظهرها، أو أنني كنت غائبا عنها لاأتطلع إلى ملامحها في ذلك الوقت، لم أكن أعرف بالضبط ماهى مشاعري الحقيقية، كان الألم يشدني إلى جهة وكانت ذكريات جدتي تشدني من جهة أخرى، وكانت ملاطفات أمي التي لم أعد أعلم عنها شيئا تشدني من جهة أخرى وكان أبي وحامد الفاروقي وجدي من جهة أخرى، كانت تختلط في ذهني الأشياء والحوادث فلم أعرف هل أنا أعيش تلك الحوادث أم أتخيلها؟ كيف دخلت في قلب تلك السيارة فجأة؟ ولماذا كان صوت لهاثي عاليا ضخما هو وصوت حذاء الضابط على أرضية شارع الحميدي؟ ولماذا تركت فجأة عمي خضير هناك على درج العمارة في منطقتنا الشعبية؟ ولماذا كنت أركض؟ وعن ماذا كنت أبحث بالتحديد؟ كأنني فقدت ذاكرتي فجأة أيضا.

بدأت أحدق في الظلام محاولا استيعاب الموقف وعما سأقوله للضابط حين أهبط من الـسيارة التي كنت لاأعلم إلى أين تتجه، أو ماهي وجهتها الحقيقية، ولماذا أنا هنا الآن؟! كانت تـسير غارقة في الظلام في شوارع المدينة الميتة، لاأسمع سوى صوت عجلاتها، وبعض الأضـواء الضعيفة المتفرقة التي تظهر كبقع ضوئية في ظلام الجسد المترنح، وكنت أتخيل تلك الأماكن في لحظة ما من زمن سابق تمتلئ بالأنوار، عرجت السيارة عابرة إلى شارع التلاتيني وكانت بورصة السعيدية مغلقة، واتجهت من هناك إلى شاطئ البحر حيث كان استاد بورسعيد، ثـم دارت من شارع جانبي في نهاية الاستاد، سارت ببطء ثم توقفت هناك قريبا من الرمال حيث رأيت أمواج البحر القريبة منا للغاية. هبطت من السيارة أنا والجندى فـي انتظـار هبـوط الضابط الذي استغرق وقتا طويلا حتى هبط منها وسرنا خلفه في الظلام حتى تلك الخيمة التى كان ينطلق منها ضوء ضعيف لايكاد يرى.

(٧٢)

كان موج البحر ساكنا تماما لاحس ولاصوت له، كأنه مات هو الآخر، أين ذهب هدير الأمواج، وأين ذهبت أصوات انفجار فقاقيع الماء التي كنت أميزهـا بـسهولة وسـط آلاف الأصوات الأخرى التي كانت تتناثر على الشاطئ خاصة في الصيف أو آلاف من أصـوات الطيور التي كانت تجتاحه في الشتاء لتأكل الأسماك الميتة ولتتشاجر مع بعضها البعض، حتى إننى كنت أتخيل أنني أستطيع تمييز صوت حركة أقدام الحناجل وهي تركض فوق الرمـال الذهبية رافعة كلاباتها الضخمة أمامها في أوقات الفجر تحسبا لأى عدو قد يفاجئهـا لتحفـر لنفسها حفرا تختبئ فيها، كان كل شئ غائما ومائعا ومستباحا، كان كل شئ بلا صوت.

(٧٣)

في أحضان كريستينا كنت أتقلب، وكانت الشمس قد غطتنا ونحن نائمان سويا علـى سريرها الأصفر اللون وكانت السماء الزرقاء تبدو على البعد وقد امـتلأت بتلـك الطيـور البيضاء، وكانت كريستينا ترتدي قميصا خفيفا للغاية فكنت أشعر بثدييها تلامسان وجهى وكانا

مختلفين تماما عن تلك الأثداء التي شاهدتها من قبل، كانا صغيرين بارزين بروزا خفيفا كانـــا قريبا الشبه بصدر لبنى لكن كان فيهما شيئا ما غريبا لم أستطع إدراكه، فتحت عينـــي لأجـــد عينيها الزرقاوين الواسعتين فكأنني أنظر إلى سحابة زرقاء في السماء، تبتسما لـــي، وكانـــت تردد وهي تمرر بيدها على شعري الأسود.

– كاليميرا[5].. كالميييييييييييرا..

– كالميييييييرا..

كانت نوعا مختلفا من البشر لم أتحقق منه بعد، بيضاء تماما ولها عينان ذوات ألوان غريبـــة كنت أظنهما زرقاوين وأحيانا أجدهما خضراوين، وأحيانا رماديتين وأحيانا شـــفافتين تمامـــا تترقرق فيهما كل الألوان، لم تكن طويلة، ولم تكن قصيرة، فكيف رأيتها قصيرة فـــي المـــرة الأولى حين تقابلنا، كانت تتكلم في سرعة عجيبة أحيانا فلاأستطيع أن أفهم كلماتها، التي لـــم أكن أفهمها أصلا، نهضنا سويا وأخذنا نقفز على السرير، يحاول كل منا أن يقفز أعلـــى مـــن الآخر، ثم دخلنا إلى الحمام حيث غسلت لي وجهي وألبستني تلك الملابس الجميلة، كنت أشعر بأنني أشبه ديكا ملونا، فلم يحدث أن ارتديت مثل هذه الملابس الملونة من قبل، وكنت أتخيـــل بأن أهلي لن يعرفونني بها، أتانا ذلك الخبط على باب غرفة كريستينا فتوقف كل شئ، فتحت الباب لتجد أمامها الراهبة العجوز الأخرى، تكلما سويا، وكانت الراهبة العجوز تتحدث إلـــى كريستينا بصوت عال وكنت أشعر بأنها تتشاجر معها، وكانت بعد كل جملة تشير إلى ففهمت أن الأمر يتعلق بي، ربما كانت تسألها لماذا أنا هنا حتى الآن، فاختبأت خلف السرير، وأخيرا انتهت الأصوات، إذن فقد عادت من حيث أتت، أخذت كريستينا تتقدم مني وهي تبتسم وكانت عيناها ممتلئتين بتلك الدموع، ارتدت كريستينا ملابسها البيضاء ووضعت الـــصليب، وكنـــت مازلت أرى في عينيها تلك الدموع الخفية، خرجنا سويا بعد الإفطار إلى الشارع ومنـــه إلـــى قسم الشرطة، وقبل أن ندخل الكراكون اشترت لي تلك الطائرة الورقية الملونة، كنت أســـير معها ونحن ندفع الطائرة الورقية إلى السماء، وهناك في الكراكون جلست على ذلـــك المقعـــد الطويل، فيما أخذت هي تتحدث مع الضابط، ثم عادت لتجلس بجواري، كانت تتحدث إلى وأنا أكاد لاأفهم شيئا، لكنني أحببتها، هذا هو إحساسي الوحيد ناحيتها، بعد ساعات كانت كل أسرتي في الكراكون، كانت جدتي قد أمسكت بيدي بينما أخذت أمي في البكاء، وخرجنا سويا، ذهبت كريستينا معنا حتى العمارة، وصعدت معنا، فهمت أنها كانت تريد معرفة عنواننا، حتى يمكنها أن تأتي لي بملابس جديدة دائما لأختي ولي، وكانت أيضا تأتي في بعض إجازاتها لـــتجلس

---

[5] كليميرا بمعنى صباح الخير

معنا يوما بطوله، وكانت تفضل أن تصطحبني بتلك الطائرة الورقية إلى شاطئ البحر لنقضي ساعات هناك أنا وهي نلاحق الطائرة وأمواج البحر، أخذت تتحدث مع خالتي أم هاشم التي فوجئت بها تتحدث اليونانية أو تحاول أن تتحدثها وكانتا قد أصبحتا أصدقاء وكنت سعيدا للغاية بأنني السبب، اتفقتا على اللقاء بشكل دائم تقريبا على أن تصطحبني خالتي أم هاشم معها في كل مرة تذهب للقائها سواء في بورسعيد أو بورفؤاد، حتى كان ذلك اليوم الذي تشاجرا فيه مع خالي مسعد على الشاطئ أثناء سيرنا أنا وهي وخالتي في ذلك الشتاء البعيد.

(٧٤)

كنت عائدا من نفس الطريق مستعدا لمواجهة الولد سيد الفحام، الغريب أنني كنت متيقنا تماما من أن أبوللو لن يتركني وحيدا في تلك "الشكلة"، كنت قد استجمعت قبضتي في جانب، وفي الجانب الآخر كنت قد أمسكت حجرا، أخذت أتحمس للمعركة فبدأت أركض وفي لفة الشارع خلف تلة الرمال وجدتهم سائرين كان سيد الفحام ماشيا يعرج، بينما أمسك برأسه التي كانت "تشلب"* الدم منها بغزارة، وكان وجهه ممتلئا بالرمال وكان يبكي بصوت عال، وكان (اللالي) سائرا بجانبه يحاول أن يرى الجرح، وكنت أرى خلفهما لبنى وقد ارتدت ملابسها بينما تحمل حقيبتها وحقيبتي في يديها. توقفا أمامي، وفجأة صرخ سيد في وجهي، فانتحيت جانبا فتطلع لى (اللالي) أيضا بلا مبالاة، كأنني غير موجود على الإطلاق، وتوقفت لبنى أمامي ومدت يدها لي بحقيبتي فألقيت الحجر من يدي سريعا وتناولتها منها وسرت بجانبها، فيما كان يصلنا صوت بكاء سيد. حاولت أن أفهم منها ماحدث، فقالت بأنها حين خرجت من البحر عارية حاول الإمساك بها سقط على الأرض واصطدمت رأسه بحجر، أو أن هناك حجرا ربما وقع من السماء فوق رأسه، لاتدري كيف حدث الأمر فجأة، ولما حاول أن يضربها حين نهض سقط على الأرض مرة أخرى بعد اصطدامه بأحد الأحجار الكبيرة فأصاب ركبته. ارتدت ملابسها دون تردد وحملت حقيبتينا معا، لاأدري لماذا كنت أشعر بسعادة غامرة، تأخرت قليلا وأنا أتمتم بالشكر لأبوللو، أتطلع للسماء باحثا عنه لكنني لاأراه، كنت أعلم أنه لن يتخلى عني، وبدأت أتحدث إليه.

---

*تشلب الدم: مجروحة تنزل منها الدماء

- مش عارف أقولك إيه، أني فعلا بأحبك قوى ونفسى أبقى زيك، أو أطير معاك أو حتى تدينى جناحين، المهم خلليني أشوفك، وبلاش نجيب سيرة زيوس علشان انت عارف إني ماباحبوش، وعايزك تيجي المدرسة، ياريت العيال يشوفوني معاك يبقى تمام علشان ماحدش يقول على "نتاش" تاني، وبعدين برضه براحتك المهم ماتنسانيش، أني واحد من الناس اللي بيحبوك على الأرض برضه، متشكر ياأبوللو..

كنت أتطلع إلى السماء بعينين دامعتين غائصا في لحظة الفرح تلك ولم أكن أعلم ما الذي يخبئه لنا القدر حين نعود.

كان سيد الفحام يسير باكيا في الأمام ومعه "اَللالى" يحاول تهدئة روعه، وكانت لبنى تسير بيننا تغني أغنية مدرسية بشكل خليع، وكنت أنا أسير بالخلف حاملا حقيبتي على كتفي أحدث أبوللو، وكانت أمواج البحر قد بدأت في صخب مفاجئ مع اشتداد حركة الرياح، وكانت فسية العفريت* التي تسبب دوامات رياحا دائرية صغيرة قد بدأت تعبث بالطريق، ومع ذلك كنت قد بدأت أضحك.

(٧٥)

دخل الضابط الصغير إلى الخيمة أولا وغاب دقائق ثم نادى علي فدخلت ومعي الجندى. لم تكن الإضاءة تسمح إلا برؤية ضعيفة للغاية داخل الخيمة حين أتاني صوت الضابط الكبير، وكنت أحاول تخيل ملامحه في هذا الظلام إلا أنني لم أستطع، لكنني لاحظت زجاجة منقوع الصرم التي أمامه والتي كان يشرب منها مباشرة ثم يتوقف لحظات وأدركت بأنه ربما يعرف عمي خضير أو ربما التقاه هنا أو هناك، أو ربما يعرف (ياني) أيضا. لم أستطع بعد ذلك إلا أن أحدد مكان خروج الكلام منه فانتبهت إليه حين صرخ في وجهي:

- انت اسمك إيه؟

- ..

تطلع إلى الضابط الصغير، وقال كمن تذكر.

---

* فسية العفريت: لفظ يقال على الريح الفاسدة التي يطلقها العفريت من مؤخرته وهي تعني دوامات الريح الصغيرة المحملة بالأتربة في كثير من البلاد في مصر ومنها بورسعيد.

– آه انت قلت لي إنه أخرس.. يمكن مش أخرس.. يمكن بيستعبط ..بيستهبل..العيال دي شياطين..(ثم تطلع إلي وسألني) عموما انت بتعرف تكتب؟

(هززت برأسى) فأعطاني ورقة وقلما، اقتربت من مصدر الضوء فيما عاد برأسه إلى الخلف فلم أحاول التطلع إليه. وضعت الورقة على الطاولة وأمسكت بالقلم، توقفت قليلا ثم كتبت، لاأدرى مالذي دفعني إلى أن أكتب إسمي بهذا الشكل الغريب في الظلام، لقد فكرت قليلا في أنني لو كتبت اسمي العادي فربما كنت بالنسبة إليه إنسانا عاديا وربما تحدث مشكلة أكبر مما أنا فيه. وعلى ذلك لابد أن يكون إسمى كبيرا حتى يطلق سراحى سريعا، فكتبت في الورقة.

– إبن أبوللو زيوس..

ودفعت بالورقة إليه في تردد. لقد فعلت مافعلت دون أن أكون متيقنا تماما من النتيجة. لكني كنت متيقنا تماما من العلاقة التي تربطني بأبوللو زيوس، ولم يكن هناك لدي أدنى شك في ذلك، لكنني في نفس الوقت لم أكن متأكدا من أن هذه الفكرة قد يقبلها الآخرون أو لايقبلونها؟ كان امتحانا للفكرة وعلى الآن أن أتقبل كل النتائج. كان القائد يحاول قرائتها وأخيرا نطق الاسم.

– إيه ..؟؟

تطلع إلي طويلا في غيظ ثم أكمل:

– أبوللو وكمان زيوس.. نعم ياروح أمك هو أني ناقص مجانين..

سقط برأسه قليلا ثم عاد لأخذ جرعه من منقوع الصرم، ومسح فمه ووضع الزجاجه، وأخيرا نهض من مكانه في تثاقل واتجه ناحيتي، وقال لى في هدوء غريب، كنت أشعر بصوته خارجا من مكان ما عميق للغاية غير فمه، فأتى ثقيلا :

– اسمك إيه ياوله..

لم أرد أن أكون "نتاشا" أمامه، فاشرت إلى الاسم المكتوب في الورقة، فتطلع للورقة ثم تطلع إلي، وفجأة انهال بكف يده على وجهي، وأدركت في تلك اللحظة مدى الخطأ الذى وقعت فيه، كانت الصفعة من القوة بحيث انطرحت أرضا، وانطلق هو يشوطني بحذائه وأنا على الأرض لاأستطيع حتى أن أصرخ. كان الألم يأتيني من كل الجهات. كنت أشبه بكرة من النار تحترق ولاتستطيع أن تشكو، تقف مكانها لاتتحرك، هل هذا هو الشر؟! لاأدري مالذي دفعني إلى التفكير في ذلك في تلك اللحظة، أم أنني أصبحت مجنونا، وحين انتهى كان صوت لهاثه يتصاعد:

- يابن الكلب طيرت الحبتين اللى في نافوخي.. كنت رايح تقابل مين ياوله..

كان حذاؤه قد طال حاجبي مكان جرحي القديم، وقفصي الصدري وكنت أشعر بأن هناك شيئا ما قد طق فيه، وكدت أصرخ من الألم لكن صوتي لم يخرج أيضا.

- انطق طاعون ياخدك.. كنت رايح للاسرائيليين مش كده..

كنت أتطلع إليه وأنا على الأرض وأنا أكاد لاأرى. كنت قد سقطت إلى الخلف على ظهري أنتظر حركته التالية.

- لو موتك دلوقت الجيش مش هايحاسبني ولا حد هايحاسبني .. ولا ربنا حتى هايحاسبني.. انت جاسوس مش كده.. جاسوس يابن الكلب.. بتستهبل يابن الكلب وعاملي أخرس.. انطق .. وحياة أمك ماهاأسيبك إلا لما تنطق..

توقف قليلا يلتقط أنفاسه، وقال:

- كنت رايح تقابل مين ياوله..؟

وانهضنى الجندى ودفع لي بالورقة، لم أكن قادرا حتى على التقاط أنفاسي، ووضع القلم بين يدى، وكنت محنيا بالكاد أستطيع الوقوف ، بينما غرقت راسي في الرمال، ولم أكن أعرف كيف أكتب وأخيرا كتبت.

- كريستينا..

ومأن قرأها مرة أخرى حتى كاد أن يقتلني، حين أمسك بي من قفاي وقذفني نحو المنضدة لأسقط أنا وهي، لولا تدخل الضابط الصغير، الذى أمسك به:

- ياباشا خلاص الوله هايروح في إيدك..

- يروح هو احنا ناقصين.. مش كفاية عبد الناصر وعبد الحكيم عامر.. واليهود .. والزفت والقطران اللي إحنا فيه، علشان يجيلى ده يقوللي انه ابن .. ابن مين ياله.. وبعدين مين كريستينا مين دى ياوله.. وكمان أبوللو زيوس .. انت اسرائيلي مش كده .. ده أنت ليلة أهلك فل.. أني هاأسهر معاك للصبح.. ماورابيش غيرك الليلة.. كل حاجة ضاعت.. فيها إيه لما تضيع انت كمان..

(٧٦)

بعد لحظات من صعودي إلى شقتنا، وكنت قد سبقت سيد ولبنى و"اللالي"، لاحظت أن أبي في الداخل يقرأ شيئا ما وكان مشغولا في حديث مع أمي عن انتخابات النقابة في مصنع الغزل والنسيج، فانسللت إلى غرفة ستى وألقيت بحقيبتي ونزعت مريلتي سريعا وانطلقت إلى الحمام قبل أن يلاحظني أحد، ووقفت تحت الدش أزيح طعم الملح الذي التصق بجسدي كنت أعمل بسرعة حتى أستطيع الخروج قبل أن يلحظنى أحد، كانت هناك أزمات دائمة على الحمام، فقد كنا نقف طابورا أحيانا خاصة فى أيام الإجازات أمام بابه، خرجت من الحمام، فإذا بكل العائلة، خالاتي وأمي وجدتى وأبي واقفون على الباب يتطلعون إلى سيد وقد أمسكه أبوه "عبده الفحام" وأمه "علية القرص" من قفاه السمين أمام أبي، وقد سميت علية بالقرص لأنها كانت قصيرة وسمينة، فكانت تشبه قرص العجين، كان أبي أطول من عبده بكثير، وكان واقفا يستمع إليهما في هدوء، بينما كان الرذاذ يتطاير من فم عبده ليسقط على وجه ابنه، وقد انتفخت عروقه فيما كانت أمه تتطلع إلى في غيظ، وكانت لبنى التي دخلت شقتنا ووقفت خلفي تحاول أن تقرصني من الخلف.

- شوف ابنك ضرب الوله وفشخ* له رأسه إزاى..

أدركت بأن مصيبة ستحدث بعد دقائق، وتطلعت إلى لبنى محاولا الاستنجاد بها فهي التي تعرف الحقيقة كاملة، استشهدت بها، لم يستمع لي أحد أما هي فكانت مستمرة في محاولة قرصي، ثم بدأت أصواتهم تعلو، وظل الزعيق متبادلا برهة، ثم هدأ كل شئ حين قال أبي بأنه سيعاقبني عقابا شديدا على مافعلته في سيد، وانتهى الأمر عند ذلك أو هكذا ظننا، ودخلنا فيما كنت أحاول الاختباء خلف جدتي، حين صرخ في أبي:

- هاتقوللى كل اللى حصل من غير "نتش".. وبعدين عبده ده رد سجون ومراته ست بتخانق دبان وشها وأنا مش ناقص، راجل فاضي وأنا مش فاضي له.. يللا انطق..

كنت أتطلع في وجهه محاولا تجنب كل مايمكن أن يوقعني في دائرة اللوم ومن ثم التعرض للضرب وهى المرحلة الثانية، وسننتقل للمرحلة الثالثة المتعلقة بعدم الخروج وربما الحرمان من المدرسة نفسها، كنت أفكر بسرعة، على أن أخترع قصة ما تنقذني من ذلك، وكنت مترددا في عملية الاختراع هذه لأنني أعلم أن هناك أطرافا أخرى يمكن أن تنقل الصورة كما كانت، إذن على أن أقول الحقيقة دون أن أقول الحقيقة فعلا، وهكذا نزعت من الصورة لبنى وسباحتنا سويا دون ملابس خلف مطار الجميل هناك، وقلت الباقي وأنا متردد لأن حكاية

* فشخ : فتح فتحة كبيرة ، والمعنى هنا أنه شج له رأسه نصفين

البحر لن يتركها أبي دون عقاب ما، وحكيت مافعله أبوللو معي، وحين انتهيت سحبتني ستي من يدي فجأة دون أن تترك لأبي أو لأي مخلوق فرصة التعليق والاصطياد في الماء العكر، ودخلت بي الغرفة وهي تدمدم، وقالت قبل أن ندخل موجهة حديثها إلى أبي الذي كان يقف أمامها غير قادر على التدخل، كانت بتلك الحركة قد أعلنت عن انتهاء المحاكمة وتلاشى أي فرصة للعقاب، خاصة في ظل علمهم بأنني كثيرا ماتعرضت لإصابات على يد سيد الفحام دون أن يعلم أبي، ولذلك وجدها الجميع فرصة للانتقام من سيد، وفي ظل عدم علم أبي بهذه الأحداث، فكان من المناسب وفقا لتفسير ستي إفلاتي بأي شكل من بين يديه.

- شفت حتى الملايكة معاه..

وكان الجميع يضحك، دخلنا أنا وهي، وجلست معها على السرير، وتحت اللحاف سألتني مرة أخرى:

- هو مين سي أبوللو ده اللي انت بتحكي عنه.. انت ياوله مش هاتبطل نتش.. ابعد من سكة الوله سيد بن علية القرص، دول ناس غاوية شكل وشبيحة..

كان كل شئ هادئا هذا المساء، انسحب الجميع، وخلت الشقة من الصياح فجأة، ولجأت خالاتي وأمي إلى النوم وخرج أبي، ونامت ستي، وصحيت أنا لأفكر فيما فعله أبوللو معي اليوم، ولكنني كنت أعتقد بأن ماحدث في شارعنا بعد هذا اليوم كان سببا مباشرا للحرب التي حدثت بعد ذلك، إذ لم أتوقع أبدا ماحدث في اليوم التالي حين تفرجت المدينة كلها على شارع "الفتوات" وهو يتحول إلى أكبر مظاهرة في تاريخ المدينة.

(٧٧)

كنت أنا وكريستينا وخالتي أم هاشم نركض على الشاطئ ممسكين بتلك الطائرة الورقية وكانت ضحكاتنا السريعة تملأ الفضاء وكانت قد مرت سنتان تقريبا على تعرفي إليها، لم يكن هناك أحد معنا، كانت كريستينا قد أقبلت بعد العصر واصطحبتني أنا وخالتي، ولم يكن هناك ضرر في ذلك سوى مادمدمت به جدتي ولم يعقب عليها أحد، قالت شيئا عن النصارى وربطت ذلك بي ثم سكتت، خرجنا إلى الشاطئ الخالي، كانتا تركضان معي أحيانا وأنا أحاول أن أصل بالطائرة الورقية الملونة إلى سقف السماء، وكنت على يقين بأن الرسالة إذا وصلت لسقف السماء فإنها من المؤكد ستصل لأبوللو، إنه الوحيد الذي يسيطر على السماء تماما،

وهي مفتوحة أمامه ليل نهار، إذن ستقع عينه عليها بعد أن تخترق السحب ثم الصحراء الزرقاء، وتصل إلى النجوم، كنت قد قررت إرسال رسالتي الأولى لأبوللو من خلالها، من خلال الطائرة الورقية الملونة، توقفت وكنت قد أحضرت معي الورقة والقلم، حكيت لخالتي أم هاشم ماأريده، فضحكت أولا وترددت قليلا قبل أن تخبر كريستينا ماأريده بالضبط ، كانت كريستينا تبتسم لي في ود، حين بدأت أقرأ الرسالة لها ولخالتي أم هاشم، وكنت متأكدا أنها لن تفهم شيئا مما أقول، لكنها قاطعتني:

- أبوللو..

- أيوه أبوللو.. وزيوس كمان .. بس أنا مابأحبوش..

- أتيموس[٦]..

وانطلقت ضاحكة تلك الضحكة العالية، أخذت تطلع إلي وقد بانت على ملامحها تلك السمات التي أعرفها جيدا، فسارعت إلى القول:

- لا مش مجنون.. والمصحف مش مجنون.. باراكالو.. باراكالو .. علشان خاطري..

وكنت أظن أنها رفضت أن تكتب شيئا، فيما أخذت خالتي أم هاشم تحاول شرح الأمر لها، فهمت منها أنها قالت لها أن علاقتي بأبوللو قديمة جدا، وأنني أعرف الكثير عنه وكذلك عن زيوس، وأنني كثيرا ماأسألهم في البيت أسئلة لايستطيعون الإجابة عليها، وقالت لها في النهاية أنني مهووس أبوللو، وربما قالت لها بأنني أعشق أبوللو أكثر من الجريج أنفسهم، حتى (ياني) نفسه وعدني بأن يأتي لي بتمثال لأبوللو من أتينا ليضعه عندي، وأخبرتها أيضا بأنني أعلق بعض صور لأبوللو تحت السرير وهو سر لايعرفه أحد على الإطلاق، واستغربت من معرفة خالتي أم هاشم لهذا الأمر فقد كنت قد أخفيته عن الجميع حتى جدتي لم أحك لها ذلك أبدا، كيف يتم فضح أسراري هكذا، ألايكف الكبار عن العبث بأحلامنا؟ ابتسمت كريستينا، وكنت أبتسم لها بتودد أن تقوم بالكتابة سريعا، محاولا تناسي كل ماقالته خالتي لها، كانت تتكلم كلمتين جريجي وكلمتين عربي فكنت أفهم تقريبا كل ماتقوله، وحاولت انهاء هذا الحوار العبثي من وجهة نظري قائلا:

- باراكالو كريستينا..

نطقت في النهاية :

---

[6] أتيموس Atimos لفظة تقال عند الضيق والزعل من شخص ما، ولكنها خفيفة في ميزان ألفاظ الشتائم اليونانية، وهنا تعني ياملعون!!!

- ثا غرابسو[٧].. ثا غرابسو..

كنت أتطلع لها ولاأفهم ماتقول، هزت لي خالتي أم هاشم رأسها بأنهـا وافقـت، تركـت مابيدي في قفزة واحدة، واحتضنتها وقبلتها في خدها فيما كانت ضحكاتها ترن في أذنـي، وكانت تمسك بكتفي بيديها الصغيرتين، كنت أرى عجبا فيهما، كانتا أصغر من يدي، كيف لم ألاحظ ذلك من قبل، كانت أيضا قد خلعت قلنسوتها البيضاء التي ترتديها وكان شعرها الذهبي يطير خلف ظهرها، قالت لي خالتي بأنني يجب أن أقرأ الرسالة وسـتحاول هـي ترجمتها بالجريجية قدر ماتستطيع، تمهلت قليلا وكان قلبي يخفق وأخذت أقرأ على مهل، وأنا ألتقط أنفاسي:

العزيز الغالى أبوللو

وربنا حضرتك غالي قوي.. اني باشكرك على كل مساعداتك عشاني مع الوله سيد الفحام.. بس عايزك تحقق لي أمنية واحدة.. واحدة بس.. شفت بقى أني مش طمـاع إزاي.. وأنـي شايف برضه إن الأمنية دى مش كبيرة عليك، يعني مسألة الجناحين دول.. أني كـل يـوم بأقوم من النوم أدور عليهم، يعني لو سمحت هم مش جناحين كبار لأن أني لسه صغير..أني عاوز جناحين كل واحد منهم من ريشة واحدة بس ريشة كده ملوكي على رأي ستي.. ريشة كبيرة، يعني لو ممكن تحقق لي الأمنية دي.. واوعدك إني مش هاأروح بعيد، المسألة كلهـا عاوز آخد لفة كده على بورسعيد من فوق لاأكتر ولاأقـل.. نفـسي اشـوفها كلهـا حتـة واحدة..على فكرة أني بحب بلدي قوى والله زي انت مابتحب اثينا كده.

والسلام ختام

ابنكم

وكتبت من ورائى كريستينا تلك الرسالة بالجريكى وكانت خالتي أم هاشم تملي عليها ماكتبت بالعربية جملة جملة وتنتظر حتى تنتهي كريستينا فتبدأ بجملة جديـدة حتـى انتهيتـا، نفـس الكلمات، لم أدعها تزيد حرفا واحدا ولا حتى نقطة، كنت قد أعددت عدتي في رأسي قبـل أن نأتي إلى البحر، كنت أريد أن أكون محددا في طلبي، وكانت تكتب وتضحك، وفـي النهايـة وضعنا الرسالة في الطائرة الورقية، بين الخوص وورق الجلاد الأزرق، وحين انتهينا لصقتها مثبتا إياها بقوة بحيث لاتنخلع وتطير في الهواء وحدها، وأخذت أركض بالطائرة وهن خلفي يصرخن من الفرحة، كنت أركض للأمام حتى تعلو وتعلو، كانت الطائرة تصعد إلى آفاق لـم

---

[7] **أي سأكتب: ثا Tha: أداة استقبال توضع قبل الفعل المضارع للدلالة على الفعل في زمن اللمستقبل القريب، والفعل هنت جرافو Grafo أي "أكتب"، وتم تصريفه بسبب Tha في صيغة المستقبل**

أرها من قبل، كنت أريد لها أن تطاول النجوم وأن تعلو حتى فوقها، حتى علت وأصبحت تكاد لاترى، أصبحت صغيرة للغاية، كانت تشبه جنياتي الصغيرات في تلك اللحظة اللاتي كنت أراهن يحملن الطائرة أيضا ويرفرفن حولها، وكنت سعيدا للغاية، كنا قد أحضرنا خيط دوبارة* طويل، أطول من أي خيط دوبارة رأيته في حياتي من قبل، وحين اطمئننا إلى أن ارتفاعها أصبح مناسبا، أمسكنا بطرف الخيط وقطعنا، أحسست بأنني أطلقت لها حريتها فارتفعت أكثر لأعماق السماء حتى اختفت بعد دقائق، وأدركت حينها بأن رسالتي قد وصلت أبوللو، وأنه على الآن أن أنتظر الجناحين.

(٧٨)

لم نسر طويلا بالعجلة، أبي وأنا، وكنت أتطلع للمدينة للمرة الأولى ربما في الثانية عشرة ليلا، كان كل شئ نائما، لكن حركة الحميدي لم تهدأ، هاهي العربات الممتلئة بالسمك تأتي، وهاهم عمال البلدية يقومون بتنظيف أنهار الشوارع الحجرية مما علق بالأحجار السوداء من بقايا السمك والخضار واللحم، وهاهم سائقوا عربات الحنطور نائمون داخلها في وداعة، كان الجو جميلا وكانت النجوم تشع في ليل المدينة، أقف على محطة القطار مع أبي، وكان قد أتي بحقيبة ملابسى وبعض الطعام ونفحني خمسة وعشرون قرشا، حين توقف القطار، أقبل علينا سائقه، كان أكبر من أبي في العمر وكان كرشه يرتج أمامه، يرتدى تلك الحلة الرصاصية وكابا بنفس لونها، سلم عليه وأمسكني من يدي وحمل حقيبتي في يده الأخرى، كنت ذاهبا لجدي الآخر الذي رأيته من قبل مرتين أو ثلاثة لدينا في بورسعيد، وكان ذلك قبل أن يموت مباشرة، لاأدري لماذا ألح على أبي في ذهابي، كانت تلك المرة الأولى لي في القطار، بكت جدتي كثيرا، فيما أحضر لي جدي قفصا من المشمش تركه أبي في غرفتنا بعد أن تناوله من جدي على مضض، وكان جدي يؤكد علي بأنني يجب أن أسلمه بنفسي إلى جدي الآخر، ولم أعرف أبدا كيف كنت سأفعل ذلك لولا تدخل أبي في الأمر، وترك إخوتي يأكلون بعضه في تلك الليلة.

---

*دوبارة : حبل رفيع ولكنه قوي لاينقطع بسهولة.

ترك القطار المحطة وكنت أشير لأبي من الشباك وكان هو يبتسم، استغرق الطريــق طويلا ورحت أنا في النوم بعد لحظات، وحين فتحت عيني، كنت أتطلع لذلك السواد اللانهائي الذي يحيط بنا من كل مكان، حين أتى السائق وسحبني أنا وحقيبتي وكان القطار على وشــك التوقف، كان الوقت ليلا، وحين توقفنا على المحطة هبط وأنا معه إلى الرصيف وهناك كــان يقف جدي ضاحكا وأخذني في أحضانه ورفعني من على الأرض، لكنني كنت أشعر بأن بــه شيئا ما، كان وجهه عجوزا عن آخر مرة رأيته فيها لدينا في بورسعيد، سلم علــى الــسائق وودعه، وسلم السائق على أيضا وقبلني في خدي ورحل، بدأنا التحرك أنا وجدي حين دخــل إلى المحطة قطار آخر، فتوقف جدى لشراء بسكويت لي، لاحظت نزول طابور من الرجــال الذين يرتدون قمصانا بيض أو بذلات ومعاطف، وكانت أيديهم مكبلة بقيود حديدية، من القطار الآخر، فتوقفنا قليلا حتى عبروا، وحين سألت جدى عنهم أشار لي بالصمت، وكان هناك عدة جنود وضابط خلفهم، حين فوجئت بأحد الجنود يدفع أحدهم في ظهره وكان رجلا كبيرا، فسقط على الأرض فحاول بعض الشباب ممن في أيديهم القيود رفعه، فاندفعت من فم الضابط جملة متلاحقة من الشتائم، فتحامل الرجل على نفسه ونهض، وعادوا إلى السير من جديــد حتــى اختفوا تماما، وحين كانوا يهبطون سلم المحطة تطلع أحد الشباب منهم لي وابتسم فابتسمت له، ولاحظ جدي ذلك، فجذبني من يدي وانطلقنا خارجين من المحطة.

كان في انتظارنا خارج المحطة رجل يقف بجانبه حمار، ركبنا الحمار فمشى علــى مهل ولاحظت أن الأرض هناك متربة للغاية، بجانب الكثير من الحفر الطينية، كما أن الجميع يسير مرتديا تلك الجلابيب والطواقي الصوف البنية الطويلة أحيانا، القصيرة أحيانا أخــرى، وكان الجميع يلقي على جدي بالسلام، وكنت سعيدا للغاية فقد كانت تلك المرة الأولى لي التي أركب فيها حمارا، كنت ممسكا بعلبة البسكويت، وأخرج جدي من جيبه كوزا من السكر البني الذي يشبه حبة الجزر وأعطاني إياه، كنت أقطع منه قطعا صغيرا داخل فمي متلذذا بطعمــه، لكنني كنت أفكر في سر تلك الابتسامة التي رأيتها على وجه الشاب، وسبب وضــع القيــود الحديدية في أيدي هؤلاء، ولم يطل تفكيرى كثيرا إذ انــشغلت بأشــجار المــانجو والجوافــة والموز، وتلك الترع الصغيرة التي تبدو في كل مكان حتى وصلنا إلى منزل جدي.

(٧٩)

في المرة التالية التي قابلنا فيها كريستينا كانت بداية الشتاء ومع ذلك كان هناك بعض الناس المتناثرين هنا وهناك على البحر، كنت أنا وخالتي أم هاشم على البحر نتقاذف تلك الكرة، حين أقبل هذا البحار اليوناني، كنت أراه للمرة الأولى، فتركتنا خالتي وجلست هناك معه تحت الشمسية وكان أحمر اللون ذا شعر خفيف، كنت أتعجب كيف يجرى الحوار بينهما، لكنني أدركت أن خالتي تعرف اليونانية وأنها حين نزلت القاهرة وغابت لعدة شهور كانت تدرسها، وهاهي الفرصة أتتها مع كريستينا كي تتعلم أكثر، كما أنها بمعرفتها لهذا البحار سوف تتعلم كل شئ، لكنني لم أدر من أين عرفته، وإن كنت قد سمعت أنها عرفته عن طريق المراسلة، ولم أفهم وقتها ماذا يعني ذلك؟ بعد عدة ساعات تركنا البحار وكان قد سلم على، وابتسم في وجهى ومشى من حيث أتى، وحين بدأت أفكر كيف يمكنني أن أستفيد من هذا الأمر، كان قد اختفى، فجأة ظهر خالي مسعد، جلس معنا وأخذ يضحك مع خالتي وكريستينا، وكنت أنا أحاول الإنصات للماء، كنت أشعر بأن موج البحر يحدثني وبأنني يمكن أن أسمع كلماته سواء من صوت الموج أو من هسيس الفقاقيع التي تنفجر، لاأدري شيئا عن تلك الكلمات التي كان يصبها البحر في أذني، كنت أشعر بأنه يقرؤني المستقبل، ومع ذلك فهو لم يقل لي أي شئ عن كل ماحدث بعد ذلك، لكنني كنت اشعر بأن هناك كثيرا من الحوادث الرهيبة التي سوف تقع، ومع ذلك كنت أستسلم لأحداثي اليومية، ولم أكن أتطلع إلى مابعد الغد، كان أبوللو هو شغلي الشاغل فلم أنتبه إلى مايقوله البحر وأمواجه، وإلى الأسرار الصغيرة التي كانت تبثها لي فقاقيع الماء حين تتفجر، كنت أعيش عالما لايتكرر كثيرا في حياة البشر، كنت أكون خيالاتي بارتياح شديد، وكنت أعد نفسي لتلك المقابلة التي كانت أمنية بعيدة المنال في ذلك الوقت، وإن كنت أشعر بأنها ستتحقق يوما ما، كنت متأكدا من ذلك، لا أدري من أين أتاني هذا الشعور اليقيني! لكنني لم أفكر يوما في أن أبوللو يمكن أن يموت ويختفي تماما، كان ذلك أمرا لايمكن أن يخطر لي على بال، ولا لماذا يموت بعد كل هذا العمر الطويل، لماذا يمكن أن يموت الآن، لم أفكر في ذلك، لكن كان هناك من بين تلك الفقاقيع من أخبرني بأن ذلك يمكن أن يحدث، كنت متأكدا تماما الآن بأن أبوللو قد حانت نهايته لكن كيف وأين ، لم أكن أدري تماما، كنت في حاجة إلى نبوءة أخرى.

تركت خالتي أم هاشم خالي مسعد وكريستينا تحت الشمسية، وأقبلت نحوي، أخذتني في جانبها وقد وضعت يدها على كتفي، كان يبدو عليها أنها تفكر في أمر ما، سألتها:

- مين ده اللي كان معاكي ياخالتي..

تفحصتني في شك قبل أن تجيب، وقالت

- احلف الأول إنك مش هاتجيب سيرة لحد..

- وحياة أبوللو ماهاأجيب سيرة لحد.. ماتخافيش..

تطلعت لي في شك أولا ثم انفرجت أساريرها

- أني عارفة إن أبوللو غالي عندك قوي علشان كده أني متأكدة إنك مش هاتقول لحد..أني عارفة إنك راجل دلوقت.. (ثم صمتت قليلا) .. ده بحار يوناني.. احنا متفقين على الجواز بس إمتى مش عارفة..

- يعني بتحبيه..

تفحصتني مرة أخرى كأنها أدركت فجأة بأنني قد كبرت، سكتت قليلا ثم قالت :

- بحبه من زمان.. ومش هاأقدر أحب حد غيره.. أنا مش عارفه انت هاتفهم الكلام ده ولا لأ.. أني ..

وفجأة أتانا هذا الصراخ، كان صراخ كريستينا، فالتفتنا بسرعة لنجد خالي مسعد يحاول أن يكمم فمها، ركضنا نحوها وكانت ترتجف وقد توقفت عن الصراخ وكان كل من بالبحر يتطلع نحونا..

- إيه .. فيه إيه .. إيه اللي حصل..

توجهت خالتي بالحديث إلى خالي مسعد، الذي قال في سرعة وهو يمضي:

- صاحبتك دي مجنونة..

قال ذلك وانطلق بعيدا دون أن يبدو عليه أي شئ.

سألتها خالتي. وقد ضمتها إلى صدرها، ثم قالت لها:

- باراكالو..كاثيسته..

جلست وهي تلملم نفسها، ربما لاحظت أنها تتحدث إلى نفسها، ثم نهضت فجأة وأصرت على الرحيل، وهناك تركناها في قلب المدينه ركبت حنطورا بعد عدة كلمات تبادلتها مع خالتي وقالت وهى تركب الحنطور إلى المعدية في طريقها إلى بورفؤاد وكانت تشيح لي بيدها وهي تبتسم:

- كالسبيرا أم هاشم.. كالسبيرا..ساغيري..

كانت تناديني بياصغيري، وحين رحل الحنطور، سألت خالتي .

- هو حصل إيه ياخالتي..
- الله يخيبه خالك مسعد حاول يبوسها.. فاكرها واحدة من اللمامة اللى يعرفهم.. هاأخرب بيته لما أشوفه.

كنت مغتاظا منه أنا الآخر، كريستينا صديقتي أنا وليست صديقته، فلماذا فعل ذلك، سؤال أرقني كثيرا، إلى أن سألت خالتي ذات يوم.

- هو خالي مسعد حاول يبوس كريستينا ليه؟
- افتكرها بتحبه؟
- لأ طبعا مابتحبوش.. دي بتحبني أني.. أني هاأتشاكل معاه لما ييجي..

ابتسمت وقالت:

- لأ سيبهولي أني لما ييجي أني هاأوريه..

لكنه لم يأت إلا بعد عدة شهور كنا فيها قد نسينا الأمر برمته.

(٨٠)

في اليوم التالي لشكلتي مع سيد الفحام، وكنت محروما من الخروج والذهاب للمدرسة، وكنت جالسا مع جدتي في غرفتها أقوم بحل واجب الحساب أحاول استدعاء جنياتي، فيما لمحت أمي تخرج من غرفتها وقد لفت نفسها في ملائتها السوداء اللف اللامعة، وكان أبي في الداخل أيضا يؤكد عليها أن لاتتأخر حتى يستطيع أن يخرج لأصحابه على المقهى، سمعت إنغلاق الباب، فعدت لكراسة الحساب وأنا أحاول تخيل كيف يمكن الخروج من هذه المعضلات، كنت أرى الأرقام كأنها حروف جريكية كتلك التي كتبتها كريستينا في خطابي وأرسلتها لأبوللو، حين تناهى إلى سمعى صوت صراخ، ورفعت جدتي برأسها وقالت كلمتين سريعا.

- سعاد.. بنتي..

أما أبي فقد خرج مسرعا من الغرفة ومعه خالاتي وخالي مسعد أيضا الذى كان موجودا من الغرفة الأخرى، وعاد الصراخ مرة أخرى، فقفز الجميع نحو الباب، باب الشقة، كان صراخ أمي واضحا تلك المرة وأنه آت من أحد شقق العمارة في الطوابق الأولى، قفز أبي حافيا على السلالم وكنت خلفه تماما وخالاتي خلفنا وجدتي في نهاية الطابور، كان صوت صراخ أمي آتيا من شقة " علية القرص" على وجه الدقة، ولم يكن هناك مجال للأسئلة، نظر لي أبي وهو يستعد للمعركة :

- هاتلي الشومة اللى ورا الدولاب..

صعدت بسرعة إلى شقتنا من بين أقدام خالي مسعد وخالاتي فيما كان الاثنان أبي وخالي مسعد يحاولان كسر الباب، وحين كنت أصعد كان (ياني) والعربي وزوجتاهما يركضون هابطين جميعا نحو الأسفل ليتحققوا مما يحدث، دخلت إلى الشقة وأحضرت الشومة وركضت هابطا، وكان الجميع قد نجحوا في خلع الباب، وكنت أول الداخلين قفزا كانت أمي بين ثلاث نساء هن أم علية ، وعلية القرص زوجة عبده الفحام وأختها "القطة" هكذا كان اسمها وهي زوجة سيد ترسة الذي يسكن في العمارة المجاورة لنا، والمشهور عنه غيته في صيد الترسة ولذلك أطلق عليه اسمها، كن غارقات في ضربها غير مدركات لما يحدث على الباب، وكان عبده الفحام زوج علية القرص واقفا يتفرج، كن يحاولن ضربها وتقطيع ملابسها من عليها وكانت ملاءتها اللف قد سقطت تحت قدميها، كان أبي قد قفز مواجها عبده الفحام الذي حاول الفرار لكن أبي كان قد عاجله بقبضة يده على رأسه فسقط، فيما قام خالي مسعد بسحب المرأتين علية أم سيد الفحام، ودفعها من قفاها خابطا رأسها في الحائط فسقطت، أما المرأة الأخرى "القطة" فقد أمسك بها بين يديه لاتتحرك، بينما قامت خالتي أم هاشم بسحب أمي من بينهم، وقامت خالتي حنان بمواجهة أم علية وزنقتها هناك في أحد أركان الشقة وأمسكت بفردة حذاء لها ذي كعب ألومونيوم وأخذت تضربها به على رأسها ووجهها، لمحني أبي فتناول مني الشومة بسرعة ورفعها فوق رأس عبده الفحام الذى كان يحاول النهوض وقام بتحريك رأسه ليتحاشى شومة أبى لكن يد أبي كانت أسرع، فسقطت على يد الكنبة التي كانت أعلى من رأس عبده فهشمتها، وأكملت الشومة طريقها إلى رأسه فانفجر نبع من الدماء ليغطى وجهه ويتناثر على ملابسه ووجهه، فيما أكمل أبي الطريق إلى البقية، كانت الشومة في يده لاترتفع إلا لتسقط فوق جسد، وينتزعها من جسد لتسقط فوق رأس، وركض الجميع أمامه إلى أسفل، على سلالم العمارة وهو خلفهم ومعه خالي مسعد، بعد دقائق كان الجميع في الشارع، كانت

لبنى تصرخ تنادي أمها، وكنت أقف في مواجهة سيد الفحام، الذي لم يتحرك في البداية، فجأة تحول الشارع إلى معركة طاحنة، وتدخلت أطراف كثيرة، من أقربائنا وأقرباء عبده الفحام وعلية القرص، حيث كان في الشارع في تلك اللحظة سكان ثلاث عمارات متجاورة تقريبا، وكانت كل عمارة بها بلوكين وبكل بلوك ثمانية شقق وكل شقة بها اثنين إلى ثلاثة أسر في عدد أفراد يقترب من العشرة تقريبا وعلى ذلك فإن متوسط من كانوا بالشارع بلغ تقريبا حوالى الثلاثمائة شخص، لكن الأمور كانت تزداد اشتعالا، كان هناك خلق كثير بالشارع، كان ذلك يشبه مايحدث تماما في احتفالات حرق اللمبي في مواسم شم النسيم، وأخيرا أتت الشرطة، وتم القبض على الجميع، الذين ساروا بين العساكر كما هم من شارع الفتوات من المنطقة الرابعة الشعبية حتى قسم شرطة العرب هناك بالقرب من المنطقة الأولى فيما كانت نصف بورسعيد تتفرج علينا من النوافذ والشرفات وتضحك.

في الكراكون، لم يتهم أحد أحدا آخر، وانتهت الشكلة الكبيرة بينهم بمحضر صلح وقع عليه جميع الأطراف، وفي المساء كنا نجلس جميعا في شقتنا عبده الفحام مربوط الرأس وزوجته عليه "القرص" وقد تعلق ذراعها في رباط أبيض، بينما كانت رأسها مربوطة هي الأخرى، وأختها "القطة" التي كانت تنادى بذلك بسبب صوتها الرفيع وعينيها الذهبيتان، كانت تجلس بجوار خالي مسعد يحاول ملاطفتها، وكان زوجها سيد السماك جالسا بجانبها من الناحية الأخرى، وأم علية التي كان وجهها كله منتفخا بفعل ضربات الكعب الألومنيوم وبجوارها كانت خالتي حنان تضحك وهي تضحك معها، شربوا شايا كثيرا، وأكلوا كثيرا، وكان جدي قد أحضر معه عدة بطيخات شليان ونمس بعد أن علم بماحدث وبمحضر الصلح، سرعان ماتم تقطيعها وتم توزيعها على الجميع، كما أخذ (ياني) يغني تلك الأغنيات الجريجية وكان الجميع يحاول أن يغني معه، وأتى عمي خضير أيضا ومعه السمسمية، كان مشهدا غريبا للغاية، وكنت غير مصدق بأن هؤلاء الناس كان يمكن أن يقتلوا بعضهم البعض في الصباح، هكذا كنا، قلوب بيضاء وعقول صغيرة بسيطة لاتتحمل ما لا قدرة لها عليه، يغلون سريعا ويخمدون اسرع، كنت أراهم يحملون الخناجر في الصباح لبعضهم في الشوارع وتعلو أصواتهم، وفي المساء كنت أجدهم على المقهى كأن شيئا لم يحدث، لم تكن الحياة تحتمل الثأر أو الدماء كان البحر وحده يكفي.

(٨١)

عاد الضابط للجلوس وقد هدأ تمام، وطلب كوبا فارغا من الجندى، وعاد يتطلع إلى، كنت قد تكومت على الأرض صامتا، تسقط من عيني دموع غريبـــة، ورفـــع زجاجـــة المنقوع إلى فمه وتجرع بعضا منها وتوقف فجأة وعيناه إلى أعلى، ووضع الزجاجة على المنضدة، ثم أضاء المصباح قليلا وقام وأمسكني من ذراعي واقترب من الضوء وأخـــذ يتطلع في وجهي ومد يده وخلع الرباط من فوق رأسى وتطلع للجرح، في ذقني ورأسى، ثم عاد للجلوس، وكنت أتأوه دون صوت أحاول إمساك جانبى، أما جرح حاجبي فكـــان مازال ينزف، حين صرخ فجأة في الجندي:

- هاتولي دكتور ياولاد الكلب..حالا..

كان يصرخ في انفعال كأنه اكتشف شيئا غاب عنه في ظل حالة السكر التي كان بها، ولم أكن أدرى سببا لانقلابه المفاجئ، كان شر مطلقا منذ لحظات وأصبح خيرا مطلقـــا بعـــد لحظات أخرى، ما السبب في تقلباته في الاختيار؟ هل هذه طبيعة إنسانية؟ أم أن الله يختار لنا كل شئ قبل أن نختار؟ فلماذا اختار لي أن أتعرض لكل ذلك؟ كان وراء هـــذا الأمـــر حكمة ما؟ حكمة أسميتها الحكمة الميكانيكية، لأدري من أين أتيت بهـــذه الكلمـــة، ربمـــا لاحظت ذلك في حركة السيارة، أو غلاية الأقمشة في مصنع الغزل والنسيج أو في دفعات الريح لمركبتنا جدي وأنا، أو في حركة البسكليته وقارنت ذلك بما يحدث لنـــا، يمكـــن أن أدعي بأنه كان بإمكاني أحيانا أن أحكم على الأشياء، كانت كل حركة تؤدى إلى حركـــة أخرى وكل مشكلة تتفرع عنها مشكلات أخرى، وإلا كان عمي خضير مثلا كان قد ارتاح بعد زواجه، لكن مشكلته تطارده، وكذلك أبي وعمي حامد، كل واحد تطـــارده مـــشكلاته، ونظل في حالة الانقسام هذه حتى النهاية، نحن أشبه مانكون بتلـــك الحالـــة الميكانيكيـــة، لايوجد شئ بدأ من الفراغ، إنها حركة تؤدى إلى أخرى، سلسلة ردود أفعال لاتنتهي لكنها مرتبطة بالحالة المزاجية لنا أو بما نريده ونبحث عنه في لحظة معينة. كانت كل تصرفات عمي خضير تؤكد لي ذلك، حين نصل إلى هذا القياس سنكتسب تلك الحكمة الميكانيكيـــة التي نستطيع فيها الاختيار، لم يكن الأمر يختلف لي عن تلك البسكليتة التي أحاول قيادتها حين تركها أبي ثم باعتها أمي بعد ذلك، كنت أتوقف أمام حركة التروس، والآن تكشف لي الحياة عن روحها، كنت قادرا رغم كل ذلك على التفكير في هذا السبب الميكانيكي، لكـــن هل الأمر بهذه البساطة!؟.

كان القائد جالسا يتفرج على الطبيب وقد انتبه تماما الآن لكل مايفعله، كان يشخص حالتي ويلقم الجرح في حاجبى، ويربط صدرى الذي كسر به ضلع، ويعيد الكشف على الجـــرح في رأسي، خرج عدة مرات خارج الخيمة، كأنه لايتحمل مايراه، كان رجلا غريبا للغاية، من أين اكتسب هذه القدرة على القسوة والحنان في ذات الوقت، وكيف كان يصرخ فـــي الطبيب الصغير بأن يعتني بي تماما وبأنه سيخرب بيته إن لم أستيقظ في الصباح ســـليما معافى، وكان يسأله عن سبب خرسي، كان يلقي عليه بآلاف الأسئلة والطبيب غارق فيما يفعله وفي النهاية يعطيني تلك الحبة المنومة، فأنام في خيمة القائـــد، فـــي ســـريره هـــو شخصيا، وكان جالسا طول الليل يحتسى منقوعه ويبكى ويغني، وأصـــدر أمـــرا بعـــدم إزعاجه إلى الضابط الصغير، فيما رحت أنا في النوم أحلم بأبوللو وجـــدتى وأحـــاول ألا أفكر فيما حدث أو فيما سيحدث.

..

نهاية الجزء الثاني

الجزء الثالث

(٨٢)

ماذا يفعل القاتل حين ينتهي من إراقة آخر دم ضحاياه، ماذا يتبقى في تلك اللحظة بعد أن يصبح العالم كله ملكا له وحده، حين يجد أنه يعيش في هذا العالم كله وحده وأنه يملكه كله، ماذا سيفعل؟ واحد من الأسئلة التي لم أستطع الإجابة عليها، ولم أعرف إلى من أتوجه بها، كان الجميع حولي عاجزون، كنت أعيش في وهم خيالاتي وأسئلتي التي ليست لها إجابات حاضرة ولا ينتظر حتى في المستقبل المعلوم الحصول على إجابة.

كان القاتل معلوما لي أحيانا وغير معلوم لي في أحيان أخرى، لم أكن أظن أنني سأصل إلـــى هذا الطريق في النهاية، كنت أتسائل فقط لماذا حدث كل ذلك؟ لماذا كانت كل الطرق تــؤدى إلى هذا الجحيم الذي لم ينقطع؟ كانت تبدو لي الأسباب واهية وكانت النتائج وخيمـــة، لمـــاذا انزلقنا إلى هذا الطريق، جميعا؟ ألم يكن من الممكن أن نتفادى كل ذلك؟ ألم يكن من الأفــضل أن تبقى الأمور والحياة على هدوئها ومفاجآتها البسيطة دون أن تتحول إلى بحيــرة الـــدماء الغليظة التي غرقنا فيها كلنا ولوثتنا دون أن تستثني أحدا؟ هذه الدماء التي التصقت بي أيضا لاتريد أن تبارحني، لم أستطع أن أبعد عينى عنها بل ورائحتها التي كانت تملأ أنفي، كيــف تكون كل هذه الصدف والأحداث هي الطريق إلى الجحيم؟ كنت أعتقد بأن الحياة ليس فيها أيا من ذلك، إلى أن اصطدمت بها، كانت أحلامي تحترق واحدة بعــد الأخــرى، كـــان إيمـــاني ومعتقداتي بكل تلك الأشياء التي حكت لي عنها جدتي أو قرأت عنها أو حلمت بها كان يتهشم أو يحترق على نار هادئة أحيانا وعلى نيران متوهجة حمقاء فـــي أحيـــان أخـــرى، كانـــت اختياراتنا هي السبب أحيانا أو ما نحن مجبرون عليه في بعض الأحيان، وكانت الصدفة هي السبب في أحيان أخرى، كانت أعتقد بأننا ميكانيكيون في حركتنا، أشبه بتروس هذه البسكليتة، أنا أسير إلى مصير محدد لايمكن اجتنابه، كان علي أن أؤمن بتلك الحكمة الميكانيكية، بـــأن خياراتي ليست حقيقية وأنها مجموعة من الأوهام المتراكبة التى لايمكن تفاديها، وهاأنـــا الآن في تلك اللحظة وفي هذه المرحلة من العمر قد بدأت أؤمن بذلك.

مات جدي أمامي وهو يدخن سيجارته ، هناك على شاطئ المتوسط، لم أكن أعلم بذلك بعد حين كنت ذاهبا لجدي الثاني في تلك القرية القريبة من الصحراء، كانت بيئة مختلفة تماما علي، كنت مبهورا بتلك الحيوانات، الحمير والجمال والخراف والماعز والبقر والجاموس والدجاج والبط والأوز والأفراخ الصغيرة، كان كل ذلك مبعث دهشتي، كنت لاأعرف في بورسعيد سوى السمك بأنواعه المختلفة، وبعض طيور المتوسط، وهكذا ربطت بين كل عالم

وبين مخلوقاته، وإذا قبلت بهذه الفكرة البسيطة، فمن المؤكد أن هناك مخلوقات أخرى تعيش بيننا، البعض نراه والبعض لانراه يعيش في عوالم أخرى، وطالما اختلفت البيئة اختلفت الكائنات، للبحر كائناته كما للبر كائناته كما للسماء كائناتها، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يطير أبوللو، كانت هذه هي المعضلة التي كان علي التحقق منها، لم أكن أظن أنه علي أن أفكر في ذلك في نهاية الأمر، فإذا كان أبوللو يملك جسد إنسان فإنه سيسقط، ولما لم أر إنسانا من قبل له أجنحة، كذلك لم أر من قبل خيولا أو حميرا لها أجنحة، وإذا لم تكن لكل هذه الكائنات أجنحة فهي بالتبعية ستسقط، هل رأيت إنسانا من قبل يحاول الطيران؟ أو حتى حمارا يقف على حافة جبل أو من فوق حافة سطح عمارة يحاول الطيران؟ هل رأيت حمارا من قبل بين السحب؟ من المؤكد أنه سيسقط وسيسقط من ارتفاع شاهق، دون أن تكون له فرصة على الطيران، وإذا سقط واحد فقط فإن كل من سيحاول ذلك سيسقط وسيموت، هذا هو الأمر في النهاية، إذا فالآلهة الجريكية هي فقط التي لها قدرة على أن تكون لها أجنحة، أما الجان والأعوان والعفاريت فإن لهم القدرة على التخفي، وربما تكون لهم تلك القدرة الخفية على الطيران والتحليق لأنهم لايعيشون بيننا وإنما يأتون إلينا من مسافات بعيدة لم نعرفها، من بيئات وأماكن تستطيع أجسادهم فيها أن تكون شفافة، لقد فرض منطق الأشياء نفسه على تفكيري وعلى أن أقنع بذلك الآن، وهكذا طردت فكرة أن أكون مجنونا طالما أملك القدرة على التفكير، فلا يوجد مجنون يفكر في أشياء متعددة، وإنما يتعلق بفكرة واحدة، وأنا أملك عشرات الأفكار الحقيقية وغير الحقيقية، وما أسمعه وما أقرؤه أحيانا وما أراه كذلك في السينما سواء هؤلاء الذين يطيرون أو يطيرون بمساعدة آلات هم الوحيدون الذين رأيتهم يطيرون، فهل يمكنني أن أصبح مثلهم يوما ما؟ كانت تلك الفكرة أيضا من الأفكار التي تثقل علي يوما بعد آخر، لكنني كنت أطمئن نفسي بأنها ليست الفكرة الوحيدة وعلى ذلك كنت أعد نفسي بعيدا عن الجنون.

(٨٣)

في الصباح استيقظت على سرير الضابط، كنت مسترخيا تماما، أحاول أن لاأفتح عيني، فقد ينقلب الأمر إلى حقيقة دامية لاأستطيع أن أفر منها، على أن أفتح عيني ببطء، على أن أتحقق من أن كل مايجري حقيقي، وحين فتحت عيني ، لمحته يتطلع في وجهي فانتفضت وحاولت النهوض من السرير سريعا والتراجع إلى الخلف، لكنه أمسكني من كتفي في هدوء

وكانت عيناه حمراوين تماما، كان فيهما هذا الأسى، الذي لم أره ليلة أمس اللعينة، ربت على رأسي قائلا.

- ماتقومش من السرير.. خليك مستريح.. أنا عاوز أشوفك زي الحصان.. مش هاتقوم من هنا إلا وانت صحتك تمام.. أنا مش عارف إيه بس اللى خلاني أعمل فيك كده...

ثم أخذ يتحدث طويلا ولم أكن مدركا تماما لما يقول، كان يعتذر عما حدث، كان يتوقف ليمسح دموعه أحيانا، كنت مندهشا من تلك الشفقة الفجائية التي حلت به، كيف يمكن للانسان أن يمارس البغض والشفقة في آن واحد؟ من أين يأتي بذلك؟! ولم يكن هناك أحد آخر بالخيمة، صرخ على من بالخارج وطلب لي طعاما وشرابا، أكلت وأنا أتطلع إليه في خوف، بدأت أسترجع ماحدث، قفز إلى سطح عقلي السؤال الوحيد الذى كنت أحاول تذكره وبدأ يدور في ذهني في تلك اللحظة، كيف أذهب إلى كريستينا، كانت هي الأمل الوحيد أمامي، كيف أعبر القناة إلى هناك، إلى البيوت البيضاء في بورفؤاد، هل سأجدها أم أنها رحلت مع الراحلين؟ كانت قد قررت الذهاب للقاهرة، فهل ذهبت أم أنني سألحق بها، كان على أن أحاول أن أتعافى سريعا.

توقفت عن أفكارى حين قال الضابط فجأة إنه يعرفني ويعرف جدي، وأننا التقينا من قبل، أين لايذكر الآن، ربما في أي مكان في بورسعيد من قبل، ربما أي شارع من شوارعها الثماني القريبين منا، ربما على بورصة السعيدية مع أبي، ربما على البحر مع جدي، ربما في سوق الحميدي، ربما في شارع أوجيني، لكن كيف لم أره، لم أذكر أنني التقيت ضباطا من قبل، وكان ذلك غريبا للغاية، الوحيد الذي عرفته يرتدي تلك الملابس الكاكية كان حامد الفاروقي، كنت أدقق في ملامحه، لكني لم أذكر أنني أعرفه، ثم قال فجأة:

- أنا عايز أقولك إني مصدق إنك ابن أبوللو زيوس.. أنا ماكنتش في وعيي بالليل.. ومصدق إنك رايح لكريستينا.. وكمان أعرف جدك كويس.. كويس قوى.. الله يرحمه..

اتسعت حدقتا عيني من الدهشة، فلم أكن أعلم من قبل أن لأبوللو مراسيل، كنت أعتقد أنه مرسال من أبوللو في تلك اللحظة، وهاهو يكشف عن كل شئ فجأة، إذن أبوللو حقيقي تماما، ماكان يجب أن اشك في ذلك، لماذا شككت أمس في ذلك؟ أصر أيضا على أنني لن أتحرك من هنا حتى أسترد صحتي تماما، رغم محاولاتي المتعددة للنهوض والذهاب، واستسلمت أخيرا مقتنعا بأن كل مايحدث لي حقيقة وليس من نسج خيالي، وهكذا كنت أغفو كثيرا وأنام وأحلم

بجنياتي وأمي وجدي وستي، وكنت أخرج أحيانا إلى الشاطئ حيث أرى الجنود متناثرين هنا وهناك ببنادقهم، أو بتلك المدافع التي توجهت نحو السماء والبحر، وكانت الشماسي والكراسي قد اختفت وإن لاحظت وجود القطط والكلاب، أما الفئران فلم أعد أراها، كأنها ظهرت فجأة واختفت فجأة كما ظهرت، لكني كنت أشعر بوجودها، كانت القطط أيضا كثيرة، وكانت الصراصير تمرح في كل مكان، داخل الكابينات الصيفية تمرح العناكب والصراصير، احتلتها، واختفى كل أثر للبشر الذين أعرفهم، تحولوا إلى هؤلاء الكائنات التي ترتدى الملابس الكاكية والكابات والأحذية السوداء الثقيلة، والعيون المرهقة والملامح المعذبة، اختفت رائحة الناس والزحام وحتى الضحكات، اختفت رائحة الحياة التي كنت أعرفها، لم يعد هناك سوى صمت غريب، ولم أكن أظن بأنها حالة مؤقتة، كنت أجلس على الشاطئ كثيرا أفكر في كل شئ مر بي، لكني لم أكن أجد حلا، في النهاية وضع سريرا آخر لي داخل الخيمة، وأتى لي بملابس أخرى لأعلم من أين؟ إذن فلن أترك هذا المكان قريبا، وكان غريبا منه أن يفعل كل ذلك، لكنني كنت مقتنعا بأن أبوللو لن يتركني وحيدا، كنت جالسا أنتظر تلك اللحظة التي سيطلق فيها سراحي، لكنني لم أكن مستعدا أبدا لمفاجأته الثانية التي أسر بها لي!.

(٨٤)

حين دخلت المنزل الذي يقطن به جدي لأبي، لم أكن أتوقع أن يكون فسيحا هكذا قياسا إلى شقتنا ببورسعيد، كان السقف خشبيا كله، تظهر العروق الضخمة وتلك الدائرة الضوئية المفتوحة في سقف إحدى الغرف وكان يخيل لي بأنها صنعت حتى تخرج منها الجنيات فلا يكون أمامها أى عوائق من أى نوع، وكانت الجدران طينية تم دهانها بالجير عدا الغرفة التى ينام فيها جدي، كانت حوائطها مدهونة بدهان من نوع آخر، بعد أن دخلت بلحظات، وجدت كثيرا من النساء اللائى يرتدين تلك الملابس الملونة الفضفاضة اللامعة ذات الأكمام الطويلة والذيول التي تنساب على الأرض خلفهن وكن ذوات أحجام ضخمة، كنت أسير أمام عمتي فاتحا قدمي وضاربا بمقعدتي الصغيرة إلى الخلف ومحنيا ظهري محاولا تقليدهن وكن يضحكن تلك الضحكات السريعة، ولم يكن هناك أي رجل في المنزل عدا جدي، الرجال قابلتهم فقط في المساء كانا زوجي عماتي، أصلعين بشوارب، أحدهما أبيض البشرة للغاية بجبهة لامعة، وكان قليل الكلام ولا أدري لماذا كنت أخاف منه على الرغم من محاولاته للتودد لي، لكن إحساسي الذي لا يخيب فلم أحادثه أبدا، كنت أراه فأركض من أمامه كأنني

رأيت عفريتا، وكان جدي يأخذني بين أحضانه، ويهمس في أذني بأنه يعلم سبب خوفي منه، ومع ذلك لم يشرح لي أبدا لماذا؟ أما الآخر فكان قمحي البشرة وعلى جبينه عصفور صغير أخضر وكان يصرخ كل دقيقة " مافيش أكل يابهايم.. مافيش شاي يابهايم .. مافيش جوزه يابهايم" حتى أنني سألت جدي عن " الحاج بهايم زوج عمتي" فأخذ يضحك، وحاولت لمس عصفور جبهته وهو نائم فاستيقظ مفزوعا، وحين رآني قال وهو يبتسم " ياواد هاتطير العصفور" ثم عاد للنوم مرة أخرى، وكانت عماتي وبناتهن هن اللائي يملأن المنزل بالضجيج إضافة إلى صياح البط والدجاج في غرفة مقفلة جانبية، تقع بجانب غرفة الفرن التي كن يعملن فيها طول النهار تقريبا، سواء في إعداد الطعام أو الخبز الذي كان يخرج بأشكال متعددة، وكانت تلك المرة الأولى التي أتذوق فيها البليلة باللبن والسكر، وتعجبت من وجود السكر في كل شئ.

بعد أن مكثنا قليلا، أخذني جدي معه على الحمار إلى تلك الغابة التي كانت مزروعة كلها بأشجار الموز والبرتقال، كانت حبات الموز تتلون بين الأصفر والأخضر، وكنت أظن بأن المكان يمتلئ بجنياتي اللاتي يلعبن فوق فروع الأشجار، لكن تلك الفرجات المعتمة بين الأشجار – هناك بعيدا – كنت أعتقد جازما بأنها تخفي كثير من العفاريت والجان ولذلك لم أكن أقربها.

كان جدي جالسا يشرب الشاي مع أصدقائه يتطلع لي كل لحظة ليتأكد من أنني لم أقم بأي عمل شائن، ثم أمر أحد الأولاد الكبار من أبناء أصدقائه بأن يكون معي دائما ولايتركني، كان يعلم من أبي أنني كثيرا ما تأخذني قدماي إلى أي مكان، وأنني يمكن أن أختفي بسهولة في أي مكان، وهكذا ظللت بصحبة عبد العزيز ابن شيخ الخفر الحاج رمضان هذا الرجل الطويل للغاية الذي يطول بيده أفرع الأشجار العالية فيقتطف منها مايشاء، كنت أظن بأنه أطول إنسان رأيته في حياتي، الغريب أنه كان يعشق الغناء على الرغم من عمله كشيخ للخفر، لكني لم أره يحرس أي شئ، كان يسحر جدي ورفاقه بغنائه الجميل، حتى أنني قضيت عدة أيام أنا وجدي لديه في بيته نستمع لغنائه كل ليلة، وكنت أنام على صوته في حجر جدي في نهاية الأمر، وهكذا كنا نتنقل من مكان إلى آخر، أكلت الذرة المشوية وسنابل القمح الخضراء المشوية، وحبات البصل الكبيرة المشوية في الفرن التي كانت ذات طعم لذيذ مازال باقيا في فمي، كان كل شئ مختلفا عما أتيت منه، وكان أبوللو غائبا عني أغلب الوقت، لماذا لم أفكر فيه في تلك اللحظات، لاأعرف، كان المكان هادئا تماما، كل مافيه هادئ حتى الكلاب كانت هادئة تتمسح فينا أغلب الوقت، حتى تلك البقرة التي كانت تجر الساقية، وقد وضعوا على عينيها تلك

القطعة الجلدية فتستمر في الدوران دون توقف، تطلعت إلى قاع الماء في الساقية، وشعرت بأن هناك عفريتا يختبئ بها، فجفلت بسرعة، وذهبت بعيدا مع عبد العزيز.

كانت متعتي الكبيرة هي أن أركب الحمار وأركض به بعد أن تعلمت كيف أمتطيه وكيف أسيره كيفما أريد، كما كنت أيضا استمتع باستيقاظي بين يدي جدي في الصباح الباكر بعد أن يكون قد صلى الفجر، ثم ينهضني لأكل البليلة باللبن أو الشعرية المقلية بالسمن والغارقة أيضا في اللبن، وحين حاولت ذات مرة العوم في الترعة الصغيرة بعد أن نزعت عني ملابسي ووقفت بلباسي الداخلي محاولا تسلق شجرة الجوافة لأقفز من فوقها إلى الماء الذي كان يحمل أحيانا قطع قديمة من الأخشاب المشبعة بالماء وجثث لبعض الحيوانات وأحيانا يكون رائقا للغاية كأن مسه سحر، وقفت مترددا قليلا فوقها وكان عبد العزيز قد سبقني إلى الترعة، لكنني فوجئت بصياح جدي لي فارتعبت منه لأول مرة، فنزلت إلى الأرض وارتديت ملابسي على مضض وأنا أشعر بالخيبة أمام عبد العزيز الذي كان في قفزة واحدة قد خرج من الماء وارتدى ملابسه هو الآخر، وأيقنت بأنني وإن كنت حفيده فإن هناك حدودا لما يمكن أن أقوم به هنا.

كان النوم مبكرا للغاية بعد أفول الشمس ولم أكن متعودا على ذلك، وكنت أشعر بالدفء الشديد في غرفته التي عرفت أركانها كلها، كان سريره من النحاس لامعا عاليا بشكل كبير، كانت أعمدته تقترب من السقف، وكنت أحاول تسلقها، وكان هو يجلس على السرير ويضحك، وحين ينهكني التعب أذهب إلى حضنه الدافئ فأنام، وكان يلقي إلى بنقود كثيرة لأشترى ماأشاء وكنت قد أحببت كيزان السكر البنية فكنت أبتاعها دوما من المرأة ذات الملابس السوداء المتربة الجالسة على ناصية الحارة التي بها بيت جدي، إلى أن كان هذا الصباح اللعين.

(٨٥)

كان الخريف قبل الحرب مباشرة ، حدث مالم يكن في الحسبان، كان سيد ترسة، عائدا من الصيد، وكان يجر أمامه عربة خشبية هو وبعض صبيانه فوقها ترسة كبيرة وأسماك كثيرة، وكنا إذا رأينا ذلك أدركنا أنه سيقوم بتوزيع هذا الصيد على شقق عماراتنا المتجاورة في الشارع، وكثيرا مافعل ذلك، فكان يقوم بذبحها وسط صراخنا الطفولي، ثم يقوم بتقطيعها وتوزيعها علينا، فنالنا قطعة كبيرة من لحم الترسة، لم تكن تختلف كثيرا عن اللحم العادي، وبقيت أنا في الشارع بعد أن رأيته يقوم بتوزيع تلك الأسماك، لاحظت أولا أن رأس الترسة مازال صاحيا لم يمت، ثم لاحظت أوراق الشجر التي كانت تسقط بغزارة على الأرض، وكان الخريف في نهايته تقريبا، وكانت أوراق الأشجار تركض سريعا متدحرجة على أرض الشوارع ثم تختفي فجأة ولم أكن أعلم إلى أين تذهب، وكان المربع الذي بين عماراتنا الذي يفرشه الحشيش قد اصفرت حشائشه تماما وأوشكت أن تزول، وكان الليل قد بدأ يحبو على وجه المدينة حين بدأ الكثير من الناس يظهرون ومعهم تلك الخيرزانات الطويلة التي كانت تستخدم في محاولة اصطياد الوطاويط السوداء التى انتشرت فجأة وكان يقال بأنها تلتصق بوجه الإنسان إذا أصابته فلاتتركه إلا بعد أن تمتص دماءه، فتتركه بلا دماء، ويقال إنه يتحول إلى هيكل عظمي بعد ذلك، وكنا نرتعد جميعا من هذه الفكرة، خاصة أنني كنت قد شاهدت وطواطا ميتا، وكان قاتم اللون ذو وجه قبيح للغاية، كان وجه كلب على أنف خنزير رأيته كثيرا في المجلات التي يحتفظ بها ياني، وله جناحان جلديان، كيف تم بناء هذه الأجنحة لهذا المخلوق العجيب؟ أليس من الممكن أن تكون لنا نفس الأجنحة حتى نستطيع الطيران؟ ومع ذلك كنت أفكر من ناحية أخرى بأن هذا الوطواط قد انسخط بسبب أجنحته، لكنني كنت أعود مرة أخرى وأتذكر بأن هناك كثير من المخلوقات بأجنحة ولكن لها وجه جميل مثل كل الطيور، وعندما حدقت في وجه الوطواط أكثر لمحت أنيابه الكبيرة فلم أستبعد أبدا من رأسى فكرة مص الدماء، لذلك كان علينا أن نتخلص منها نهائيا، كنا قد خرجنا جميعا إلى الشوارع في موسم صيد الوطاويط التي كانت تطير في كل مكان، وكان سيد ترسة قد انتهى في ذلك الوقت من عملية توزيع بقايا صيده، أما جميع أهل المنطقة والمناطق الأخرى فهم مشغولون في عملية صيد الوطاويط، وبعد أن ذهب سيد إلى شقته، ماهي إلا لحظات إلا وبدأ الصراخ يعلو منها، توجهنا جميعا ناحية منزله، خلق كثيرون، حتى لم يعد هناك مكان لقدم، رأيت سيد يمسك بخناق خالي مسعد، الذي بدا واقفا ببنطلون البيجامة الخاص بسيد الكستور وفالنه حمالات ويرتعد بين يديه، أما القطة زوجته فكانت بالداخل ترقع بالصوت الحياني*، وكان الجميع يضحك على هذه الجرسة، وفي الشارع تعرض خالي مسعد لضرب من سيد لم يأخذه

---

*الصوت الحياني: أى كان صراخها عاليا، وربما كانت صفة الحياني هنا مأخوذة من صوت باعة البلح الحياني الذي كان باعته ينادون بصوت عال عند بيعه.

حمار في مطلع، وكان الجميع يضرب إلى أن أصبح وجهه كله ممتلئا بالدماء ولم يتدخل أحد من أهلي ولا أنا في البداية ولما أحس أبي بأنه يجب أن يضع حدا لما يحدث، نزل إلى الشارع وسحب خالي مسعد من بين يدي سيد الذي كان يقسم بأنه سيقتله، وعده أبي بأن حقه سيصله، لكن يجب الهدوء أولا حتى يمكن التفكير في حل، كانت علاقة خالي مسعد بالقطة علاقة غامضة، كان يزورها بعد غياب سيد، ولم أفهم أبدا لم كان يزورها، ربما بعد ذلك بسنوات اتضح الأمر جليا لي، لكن عمله الأسود وقف له بالمرصاد هذا اليوم، وأخيرا تركه سيد السماك، بعد أن رمي بيمين الطلاق على إمرأته التي أقسمت بأنه ليس بينها وبين خالي مسعد أي شئ فيما كان سيد يشخر لها، قالت بأنه كان يصلح لها الحنفية التي انفجرت فجأة فكاد البيت يغرق، كان السؤال الذي تردد كثيرا، لماذا خالي مسعد وليس أى أحد آخر؟ فاضطرت القطة إلى أن تعطيه ملابس لسيد بعد ابتلال ملابسه، ولم ندر ماهي الحقيقة تماما في هذا الأمر، لقد حاول سيد السماك قتلها عدة مرات لكنه لم ينجح، وكنت أعتقد بأنه لايريد قتلها فعلا وإنما كان يفعل ذلك دفاعا عن شرفه، وفي النهاية لم يجد بدا من أن يرمي عليها يمين الطلاق، وأن يطردها إلى بيت أهلها فذهبت إلى علية القرص حيث مكثت لديها عدة أيام، لكنها عادت إليه بعد مضي عدة ليال بعد أن استطاع الجميع إقناعه بأن كل ماقالته القطة كان حقيقيا وكان هو لديه الاستعداد للقبول بعد أن أحضر خالي مسعد المصحف وحلف عليه أمامه، عادت إليه كأن شيئا لم يحدث، أما خالي مسعد فكان قد ترك بورسعيد كلها وأقام بصفة شبه دائمة بالإسكندرية خلال تلك الفترة وبعد عدة أسابيع لم يعد أحد يذكر شيئا من تلك الحادثة ، لكنني سمعت هذا الحوار في المساء قبل أن يرحل خالي مسعد بينه وبين أبي، وكان أبي مصرا على أن خالي مسعد له علاقة بالقطة فيما كان خالي مسعد ينفي ذلك، وفي النهاية اعترف بأنه يحبها منذ زمن طويل، وأنه لايستطيع الابتعاد عنها، فنصحه أبي بالخروج من بورسعيد لأن المرة القادمة لن يفلت من خنجر سوف يتم غرزه في قلبه بيده هو قبل يد سيد السماك، فارتعدت من هذه الفكرة، وسرعان ماغادرنا خالي مسعد بضعة أسابيع، ثم عاد بعد ذلك، ونسي الجميع الأمر، صحيح أنه كان يغادرنا لأيام لكنه كان يعود بعد ذلك ويمكث لأيام، وتأكدت بأن السواحلية كلهم هكذا، يصيحون، دون أن يفعلوا شيئا، ربما يصل الأمر للشكل وبعض الدماء لكنه لايتعدى هذا الأمر، كانوا يعلمون بأن عدوهم هو البحر وليس أصدقاءهم وجيرانهم مهما فعلوا، ومثلما كانوا يلعنون البحر بسبب قسوته واختفاء بعض الأصدقاء منهم أثناء رحلات الصيد الطويلة فيه، فإنه كان ملاذهم أيضا في ساعات الضيق، كانوا يعيشون عليه ومنه، هكذا هم جميعا مترددون وغير حازمين فيما بينهم، يصيحون أكثر مما يفعلون، لكن ذلك لم يمنعهم من التضحية بأنفسهم عندما يستشعرون الخطر الحقيقي الآتي من الآخر.

(٨٦)

في الصباح استيقظت وكان الوقت متأخرا، استيقظت على صوت بكاء عماتي وبناتهن وكن جالسات متشحات بالسواد على الأرض، ولاحظت أن جدي لم يستيقظ في هذا اليوم أيضا، كان نائما بجواري وكان مغطى تماما، حتى رأسه كانت مختفية تحت الغطاء وقد ظهر أمامي أنه طويل للغاية، وكن قد تركنني نائما بجواره، إذن طلعت روح جدي وهو نائم بجوارى، وكنت متعجبا من ذلك، رفعت الغطاء من على وجهه ، وصحت به:

- جدي.. جدي..جدي..

فيما ارتفعت صيحات عماتي وصراخهن وولولاتهن، مددت يدى نحوه أهزه وكان جسده دافئا للغاية، فتحت عينيه، أتطلع إليه، لم يبد أى حركة، إلى أن أتى واحد من أزواج عماتي ورفعني من على السرير من جانبه، وقامت عمتى الصغرى بغسيل وجهى وكانت تبكي، ثم وضعت لي الإفطار وكان مختلفا هذه المرة عن الإفطار الذي كنت أتناوله مع جدي وأدركت أن جدى الثاني قد مات، وأن الوقت قد حان لتختفي كل جذوري، فهمت من الحوار الذي يدور حولي أن أبي قادم إلى القرية بعد الظهر من بورسعيد، خرجت أنا وزوج عمتى وعبد العزيز على المحطة لانتظاره وكان معنا أناس كثيرون، وحين هبط أبي من القطار، ركضت نحوه، كانت عيناه منتفختين من البكاء، وبعد ليلتين من البقاء في القرية، رحلنا أنا وأبي إلى بورسعيد مرة أخرى تاركين على المحطة جميع عماتي وأزواجهن وأبنائهن وكان أبي قد وعدهن بالعودة بعد عدة أيام لاقتسام الميراث، كان الوقت ليلا أيضا حين دخلنا المدينة، نسيت موت جدي بعد أن شممت رائحة البحر المالح، ولفح هواؤها الجميل رأسي، كنت أحلم بكل أماكنها التي تركتها، وكنت أتطلع في جميع الأركان ونحن راجعان أنا وأبي، أبحث عن أي شئ يكون قد تغير فيها، لكنني لم أعثر على مظهر واحد لأي تغيير يكون قد حدث، وكانت أضواء المدينة كلها تتلألأ، وكان باعة السمنية والتمرية كما هم تتصاعد أبخرة مايعدونه أمامهم، وكانت الحناطير بجيادها تركض في كل مكان، وكانت النساء بملاءاتهن اللف وقد ظهرت منهن سمانات أقدامهن البيضاء منها وهن يدرن في المدينة في كل مكان، كانت تلك المدينة التي أحببتها، استقبلتي ستي بالأحضان والقبلات وكذلك أمي وخالاتي، وكان أبي صامتا، وبكت أمي معه كثيرا بينما سهرت أحكي لأخوتي عن كل مغامراتي بالقرية، وأخيرا انسللت من بينهم إلى حجرة ستي حيث نمت على ذراعها بعد أن حكيت لها كل

ماجرى، وحين أتى جدى بعد عدة ساعات أيقظني وقد أحضر معه قطع السمنية والتمرية فالتهمتها بينما أخذ هو في مداعبتي، وقال لي قبل أن أعود للنوم مرة أخرى ستأتي معي للصيد غدا، فقفزت عليه أقبله، فانطلق ضاحكا وهو يربت على ظهري، وعدت للنوم مرة أخرى في أحضان ستي تحت لحافها القطني كأن شيئا لم يحدث.

(٨٧)

أتت كريستينا وكان غريبا أن أراها بدون اللباس الخاص بها الذي رأيته عشرات المرات من قبل، كانت ترتدي هذه المرة ذلك الفستان الأزرق العاري الكتفين، وكانت تبدو جميلة للغاية، جميلة هذا الجمال الساحر الغريب، الذي لاتملك إلا أن تتوقف أمامه وتتساءل من أي جنة أو أرض جاء، كنت أعتقد بأنه يوما ما سينبت لها جناحان وستطير إلى أعلى، إلى هناك، إلى أبوللو، كنت أعتقد أيضا بأنه ربما يتزوجها، خاصة إذا علم بأنها جريجية وتتكلم لغته، وأنه لاينقصها الجمال على الإطلاق، كانت تسير مع خالتي أم هاشم هي وهذا البحار الذي قالت خالتي إنها ستتزوجه، كانوا يتفقون على شئ ما، وكنت أنا غارقا مع هدى فى الركض على الشاطئ وحفر تلك الثقوب في الرمال وإغراقها بالماء، كنا نبني تلك القلاع والحصون، وكان (ياني) جالسا تحت الشمسية يرتدي تلك النظارات السوداء وكان نائما يشخر، وبين قدميه تلك البطيخة النمس الكبيرة، وأعلى الشمسية كان الراديو يذيع تلك الأغنيات الجريجية، كانت أقرب إلى السمسمية، كان يزداد يقيني بأنه هناك صلة قرابة غريبة بيننا وبين هؤلاء الجريج، أمسكت هدى في يدي، وتوجهت نحو كريستينا كنت أريد لها أن تعرفها، وبعد أن احتضنتها وقبلتها وأخذت تحدثها بالجريكية التي كانت تعرفها هدى أيضا، فجأة سألت كريستينا مالذي جعلها تخلع فستانها الأبيض وقلنسوتها البيضاء، فهمت من خالتي أم هاشم التي تدخلت شارحة الأمر لي بأنها قررت أخيرا أنها لاتصلح للعمل الديني، ولأن ذلك لايتماشى مع حالات تمردها، ولم أكن أفهم كثيرا ماهو عملها، لكنني كنت أتابع (ياني) أحيانا كل أحد وهو ذاهب إلى الكنيسة في بورسعيد وأحيانا في بورفؤاد، كان يقول إنه ذاهب إلى الكنيسة، وكان يرتدي تلك القبعة البارزة من الأمام التي تغطي مقدمة رأسه، ويمتطي بسكليتته ويأخذ في التصفير الخفيف بلحن يوناني يحبه، كان يذهب وحده ويعود وحده، كنا نراقبه من فوق سطح العمارة أنا وهدى أحيانا، وكنت أتساءل ماهي هذه الكنيسة التي يذهب إليها؟!،

وكان غريبا لي أيضا أن أراه راجعا في المساء بهذه اللفافة في يده التي كنت أعلم جيدا بأنه يخبئ فيها زجاجة منقوع الصرم الذي يشربه في المساء!.

لم تكن الإجابة مهمة، قال لي أبي إنها جميعها بيوت الله، وكنت أعتقد بأن هناك فرقا كبيرا بين الله وبين أبوللو، فالله هو الذي نعبده ونذهب إلى الجامع من أجله ونصلى له ونصوم ونقول التشهد، أما أبوللو فكان إلها من نوع خاص، إله خاص بي، إله انبثق من خيالاتي، وأكدته كثير من الأحداث، لماذا لم أكن أدعو الله الخاص بنا؟ كنت أدعوه فقط حين تمرض جدتي أو أمي أو أحد إخوتي، كنت أفكر فيه أحيانا، لكن أفكارى لم تذهب بعيدا كما ذهبت مع أبوللو، كان أبوللو مجسدا لي، فكنت أعتقد بقربه، أما الله الخاص بنا فكان في كل مكان كما قال لنا مدرس الدين، لكن مدرس الدين لم يستطع أن يثير انتباهي كما أثار الأستاذ عوض انتباهي، كانا شخصين مختلفين تماما، والحقيقة أنه أغلب الوقت لم يكن هناك مدرس دين في المدرسة، فكانت أسئلتي تتوقف، أما أسئلتي حول أبوللو فلم تكن تتوقف.

لم نكن نخوض في تلك المسائل الدينية لاعتبارات تتعلق بعدم الرغبة في إحراج أى شخص آخر من ملة أخرى كما قال لي أبي، قال أيضا بأننا جميعا إخوة مهما اختلف الدين، وكنت مقتنعا بذلك تماما، فكنت أحب (ياني) وكريستينا أكثر كثيرا من أشخاص كانوا أقرب لي، فلم يرتكبوا نفس الأخطاء التي ارتكبها هؤلاء الأقرباء أو الأصدقاء، هكذا بدأت أفهم الدين، لكنني كنت مقتنعا تماما بأن أبوللو إله كبير لبلاد اليونان، وليس لنا، لكنني يمكن أن أطلب منه مأشاء هكذا قال لي الأستاذ عوض الحارتي مدرس التاريخ ولم أشك فيما يقول أبدا في أي لحظة، وقال عنه الكثير أيضا.

إذن فقد قررت كريستينا البقاء في بورسعيد لبعض الوقت بعد أن قررت ترك الكنيسة والتحول نحو العمل في القاهرة في السفارة الجريجية، وأنها ربما تتزوج هنا أيضا، وأنها يمكن أن تستقبلني في البيت الذي استقبلتني فيه أول مرة في بورفؤاد إلى حين انتقالها للعمل في القاهرة، وكنت أعد نفسي لهذه الزيارة قبل الحرب مباشرة.

(٨٨)

كنت قد قررت أن أذهب مع لبنى مرة أخرى إلى هناك، إلى شاطئ الجميل، بين تلك الرمال، وكنت حذرا من أن يعرف الولد سيد الفحام بخبر ذهابي أنا وأخته، وأطلعت هدى فقط

على سري فصممت على الذهاب معنا، وكان ذلك صباح الإجازة، فخرجنا نحن الثلاثة ومشينا حتى هناك، أحضرت لبنى تلك الساندويتشات الممتلئة اللحم والسمك، بينما أحضرت هدى ساندوتشات الجبن الرومي وقطعة من البطيخ، وقطع من الجبن الرومي والكسبة، أما أنا فأحضرت كيسا به الكثير من سمك البربوني المقلي وثلاثة قطع حناجل وثلاثة أرغفة، وزجاجة ماء، أخذتهم من جدتي وخالتي حنان بعد أن أقنعتهم بأنني لن أغيب، وكانت خالتي جالسة تكتب خطابا لعمي حامد الفاروقي في اليمن قبل أن يعود إلى بورسعيد، كانت تقول له إنها أنجبت ابنته الأولى، وأنها تتمنى أن يراها، تركتها تكمل كتابة خطابها بعد أن أعطتني ماأريد، وقلت لها أن ترسل سلامي إليه وأكدت عليها ذلك، وكنت أضع تلك المجلة تحت قميصي، كانت مجلة أطفال تحتوى موضوعا كبيرا عن أبوللو، كنت قد اشتريتها من الكشك الذي يقع على ناصية كسرى من بقية النقود التي احتفظت بها معي والتي كانت عمتي الصغرى قد دستها في يدي قبل مغادرتنا، وهناك بين تلك التلال، اخترنا بقعة تقع بين تلين من الرمال فلا يرانا أحد، جلسنا نقرأ المجلة نحن الثلاثة

- تفتكروا أبوللو هو كده فعلا
- انت شاغل نفسك بسي أبوللو بتاعك ده ليه (سألتني لبنى)
- مش عارف حاسس انه يمكن علشان شبه جدى ويمكن شبه عبد الناصر..
- بس عبد الناصر مش كده خالص.. وجدك أبيض وعينيه زرقاء واقرع..
- مش عارف حاسس ان فيهم شبه من بعض..
- انت بتحبه قوي كده (سألتني هدى)
- مش عارف.. عايز أبقى زيه..
- يعني إيه تبقى زيه..

نهضت واقفا وقلت

- عايز أطير.. ألمس النجوم.. امسك الجنيات الصغيرين.. أحقق أحلامنا كلنا.. عايز أبويه يكسب انتخابات المصنع.. عايز جدي وستي يعيشوا على طول.. عايز تبقى عندي أجنحة وأروح جبال الجريك هناك.. عايز عمي حامد يرجع م اليمن.. عايز كريستينا ماتمشيش.. عايز بورسعيد تبقى جنه كلها.. مش لما المطرة بتنزل بورسعيد بتبقى جنة.. حلوه شكل الجنة عندنا خصوصا لما تقرب الأرض تنشف منها.. مش عايز نكبر ونبقى عواجيز.. عايز نفضل صغيرين على طول.

حكيت لهم عن تلك الجنيات الصغيرة اللاتي يظهرن لي، وعن كل مافعله معي أبوللو، نهضت لبنى واقفة عقب انتهائي من المجلة وقد بدأت تخلع ملابسها وتشجع هدى على ذلك، وبعد دقائق كنا نحن الثلاثة في الماء، لحظات وكانت ضحكاتنا تجوب الفراغ، وطرطشات الماء تتصاعد إلى أعلى ثم تهبط في شكل موجات صغيرة لايمكن ملاحظتها بسهولة، وعلى البعد كنت أرى تلك المراكب الصغيرة.

(٨٩)

قال لي الضابط الكبير:

- أنت اليوم أحسن.. كنت عاوز تروح فين.. لكريستينا قلت.. بس كريستينا زي ماكتبت في الضفة الثانية من القناة.. في بورفؤاد وماعادش فيه حد بيروح هناك، لكن هاأشوف طريقة.

كنت أتطلع إليه غير مصدق بأنه سيساعدني على الذهاب إلى هناك، قال أيضا بأننا يمكن أن نذهب إلى هناك في أحد المراكب الصغيرة في الليل، كنت جالسا طول النهار أحلم بما سأفعله حين أقابل كريستينا، وماذا سوف أقول لها، كنت أظن أنني يجب أن أقول لها أنني يجب أن أرحل معها إلى القاهرة إذا كانت سترحل، أو أظل معها إلى أن أعثر على أهلي أو تنضم إلى عمي خضير للبحث عنهم، كنت أعتقد بأنني سوف أكون أكثر راحة إذا وجدتها، كنت أريد العثور على كل من كان لي بهم صلة حميمة لينقذوني مما أنا فيه، كانت الوحدة قد بدأت تطغي على كل أفكاري، وكنت متعجبا من ذلك، فكثير من الأيام كنت أغافلهم وأتركهم، لقد قررت أنني أبدا لن أبتعد عنهم بعد ذلك، كانت بورسعيد صغيرة للغاية، فإلى أين ذهبت سأعود.

في المساء أقبل الضابط وعلى وجهه تلك الابتسامة الواسعة، أخبرني بأنه وجد مركبا صغيرا بمحرك سيقودها أحد عساكره وأنه سيذهب معي، وهكذا في قلب الليل كنت أنا وهو والعسكري، كان العسكري يوجه دفة المحرك في الظلام وكنت أحاول العثور على أي ضوء في الطرف الآخر، يتراقص قلبي من الفرح، في كل مسافة تقترب من الضفة الأخرى تتسع أحلامي، سألقي بنفسي في أحضانها، أما القمر فكان غير موجود.. غائبا أين لاأعلم، لم يكن أي شئ ليردعني عن عدم الذهاب حتى لو اضطررت إلى العوم للضفة الأخرى من القناة،

وكانت المعدية أمامنا غارقة يبدو شبحها في الظلام الدامس وكانت هناك سفن أخرى غارقة ولم يكن هناك أي أحد، لقد ذهبنا من شاطئ بورسعيد إلى شاطئ بورفؤاد وبدأنا الرحلة الصغيرة قريبا من قاعدة تمثال دي ليسيبس، كان الوقت يمر بطيئا وكانت عيناي تدوران في كل مكان، وأخيرا كانت المركب قد وصلت إلى الضفة الأخرى حين هبطنا أنا والضابط الذي قال للعسكري أن ينتظرنا حتى نعود، كنت أريد أن أقول له بأنني لن أعود معه وبأنني سأنام تلك الليلة في أحضان كريستينا حتى لو رفضت الراهبة الكبيرة في السن، ربما كان يمكن أن أستخدم خاتم سليمان للعثور على كريستينا لو كنت وجدته أنا وجدي.

(٩٠)

قال لي جدي إنني يمكن أن أجد خاتم سليمان في أحشاء أي سمكة، وكنت أنا وهو قد خرجنا للصيد في قارب كبير وكان معنا كثير من الصيادين، كان البحر هادئا، وتم فرد الشراع على آخره، كانت الريح خفيفة وفي اتجاه الشرق، حتى وقفنا هناك قرب العريش، كنت جالسا على السطح أشاهد طيور النورس وهى تغوص إلى الماء تحاول التقاط الأسماك، فتوقفت المركب هناك، وألقت بشباكها، وحصلنا على كمية كبيرة من أسماك السردين، جلست على الأرض أنتقي السمكات الكبيرة منها وأفتح بطنها بسكين جدي وأحاول البحث عن خاتم سليمان، وحين سألني جدى عما أفعله ؟ فأخبرته بما يدور في رأسي، ابتسم وتطلع في وجهي مليا، ثم هز رأسه قائلا :

– طب كفاية كده هاتبوظ السمك كله..

قلت له إن هذه آخر سمكة سأفتح بطنها، ولما كانت خالية أيضا، فإنه قد أسقط في يدى فحاولت النهوض لتقفز هذه السمكة أمامي، فرفعت قدمى ودست على بطنها وفجأة وجدتها أمامي تلمع، كانت بيضاء كبيرة، لم أكن أتوقع على الإطلاق العثور على تلك اللؤلؤة حتى أنني صرخت، فالتفت إلى جدي وتطلع إلى اللؤلؤة التي كانت معلقة هناك بأمعاء السمكة الكبيرة، فانحنى عليها وأمسك بها يتفحصها، ثم انتزعها من الأمعاء وقام بغسلها وكنت واقفا بين يديه تملؤني أحاسيس شتى، لقد عثرت أخيرا على ماأريد، وأخذ يتطلع إليها، ابتسم وناولني إياها وقال.

– حلال عليك هذا هو فص خاتم سليمان..

فانشرحت أساريرى وكان جميع الصيادين يضحكون.

حملت لؤلؤتي إلى جدتي في البيت، وسألتها عن صحة ماقاله جدي فابتسمت هي الأخرى وقالت بأنه يضحك علي لكنني لم اصدقها، فانسللت من حجرها إلى الحمام حيث أخذت أدعك في الفص منتظرا أن يخرج لي جني سليمان لكنه لم يخرج، كان عنيدا تماما، أو هكذا ظننت، وحين كلت يدي من عملية حك اللؤلؤة، توقفت وأنا ألهث، وقررت إهداءها إلى كريستينا حين أراها، ولم أدرى على وجه التحديد لماذا؟! لماذا لم أفكر في إهدائها إلى هدى مثلا؟!.

(٩١)

كنت أنا وهدى ولبنى نلعب هناك في قلب الماء حين لاحظت تلك الطائرة الصغيرة القادمة من السماء، توقفنا عن السباحة ونحن نتطلع إليها، كانت فوقنا تماما، وخيل لي أنني رأيت طيارها، كان يرتدي تلك النظارة السوداء الضخمة، تمنيت لو أنني أقود تلك الطائرة، كنت أظن أنني يمكن أن أصل إلى أبوللو لو ركبتها، فانسللت من الماء وتركتهما هناك وقلت إنني سأعود حالا.

ركضت إلى الشاطئ فارتديت ملابسى بسرعة وركضت نحو البوابة الخاصة بالمطار حيث كان هؤلاء الجنود يقفون هناك، فوجدت أننى لاأستطيع الدخول، فتوجهت نحو السور الذى يقع ناحية البحر وحاولت الصعود فوقه، فوجدت نفسي عاجزا، كان عاليا للغاية، حاولت عدة مرات فلم أستطع، فعدت مرة أخرى إلى البنتين فخلعت ملابسي وقفزت إليهن مرة أخرى في الماء.

كان هذا آخر عهدي بالجميل لحظة إحباطي في تسلق السور، وأدركت كم أن قدراتي محدودة في الفعل الطبيعي، كان لابد لي من أجنحة أبوللو حتى أستطيع الطيران فوق المطار هناك ورؤية تلك الطائرات الصغيرة القابعة في أرض المطار.

خرجنا من الماء ثلاثتنا، أكلنا وفتحت المجلة لهما أريهما مرة أخرى صورة أبوللو وأقرأ لهما ماهو مكتوب وكانت لبنى تلعب في أصابع قدمي غير منتبهة على الإطلاق لما أقوله، أما هدى فكانت مستغرقة معي في متابعة ماأقوله، انتهيت، ونهضت وهما معي

خارجين إلى الطريق، كان الوقت ظهرا وكنا قد اقتربنا من منطقة الاستاد، فقلت لهما إنني سأذهب إلى الشاطئ فقررا الذهاب معي، كنت محبطا للغاية، أشعر بأنني صغير، صغير للغاية، كما كانت تسميني ستي أحيانا عقلة صباع، لم يكن بمقدور عقلة الصباع أن يفعل شيئا، عاجزا تماما.

لاحظنا هذه اللمة من الناس ولما دخلنا بينهم أدركت أن في الأمر مصيبة، كان سيد الفحام راقدا على الأرض لايتحرك فيما كان أحد الرجال يحاول إخراج الماء من صدره، بكت هدى أما وجه لبنى فكان جامدا للغاية أو هكذا ظننت، وأحسست بأنني عاجز للمرة الثانية عن أى شئ، لم أتمن له الموت على الإطلاق، توجهت هذه المرة إلى أبوللو، تمنيت منه أن ينقذ سيد الفحام على الأقل من أجل أمه عليه القرص، فرغم كل مافعلته وتفعله، كنت أراها امرأة مضحكة، فجأة سعل سيد على الأرض وأخرج ماء كثيرا من فمه وبدأ يفيق، فانطلقت دموع عيني، وتطلعت إلى أبوللو هناك، كنت أشكره وحين استطاع سيد الوقوف، كان في حالة إعياء تامة، سار معنا حتى البيت ودخلت معه إلى شقتهم، جلست دقائق أنا وهدى ثم خرجنا لانلوى على شئ، جلست أنا وهي على سلم العمارة، كنا نتحدث عما جرى، احتضنتني فجأة وكانت تبكي في خوف، لا أدري لماذا احتضنتها أنا الآخر، كنت أشعر شعورا غريبا للغاية، كنت أعتقد بأنني أحبها، حبا مختلفا عن هذا الحب الذي أكنه لاخوتي، كانت محبوبتي السرية التي لم أستطع أن أبوح لأحد بما يكنه قلبي الصغير لها، كنت أراها حلما صغيرا، تركتني وقالت لي لاتتحرك، دخلت شقتهم وعادت بعد لحظات وفي يدها هذا الراديو الصغير الأخضر، أخذت تحرك المؤشر الذى أصدر شوشرة متقطعة، ثم توقفت على إحدى المحطات التي تذيع أغنية لأم كلثوم، كانت تغني "انت عمري" ولم أكن أفهم جيدا كل ماتقوله، وضعته على السلم بجانبنا، ثم تقدمت حتى التصقت بي وهي تمسك بذراعي، أحسست بدفء غريب، وبدأنا الاستماع في سكون عميق ونحن يتطلع كل منا إلى الآخر، ثم وبهدوء شديد وكانت كل الأصوات غائبة أو متوقفة سواء من السلم أو الشارع أو حتى العالم، انحنت نحوي تقبلني فأغمضت عيني وأنا أنتظر تلك القبلة الأولى الصغيرة للغاية.

(٩٢)

عدت إلى خالتي حنان وكانت قد انتهت من كتابة الخطاب، جلست بجانبها وأخذت أتطلع إلى هذا المخلوق الصغير تماما الذي أنجبته والراقد في هدوء إلى جانبها، ولم يكن أبوه موجودا بل كان يقاتل هناك في مكان ما بعيد اسمه اليمن، احتضنتني وهي تتحدث معي، قالت:

- فاكر عمك حامد..

- طبعا فاكر..

- فاكر أول مرة اتقابلنا فيها..

تطلعت بعيني إلى الصور التي على الحائط، كانت كلها صور للفرح وصور لعمي حامد وهو هناك في اليمن أمام تلك الدبابة هو وبعض أصدقاؤه، كان هناك أبي وأمي وجدتي وجدي وخالتي حنان والجميع، وكانت هناك أيضا تلك الراقصة وقد جلست على ركبتي عمي حامد، كنا جميعا نرتدي ملابس ثقيلة، شعرت حتى في تلك الصور بالبرد الذي كان يجتاح المدينة في هذا الشتاء.

عدت أتذكر المرة الأولى التي التقيته فيها، كنت مع خالتي أقبض على يد خالتي حنان ونحن راكبان المعدية إلى بورفؤاد وكان أبي وأمي معنا، حين قابلناه هناك، كان صاحبا لأبي من المصنع، ولم يكن هناك سبب واضح لذهابنا إلى بورفؤاد، وأدركت الآن أننا كنا ذاهبين للقائه، تقابلنا على المعدية فسلم على الجميع، وتوقف عند خالتي حنان كنت أشعر بأن هناك شيئا ما غريبا في تلك المقابلة، قالت لي جدتي إننا كنا ذاهبين لمقابلته، كان يود التعرف عليها قبل أن يتقدم لها، كانت هذه واحدة من تقاليد الزواج، ولم يكن يمكن أن يتم ذلك في المنزل لأنه قد تحدث اعتراضات من البعض، قضينا طول النهار سويا في الجناين، وكنت أتابع معه تلك السفن الضخمة التي تعبر القناة، وكان يحاول أن يقول لي وخالتي حنان ماهي جنسياتها وبلادها التي أتت منها، كنت أقف معهما طيلة الوقت حتى صاح في أبي بأن أتركهما، فقبض على يدى عمي حامد وقال لأبي بأنه يجب أن يتركني معهما، فصمت أبي على مضض، وبقينا نتابع السفن وطيور البحر الساقطة بسرعة الصاروخ في الماء لتلتقط أسماكا صغيرة، تغدينا سويا وأصبحت منذ تلك اللحظة صديقا له، لم يمكث بعد الزواج شهرا، ذهب إلى اليمن وتركها حاملا في إبنتها، هبط مرة واحدة إلى بورسعيد مرة واحدة ليرى إبنته ويذهب إلى سيناء ليقاتل في هذه الحرب التي انهزمنا فيها، وذهب أبي معه في تلك الليلة إلى واحد من معتقلات مصر، لنفترق جميعا بعد ذلك.

(٩٣)

لم يكن سيد الفحام مجنونا بل فاقدا لعقله، حين قرر أن يسرق تلك المرأة من شـارع الحميدى، كنا سويا هو واللالي وسامبو وميمي وأنا ، حين لمح تلك المرأة وهى تخرج أموالا كثيرة من كيس نقودها، لاأدرى مالذي دفعه إلى أن يراهننا على أنه سيسرقها، لم يكن أحد منا قد فعل ذلك من قبل، ولم يخطر على بالي على الإطلاق أننا يمكن أن نقـوم بـذلك أو حتـى نتخيله، كان في سيد الفحام شيئ مختلف عنا جميعا، توقفنا نتطلع إليه وهو يسير وراءهـا، تعقبها من الحميدى إلى التلاتينى ثم عادت مرة أخرى إلى الشارع التجارى وحتى الإفرنج، ثم عادت ثانية إلى أوجيني لم تترك شارعا إلا دخلته، ولم يتوقف هو عن متابعتها، كان يتحـين الفرصة التي يمكنه فيها أن يخطف كيس نقودها، كان ينتظر لحظة تسهو فيها عنه، كان متأكدا من أنها ستفعل ذلك، وكنا نتابعه من بعيد، كنا نريد التأكد من أنه سيفعل ذلك فعـلا، تحـداه سامبو واللالي بأنه لايستطيع أن يفعل ذلك، ابتسم في ثقة وهو يؤكد أنه سيخطفه منها، لكنه إذا نجح في ذلك فلن يريهما مليما مما سيحصل عليه، بينما لم أتدخل أنا أو ميمي، تركناه يفعـل مايشاء، فقط كنا نراقب الأمر، كنت أعتقد بأنه غير قادر على فعل ذلك، لكنى كنت أشعر بأن الأمر خطير للغاية.

وأخيرا توقفت المرأة هناك لتبتاع خبزا من شارع كسرى قبل كراكون المتاخ مباشرة، وضعت الكيس على حجر الرخام لترفع الخبز، فقفز هو والتقط الكـيس فـي سـرعة وبـدأ يركض، نسى أنه سمين للغاية وأن حركته ليست سهلة، أدركت المرأة بعد لحظات أن كيـسها انسرق فرقعت بالصوت، ووقعت الملاءة اللف من وسطها لتقف في كسرى بحذائها ذو الكعب العال وقميص البيت الذي يكشف عن ذراعين بيضاوين، فركض خلف سيد أحد الواقفين، كان قادما في اتجاهما ذلك الحنطور، لم يره سيد، وصرخ عليه الرجل بل نحن أيضا، لكنه كان قد وقع هناك تحت حوافر الجياد.

توقفنا نلتقط أنفاسنا وكانت دماؤه تفرش الأرض، تطلع كل منا في وجه الآخر، لم نكن ندري ماذا نصنع، أمسك أحدهم بكيس النقود، بينما حاول أحدهم حمل سيد الفحام من تحـت الجياد وكان غارقا في دمائه، ولما لم يستطع الرجل فقد أتى رجل آخر ليحمله معـه، تقـدمنا نحن منه، كانت رأسه مفتوحة وكانت بعض أسنانه على الأرض ولم ندر إن كان قد مـات أم لا، تابعناه حتى ذهابه للمستشفى، وقررنا الصمت، لم يتحدث أحد منا في الأمر وفي الليل لـم أستطع السكوت فأخبرت ستي التي أخبرت أمي، التي أخبرت أبي الذي ذهب للمستشفى مـع

عبده الفحام وعلية القرص، بعد عدة أيام قيل لي بأن سيد الفحام أصبح مجنونا، فقد تركته الحادثة بلا عقل، مع حفرة كبيرة في الراس وكان قد فقد نصف أسنانه، وكانت تلك المرة الأخيرة التى أراه فيها، كان يجلس بالبيت فلايخرج، كان يتحرك بصعوبة ويأكل بصعوبة وكنت متأكدا أنه يوما ما سيتخلصون منه، خاصة لبنى فقد كنت أشعر شعورا غريبا بأنها لاتحتمله وكنت أتخيل بأنها يوما ستقطع رقبته أو تقذف به في مجرور ولا أدري لماذا؟!.

(٩٤)

كنا على شاطئ بورفؤاد من ناحية المتوسط، بدأنا نتحرك أنا والضابط في هدوء ناحية منازل الراهبات اليونانيات، لم أكن أعلم بأننا نخوض مخاطر كثيرة أخذها الضابط على عاتقه، كان هناك شئ يدفعه إلى ذلك، لم يقل لي أبدا ماهو، هل كان إحساسه بالذنب أم أنه أراد التأكد من قصتي؟ أم ماذا؟ وهل صدق فعلا أن إسمي أبوللو زيوس؟ كنت قد أغلقت مسام عقلي، واستنفرت كل أحاسيسى في انتظار أن أجد كريستينا.

كان هناك بعض الجنود الذين يسيرون في الطرقات هنا وهناك، كنت أعلم الآن بأن الإسرائيليين موجودون ليس بعيدا عن المدينة، بورفؤاد هي المكان الوحيد الذي لم يستطيعون احتلاله في هذا الوقت رغم احتلالهم لكل ضفة القناة الأخرى، وقال الضابط إن بعض الجنود الذين نمر بهم ربما كانوا أيضا اسرائيليين متخفين، لم يقل لي أبدا أن الأمر سيكون بهذه الخطورة التي كنت أستشعرها في حركته وانخفاض أنفاسه، وفي تنبيهي عدة مرات بأن لاأحدث صوتا، كنا إذن أول العابرين بعد الحرب إلى بورفؤاد، كنا نتسلل إلى أرضنا كالغرباء، وبين المنازل والأشجار والظلام، وصلنا أخيرا إلى منزل كريستينا والراهبة العجوز، طرقنا الباب تلك الطرقات الخفيفة، أخيرا فتحت الباب، كانت الراهبة الكبيرة، دخلنا سريعا، وأغلقنا الباب خلفنا، لاحظتني ولمحت شبح ابتسامة خفيفة على وجهها، كانت قد رأتني ثلاث مرات تقريبا عند كريستينا، أغلقت الأضواء، وأطلت من النافذة وهي تتوجس، ثم أغلقت النافذة، ثم دخلت إلى الغرفة الداخلية ونحن خلفها.

قال لها الضابط إنه يريد أن يعرف إذا كانت كريستينا موجودة أم لا، ترددت قليلا قبل أن تجيب، لكنها أخيرا أجابت، وكنت أنا أتابع كلماتها، وكنت أحاول معرفة مايجري.

قالت بأنها خرجت في ثاني أيام الحرب، كانت قد قررت الرحيل، ركبت دراجتها، وكانت ترتدي هذا الفستان الأزرق العاري الكتفين، كانت قد وقعت كل أوراق حريتها من الدير وودعت الرهبنة ولم تكن نادمة، أخبرتها بذلك قبل أن تغادر، لم تمش أربع خطوات، أربع خطوات فقط أمام المنزل حين سقطت فجأة أمام المنزل، كانت خطوات أربع إلى الموت، سحبوها إلى الداخل، كانت الرصاصة قد اخترقت صدرها، لاأحد يعلم من أين أتت، لم تعش كثيرا، ساعات وكانت قد انتهت ولم يكن هناك ماينفع لإنقاذها، قالت لها بأن تقبلني حين تراني، وانحنت على وقبلتني قائلة بأن هذه كانت رغبة كريستينا.

لاأدرى إن كنت أبكي أم لا لكنها أقداري، كان الضابط يستمع غير مصدق، وكنت أنا قد بدأت أفقد ثقتي في كل شئ، لم أسألها عن جثتها أو ماذا فعلوا بها، كان واحد من أحلامي يحترق وأنا أستمع، أستمع فقط أو أشاهد، لادخل لي ولا أستطيع، لو كان أبوللو موجودا لما حدث ذلك، كنت أشعر بأنه يتساقط أمام عيني، كيف سمح أبوللو بأن يحدث ذلك لكريستينا، احترق جدي من أمي وجدي من أبي أمامي، أما كريستينا فقد احترقت خلفي، ثم قيل لي إنها احترقت، ماتت، تهيأت لعرسها بهذا الدم، أين كان يختبئ كل ذلك وفي أي أرض، أين كنت أنا وقتها وهي تموت؟ لو كنت حضرت إليها يوم كنت هاربا إليها، هل كنت سأنقذها؟ لم أكن متأكدا تماما من أن ذلك هو الذي سيحدث،.. كان القدر قد أطلق رصاصته، وحين تنطلق فلايمكن لأحد أن يفعل شيئا، كنت أتذكر بأن الآلهة حين يأخذون قرارا لايعودون فيه، حتى زيوس نفسه لم يكن يمكنه ذلك، كنت عاجزا تماما ونحن عائدين، أبكي، أبكي فقط، أتطلع إلى الفراغ، أتذكر كل مافعلناه سويا، كان يجب أن أهديها تلك اللؤلؤة، ربما كانت ستمنع موتها، كل خيالاتي تتداخل، الحرب قاتلة للجميع للمدن والبشر، للأحلام والخيالات، وكان الضابط يربت على رأسي، وكانت دموع عيني تتساقط لاأدرى من أين، إذ كنت أشعر بأنني جاف تماما من الداخل، فمن أين كانت تلك الدموع تأتي؟!!.

كريستينا أيها الملاك العزيز..

كريستينا أيتها القادمة من أرض أبوللو..

جئت إلى هذه الأرض القاتلة لتقتلين برصاص لايفرق بين أحد، جئت لتختطف أحلامك مثلما اختطفت أحلامي، جئت تاركة أرضك هناك بعيدا، لماذا جئت ياكريستينا، لماذا؟

لماذا؟!

لماذا؟!

أين ذهبت أحلامي معك.. أين؟ أين ياكريستينا!!!!!!!!!!!

(٩٥)

أمسكت باللؤلؤة الكبيرة أمام جدتى التي تفحصتها في دهشة، وأخبرتها بأن جدي قـــال لي بأنها جزء من فص خاتم سليمان، انطلقت تضحك وأنا أتطلع إليها في دهشة، كنت مصرا على أنها جزء من خاتم سليمان العجيب وبأنه من المؤكد أن جني الخاتم سيظهر يومـــا مـــا، ربما نحن في حاجة إلى الخاتم نفسه، وأخذت أتطلع في يدها كانت ترتدي خاتما ضخما عليه حجر من اللازورد الأزرق، قلت لها بأنه يجب أن نستبدل هذا الحجر بهذه اللؤلؤة فربما وقتها يتحرك سحر اللؤلؤة، فرفضت بشدة وقالت بأن هذا الخاتم من ميراثها من أبيها ، وأنهـــا لـــن تفعل ذلك أبدا، كنت قد قررت بيني وبين نفسي أن أخلع الخاتم من يدها وهي نائمة، وأخلـــع الحجر اللازوردى منه وأضع تلك اللؤلؤة، وهكذا ظللت مستيقظا إلى أن نامت ولكنـــي كنـــت أظن بأنه سيمكنني السهر، فلم أجد إلا نفسي مستيقظا في الصباح معها، وهكذا ظللت عدة ليال أحاول أن أظل مستيقظا حتى تنام هي فأجد نفسي دائما أنام قبلهـــا أو معهـــا، فأقلعـــت عـــن المحاولة، بعد عدة أيام وجدت جدى وقد أحضر لي خاتما كبيرا وضع اللؤلؤة فيه وأغلق عليها من أطرافها بذؤابات من الحديد كانت تخرج من سطح الخاتم، كان شـــكله جمـــيلا، حاولـــت وضعه في إصبعي فوجدته كبيرا للغاية، فأخذت أدعكه عل الجني يخرج، لكنه لم يخرج أبدا، إلى أن أقنعتني جدتي ذات ليلة بأن هذا الخاتم ليس خاتم سليمان، وبأنه على أن أنسى الأمـــر برمته، وأن أترك الخاتم لأمي، وإذا أردت في يوم من الأيام استخدامه فلامـــانع مـــن ذلـــك، استسلمت أخيرا، وكنت أفكر بأنني يوما ما سأعثر عليه وأستدعي به هذا الجني، وإذا فـــشلت فيجب أن أكون سعيدا لأن أبوللو كان معي دائما لايغادرني.

(٩٦)

لايمكن لنا أن نحدد اختياراتنا بشكل دقيق، هناك لحظات نعتقد فيها بأن اختيارنا لأمر ما قد تم على خيرمايرام لكننا نكتشف أنه كان اختيارا خاطئا تماما، وبأننا نتجرع المر بسبب

هذا الاختيار، هذا هو ماحدث تماما مع عمي خضير، إنه يعترف أحيانا بأخطائه في اختيــار زوجته، وفيما فعله بحياته، وأنه عليه أن يعيد الأمور إلى نصابها فيعترف بهــدى، وكــان (ياني) يقول له بأن الخطأ تراكم فوق خطأ حتى أصبح مستحيلا إصــلاح الخطــأ الأول، وأن مجموعة من الأخطاء المتراكمة تشكل حالة غريبة من الصواب، طالما أصبح هنــاك قبــول جمعي بها، كان عمي خضير يقتنع بذلك وهو مستيقظ وواع، أما حين يشرب هو وياني فإنــه ينسى كل ذلك ويبدأ في الحديث إلى نفسه، بينما (ياني) لايفقد وعيه علــى الإطــلاق مهمــا شرب، فإنه يظل متيقظا تماما لكل مايقوله عمي خضير وإن كان يسقط في النهاية غير متذكر لأي كلمة مما جرى.

هكذا جرى الحوار الذي كان بينهما للمرة الأخيرة قبل أن يخرج معي، لقد عاد إلى (يــاني) ليسأله للمرة الأخيره عما إذا كان مافعلاه صوابا أم خطأ، وبأنه حين يخرج ربما لايعود مــرة أخرى، إذ لايعرف مايمكن أن يحدث، كان يريد قضاء بعض الوقت مع هدى قبل أن يخــرج، هكذا حدثني حين صرنا وحدنا عائدين إلى طريق الملاحات باحثين عن أم أمل للمرة الأخيرة.

كان مصمما على العثور عليها بأي وسيلة، وكان يعتقد بأنها لايمكن أن تغادر دون أن تقول له إنها ستغادر، وكان متأكدا تماما من ذلك، كيف خرجت؟ هل خرجت دون إرادتهــا؟ جميعــا خرجنا دون إرادتنا، لكنها كانت يجب أن تخرج معه، لقد كان معها قبل أربع ليال أو خمــسة بعد الحرب،نام معها، وتحدثا طويلا حول ذلك، وعدته بأنها إن قررت الخروج ستخرج معه، وبعدها، لايمكن أن تغادر هكذا فجأة، لايمكن أن تتركه هكذا، كما أنه كان يلوم نفسه بأنه لــم يذهب إليها بعد أن أخبرني بموت أمي، ولم يكن حتى متأكدا من أن أمي قد ماتت، كنــا قــد انتهينا من كل شئ هو وأنا ولم يبق إلا أن نغادر، ولكنه أرجأ ذلك للعثور على أم أمل.

(٩٧)

استيقظنا يوما على هذا الصراخ، كان آتيا من شقة عليه القرص، وكان عمي حامــد الفاروقي موجودا، نزلنا جميعا، لم يبق في الشقة أى أحد، تجمعنا أمام شقة علية وعبده الفحام، وصلت حتى باب غرفة نوم عبده الفحام، كنت أحاول أن أرى تلك الجثة المعلقة فــي ســقف الغرفة، كانت جثة سيد الفحام، معلقة في هذا الحبل المتوسط السمك، كان الحبل مربوطا فــي إحكام إلى السقف، وكان سيد معلقا به من رقبته، وكانت لبنى هناك تقف بينما تخلو ملامحهــا من أى شئ، كانت ملامح طفلة جامدة الوجه، وكان عبده الفحام يلطــم خديــه، وكانــت الأم

تولول، وهى تقول بأنها رضيت به مجنونا، لكنها رضيت به، كانت تخاطب أحدا في الأعلى لم أدرك من هو تماما، فلماذا خطفه منها الآن.

لايمكن أن أتخيل بأن لبنى هي من فعل ذلك، لكن من سيصدقني إذا قلت ذلك لأي أحد، كانت معي على البحر، جالسون هى وهدى وأنا، قبل الحرب بأيام، حين استوقفتني قائلة بأنها هي التي أقنعت سيد الفحام بأن يعلق رقبته في الحبل ، وأنها هي التي ربطته له، وأوقفته فوق هذا الكرسي، وحين تأكدت تماما من أنه معلق من رقبته، سحبت المقعد من تحت قدميه، كيف تعلمت ذلك؟ وأين؟ تعلق هو فى السقف وانتهى بعد دقائق، كانت واقفة تضحك بينما كان "حنكه" مفتوحا تخرج منه تلك الرغاوي، كان يتطلع إليها وعيناه مفتوحتان، واستمرت في الضحك، وقالت أيضا بأنها أخذت تتحدث إلى جثته بعد أن مات تذكره بكل مافعله فيها من قبل، وبأنها بخلاصها منه فإنها تشعر براحة شديدة الآن.

كنت أستمع في ذهول إلى ماتقول، كانت تتكلم كأن شيئا لم يحدث على الإطلاق، كأن الوجود كله كما هو لم يتغير فيه شئ، كنت أحسدها أحيانا على رباطة جأشها وقوتها، لكني كنت أخاف منها أحيانا، كما كنت أخاف من أخيها رغم أنني كنت كثير الشجار معه، لم تسترح إلا بعد أن قضت عليه تماما ليختفي من طريقها إلى الأبد، كان تفكيرا غريبا أمام عيني، كنت أعتقد دائما بأنها أكبر من سنها بكثير، بكثير جدا، كانت تستعجل طريقها في كل شئ، تركتها هناك تلعب وحدها، بعد أن أمسكت هدى من يدها خارجا من الشاطئ فيما كانت هي واقفة تضحك، وكانت ضحكاتها تصل أذني حتى بعد أن اختفت عن ناظري، أخذت أركض خارجا إلى المنطقة الأولى الشعبية ومنها إلى الحديقة الخالية من الأشجار التي تقع أمامنا، ووجدت نفسي أخيرا أمام عمارتنا، كانت ستي تطل من الشرفة حين شاهدتني فابتسمت لها وابتسمت لى وهى تظن أننا نلعب، وكانت هدى تلهث بشدة وأنا أيضا وكان العرق يتصبب منا، هدأت قليلا ولم أعرف ماذا أفعل، ولا لماذ ركضت بهذه الطريقة الجنونية، كأنني كنت أريد الابتعاد عنها بأى طريقة، لقد قامت بكل شئ دون أن يعلم أحد بما دبرته لسيد، لقد انتهزت فرصة عدم وجود أحد بالمنزل سوى جدتها التي كانت نائمة في غرفتها، حتى إنها بعد أن قامت بذلك خرجت تلعب في الشارع حتى عادت أمها وابوها، فدخلت معهم، قالت إن أمها علية أحيانا ماتشك فيها، لكنها تأخذ في الضحك معها والتودد إليها حتى تنسى.

في المساء كنت في حضن جدتى قلت لها كل ماقالته لبنى لي، كانت تستمع إلى في شك ولم تصدق حرفا واحدا مماقلته، وقالت لي أخيرا بأن خيالاتي تصور لي الكثير، لاأدري لماذا قالت لي ذلك في اللحظة التي أخبرتها للمرة الأولى عن الحقيقة كاملة، صدقتني في كل كذباتي الصغيرة وشطحات خيالي ولم تصدقني في هذه المرة أبدا، كنت متعجبا من هذا الأمر،

وأنا أيضا لم أصر طويلا على الاستمرار في قول هذه الحكاية لها، وأفهمتني بأن ذلك مستحيل لأن لبنى كانت في الشارع مع أبويها، أردت أن أقول لها بأنها فكرت في ذلك وخرجت بعد ارتكابها لهذه الفعلة الشنعاء مباشرة حتى تبعد أي شبهة عنها، لم تصدقني وتوقفت عن سرد حكايتها، كنت سعيدا بحضن جدتي، فيما كانت هي تربت على رأسي وتتمتم بتلك الكلمات التي لم أكن أفهمها، كنت قلقا، لكنني رغم ذلك رحت في نوم غويط في النهاية.

(٩٨)

في تلك الليلة وقبل رحيل عمي حامد بعدة أيام سقط في الحمام مغشى عليه، وحاول أبي فتح الباب مرارا، حتى استطاع أخيرا كسر الباب الخشبي بكتفه، كان بخار الماء كثيفا في الداخل، حيث شاهدنا عمي حامد واقعا هناك على الأرض، على بلاط الحمام، وكنا جميعا نصرخ، وبعد عدة دقائق فتح عمي حامد عينيه، وابتسم في وجوهنا، وكانت خالتي حنان تبكي في حرقة شديدة، نهض في تثاقل وهو يتساءل عما حدث، قال بأنها نوبة إغماء بسبب التعب والإرهاق ربما، وربما بسبب كثرة التفكير فيما سيحدث وربما بسبب رغبته في الانتحار التى انتابته كثيرا في اليمن، إنه يشعر بحالة من اليأس والقنوط كبيرة، صحيح أنه حصل على كثير من النقود بسبب وجوده في اليمن ، لكن كيف يبتعد عن حنان بهذه الطريقة وفي هذا الوقت، هاهي ابنته تولد وهو غير موجود، وهاهي خالتي حنان حامل للمرة الثانية وهو لايعلم إذا كان سيكون موجودا أم لا، يصرخ فينا جميعا ويحاكمنا، لاعنا كل شئ، يبكي وتبكي خالتي حنان ويبكي أبي، ولم نكن ندرى ماذا نفعل، وأخيرا قال بأنه هذه المرة ذاهب إلى سيناء ربما سيقاتلون الإسرائيليين، وهو لايعلم سببا لهذه الحرب المفاجئة، ربما كان رافضا لفكرة الحرب، لكنه كان رافضا أيضا للتشتت غير المبرر من وجهة نظره، كان أبي يستمع إليه صامتا، تحدثا عن عبد الناصر وحبهما له، وبأن مايحدث خارج حتى عن إرادة عبد الناصر نفسها، كان الجميع يحاول اغتيال الثورة ومنجزاتها كان هذا هو رأي أبي في النهاية، وكان علينا أن نقاتل في كل مكان من أجل أن تعيش الثورة، وانتهى الأمر في النهاية بأن أصبحا هما الاثنان وقودا من وقود الثورة، هذا هو ماقاله لي عمي خضير أخيرا، وردد أيضا بأننا أيضا وقود للثورة، وأن الاستعمار لن يتركنا نهنأ بحريتنا لأول مرة في تاريخنا، الجميع يتعقبوننا، يرون أنه من الكثير على هذا الشعب أن يكون حرا، صحيح أننا لم نكن في حاجة إلى حروب جديدة، كنا في حاجة إلى أشياء أخرى كثيرة ليس من بينها الحرب، على الإطلاق ليس من بينها الحرب، قال

بأنه شخصيا يبحث عن الهدوء وعن الراحة، لكن علينا مواجهة الأمر جميعا، ولم يكن من السهل النكوص، كان كل شئ على المحك، كان هناك من يرى بأن الحرية ليست جديرة بنا، كنا في نظر هؤلاء شعبا يجب أن يظل بلا حرية، سلة لبطون السلالة البيضاء فقط، لقد لعبنا هذا الدور في الماضي، وعلينا أن نلعبه في الحاضر.

(٩٩)

قال لي عمي خضير بعد أن انتهينا تماما بأننا يجب أن نذهب إلى أم أمل، كنا نصعد طريق الملاحات نحو منزلها هناك في القابوطي، لم نجد أحدا في الطريق سوى عربات الجيش التي كانت قد بدأت تتحرك في كل مكان وتحتل المدينة، كان كل شئ خاليا في تلك اللحظة من المعنى، أقسم عمي ليانى طلاقا بالثلاثة بأن آخر ماسيفعلة هو الذهاب لرؤية ما إذا كانت أم أمل موجودة أم لا، كان مصرا على ذلك، سرت بجانبه أقضم هذا الرغيف المحشو بالجبن الرومي الذى أعطاني إياه الضابط بعد مغادرتنا، وكنت قد انتهيت منه حين أحسست بالعطش، في أول منزل خبط عمي الباب، خرج لنا رجل عجوز، طلبنا منه شربة الماء فأعطانا ماطلبنا ودعانا للدخول لكن عمي خضير رفض بادعاء أننا على عجل من أمرنا، ابتسم الرجل لنا وقال :

- أني موجود إذا احتجتوا أى حاجة من هنا..

ثم دخل وأغلق الباب، وصلنا حتى بيت أم سناء، أخذ عمى ينادي لكن لم يجبه أحد، أسقط في يده، فأخذ يلعن كل شئ كالعادة، لكنه كر راجعا إلى الرجل العجوز مرة أخرى، خبطنا الباب فخرج إلينا سأله عمي خضير إن كان يعلم أي شئ عن أم سناء، قال له بأنها رحلت أول أمس إلى المنصورة، وسأله إن كان هو خضير، فلما قال له عمي إنه هو بشحمه ولحمه، قال له الرجل العجوز بأنها تركت له رسالة!.

كان خطابا من خمسة سطور تقريبا تقول له فيه بأنها تنتظره في عنوان محدد بالمنصورة، إذا كان يريد أن يأتي وبأنها انتظرته طويلا؟! لكنه لم يأت، ضحك عمى خضير طويلا، وكنت أبتسم معه، كان هذا أول ضوء لنا في هذا الليل الطويل، أخيرا نقترب من الباب للدخول أو الخروج، وعلينا أن نختار.

(١٠٠)

لم يكن عمي خضير يعلم أين أنا، فبقي لدى (ياني) أربع ليال قلبا فيها بورسعيد بحثا عني، وأقسم بأنه لن يتحرك من مكانه حتى يجدني، كان لدى يانى الكثير من الخمر، فظلا يعبا منها ليل نهار حتى أتى لهما عسكرى من الكراكون يخبرهما بمكاني، انطلق عمي خضير ويانى ومعهما الصغيرة هدى إلى الكراكون أولا، ثم إلى على الشاطئ، كانا قد اتفقا أخيرا على أن ينسى عمي خضير موضوع هدى ابنته، وأن يدعها تماما لياني، كان (ياني) كريما وعطوفا، وكان يعلم بأنه لن ينجب من المرأة التي تزوجها والتي كانت يوما ما عشيقة لعمي خضير، لأنه ببساطة لايستطيع الإنجاب، كان الأمر معقدا وعليهما هما الاثنان بأن يرضيا بكل ماجرى، وليس عليهما نكأ جراح قديمة لامفر من إغلاقها، لأن فتحها لن يفيد أحدا وسيزيد الأمور تعقيدا، ولم يكن عمي خضير يملك شيئا ليقدمه لها، كان على قناعة تامة الآن بأن خيار ابنته يجب أن يكون مع (ياني) وليس مع أحد آخر، كانت الحرب وسيلة لاندمال جروح عمي خضير، وكانت على العكس معي، كان يقبلها ويحتضنها وهو يعلم بأنه قد لايراها مرة أخرى، ولم يعلم أحد آخر في العالم بعدى بما تم، كان قد استسلم تماما لتلك الفكرة، وعليه أن يعيد حياته ويبحث عن زوجته وبناته منها، وكان عليه أن يسير معي في الطريق، قال لياني إنه لم يعد لديه في الدنيا في تلك اللحظة غيرى، وأنه يجب أن ينتبه جيدا من الآن لما سنفعله هو وأنا، كان قد أخذ كفايته من اللهو في حياته، وعليه الآن أن يثبت للجميع العكس، كان قادما إلى المعسكر لدى الضابط الكبير يحمل كل هذه الكلمات إلي، أخبرني بها بعد أن خرجنا من بورسعيد باحثين عن أهلنا، عن الجميع، كانت الطرق تبدو متفرعة، وكان علينا أن نختار هو وأنا من أين نبدأ المسير، كان الأمر صعبا للغاية، وكنت متعلقا بأمل وحيد هو أن أرى أمي وجدتي ولم أطمح في أي شئ آخر بعد ذلك.

(١٠١)

لم يكن هناك مفر أمامي من أن استسلم أخيرا لفكرة موت كريستينا، لقد فقدت الكثيرين، ولم يبق لي سوى أبوللو، وعمي خضير، الذي كان الضابط قد أخذ يبحث عنه بعد

أن كتبت له بأنني جئت معه وأنني تركته عند ياني، فاتصل بالكراكون حتى أتي (ياني) وعمي خضير وهدى كانت معهما، احتضنتني كثيرا، وبكى عمي خضير، وكان يتوقع بأنني قد مت، أما (ياني) فقد أخذ يربت على رأسي وهو يردد.

– الحمد لله..

وكنت أتطلع إليه بدهشة وهو يقول ذلك، وحين قال عمي خضير بأننا يجب أن نرحل لكنني أخبرته بأن ينتظر، طلبت من الضابط زجاجه فارغة بفلينه من زجاجات منقوع الصرم التي كانت لديه، وجلست هناك وكتبت خطابي الأخير لأبوللو، لم أكن أريد منه أي شئ هذه المرة، كان قلبي قد أصبح مشطورا بين موت كريستينا وربما موت أمي، إذ لم أكن أعلم الحقيقة بعد، كان الوقت ليلا وكنت قد قاربت على الانتهاء من كتابة رسالتي إلى أبوللو، وكان عمي خضير قد اتفق معي بأننا سنخرج الليلة من بورسعيد إلى القاهرة أولا للبحث عن أبي، وربما نذهب للمنصورة أولا أو لأبو زعبل فربما يعلم إخوة أبي شيئا عنه، وكان الضابط يحاول إجراء بعض الاتصالات لمعرفة موقع أبي، لكنه حين علم بأنه معتقل توقف عن المحاولة قائلا بأنه من المستحيل في هذا الوقت معرفة مكانه، كما أنه تردد كثيرا قبل أن يقبل بفكرة ذهابي وأنا على هذه الحالة، لكنه قال أخيرا بأن علاجي في القاهرة سيكون افضل.

كنت قد انتهيت من كتابة رسالتي الأخيرة ووضعتها داخل الزجاجة البيضاء، وقمت بتمزيق الملصق الذي كان عليها، وبدأت أتقدم نحو الماء، وكانت هدى وياني وعمي خضير والضابط يتابعونني.

(١٠٢)

كان علي أن أقترب من ماء البحر، كان الليل قد فرش المدينة بظلال عميقة تزداد سوادا مع الوقت، كنت أمسك بتلك الزجاجة الفارغة وقد وضعت خطابي الأخير فيها، لم يكن مهما ماقلته له هذه المرة، كتبت كثيرا، ولم أستطع أن أتذكر ماكتبته إلى الآن، قلت ربما إنني خائف من أن يموت وينتهي شأنه شأن الآلهة الكثيرة التي عاشت من قبله ومن بعده، قلت له إنني شاهدت جبل الأوليمب في السينما، واكتشفت أنه مرتفع عادي، ربما الأهرام أعلى منه، ربما بعض التلال التي رأيتها في تلك الجزيرة خلف بورسعيد كانت أعلى منه، وأيقنت أنه من

المستحيل أن تعيش الآلهة في هذا المكان المرتفع قليلا عن الأرض، ومن المستحيل أن يصعد إليه كل هؤلاء البشر، إنهم يصعدون في جماعات ويهبطون، هناك في الأعلى لم يكن يوجد شئ، هل آمنت أنا بما هو غير موجود، وبما صنعه خيالي، وبما عشت معه سنوات طويلة، ربما علي أن أقلب الأمر من الناحية الأخرى، أن أؤمن بأنه موجود في مكان ما، فوق تلك السحب هناك في أتينا في بلاد الجريج، وبأنه ترك مكانه منذ زمن طويل فوق جبال الأوليمب، ولكنني كنت متأكدا بأنه ساعدني كثيرا من قبل، لكنني أيضا احتجت إليه في أوقات لم يظهر فيها، كنت في أشد احتياجي إليه، حين مات جدي وحين ماتت أمي إذا كان كلام عمي خضير صحيحا، ولم أكن متأكدا حتى من أن هذا صحيح!!.

أيقنت بأنني أعبث بأفكاري وبكل معتقداتي القديمة عنه، كيف يمكنه الآن أن يثبت لي بأن كل أفكاري عنه غير صحيحةظ وهل كنت أنا الذي يفكر أم كان أحدا آخر؟ وكيف تشعبت أفكاري لتذهب إلى هذا المنعطف؟ أليس بسبب احباطاتي المستمرة حيث شعرت بأنه ربما.. ربما لم يكن موجودا منذ البداية، ربما لم يكن موجودا فعلا منذ البداية وأنني أنا الذي خلقته بعقلي، ألم يكن عوض الحارتي مجنونا ليقنعني بأنني يمكن أن يكون اسمي ابن أبوللو زيوس، ألم يدفعني من طرف خفي إلى أن أقول ذلك للضابط؟ ولكن لماذا غير الضابط رأيه فجأة فيما كان يفعله معي، لماذا؟ ولماذا ظهر العربي فجأة لي في الجبانات حين كنت وحيدا؟ ولماذا أصيب سيد الفحام في رأسه وقدمه وكنت وحدى أنا وأخته عاريان في الماء؟ ولماذا ولدت في الماء أنا وحدي دون الكثير من الناس، ولماذا كانت جدتي تحكى لي تلك الحكايات الغريبة؟ ولماذا اختطف ملاك الموت جدي فجأة أما عيني، وكانت السيجارة في فمه؟ ولماذا مات جدي الآخر بجانبي على السرير؟ أليس كل ذلك يبعث على الحيرة، هل كان على أن أفكر في ذلك؟ لكنني كنت أعود للابتسام حين أتذكر أفعاله الحقيقية في أكثر من موقف، حين كانت تغلق كل الطرق أمامي ليفتحها فجأة، يفتحها ويخرجني من الظلمات التي كانت تتكاثف فجأة، وكان خيالي دائما مطلق السراح، كان ذلك لغزا لا يمكنني حله، أليس ذلك من صنع إله، أم أنه قانون الصدفة، على أن أخرج قانون الصدفة من حساباتي إذا أردت أن أستريح وأن أقفل باب عقلي على ذلك، لكني أبدا لم أفعل ذلك، تاريخ تلك الأشياء يبقى كما هو لايتغير.

(١٠٣)

أقترب من الماء حاملا تلك الزجاجة التي أودعتها رسالتي الأخيرة لأبوللو، كان البحر عريضا للغاية، كأنني لم أره عريضا من قبل، كنت أسير تتساقط أمام عيني كل قناعاتي السابقة التي كنت حتى الآن أتشبث بها، كانت الحرب قد انتهت تماما بخروج الجميع من المدينة،.. وظننت أنه لم يبق بها سوى عمي خضير ويانى وزوجته وهدى وأنا والعربي وزوجته وبعض الجنود وهذا الضابط الكبير، أمشى بخطوات ثقيلة نحو الماء، أحاول أن أنصت لهسيس الموج وفقاقيعه التي تنفجر توحي لي بأشياء شتى، لكنني لاحظت أن هسيس الماء انقطع وأن الموج وانفجارات الفقاقيع لم تعد تقل لي شيئا، كان الرباط السري الذي يربطني بالماء قد انقطع تماما، ولم تبق معى سوى تلك الزجاجة الفارغة إلا من رسالتي الورقية بها، وكان الضابط واقفا يتطلع إلي هناك هو وعمي خضير، كنت مصرا على إلقائها في الماء، وكنت أدعي بأن هذه هي رسالتي الأخيرة لأبوللو، ربما في زمن ما يحقق لي جميع أحلامي الضائعة، دخلت إلى البحر حتى أصبح الماء حتى صدري، كنت أتطلع إلى الأمام في تصميم، قبضت على الزجاجة في عنف ثم رفعت يدي واطحت بها إلى أقصى مسافة، دارت في الهواء دورات عديدة ثم سقطت، وقفت ألاحظها وهي تسقط ثم تنسحب مع الجزر، ثم اختفت تماما فقفلت راجعا، إليهما وكانت عيناي قد امتلأت بدموع كثيرة لاأدري من أين؟؟.

(١٠٤)

هل يمكن أن أتخيل للحظة أن أبوللو من لحم ودم، كانت تلك البقعة من الأرض غريبة هناك بالقرب من الملاحات، فقد كان لون الملح أزرق لازورديا، وكانت على سطحه تتناثر تلك الأحجار الساخنة التى تلوثت بالدماء، أحجار ذات أحجام مختلفة، وكان هناك أيضا جواد يموت نائما على جانبه، كان فاتحا عينيه وصوته يتردد في هدوء، يغلق عينيه ويفتحهما، كان يحاول أن يتكلم كنت ألاحظ ذلك وكنت فاغرا فمي من تلك الدهشة الممزوجة بالألم التي

تعتريني، أما الجواد الثاني فكان ملقى بلاحراك وكان الدم يسيل من فمه، كان الأول أبيض اللون وكان الثاني بنيا إلى درجة الاحمرار، وكانت بقايا عربة حنطور سوداء ذات خطوط ذهبية وحمراء ملقاة على جانبها ولم يكن هناك شئ آخر، وقد فقدت عجلاتها التي كانت على مبعدة من المكان، كنت أفكر في ذلك، وأيقنت في تلك اللحظة أن هذه الدماء لأبوللو، وأنه ربما يكون قد مات أو أصيب أو جرح جرحا كبيرا، وأنه اختفى ربما هنا أو هناك يبحث عن ما يدرأ به جرحه، وربما يكون قد فقد قدرته كإله تماما، وتحول إلى بشر مثلي، وربما يكون قد اختفى للأبد، وربما لن أستطع رؤيته بعد الآن، ربما انقطعت علاقتنا نهائيا، ربما قرر الانتحار أو يتركني ظانا منه أنني كبرت واستطيع الدفاع عن نفسي، كانت هناك آلاف الإجابات، ولكن السؤال كان واحدا ، أين ذهب أبوللو إلى الأبد؟؟! كانت نفسي تحدثني أيضا بأن هناك شيئا ما سيحدث لعبد الناصر، لم أكن أجد فرقا كبيرا بينهما أحيانا، كان خيالي يسمح بهذا التجاوز لما هو إله ولما هو بشر، وكنت أخلط أحيانا بينهما، كانت دماء أبوللو المتناثرة توحي لي بأن هذه دماء عبد الناصر أيضا، إذن لقد نالت الهزيمة من الاثنين أخيرا، كنت أعتقد بأن الحياة ستعطيهم كل شئ، لكن الحياة هكذا تأخذ بقدر ما تعطي، وهج الأسماء ثم انطفائها، كل الأبراج العالية التي صنعتها داخلي انهارت كأنها كتل من الرمال والطين، ألم يحدثني الماء بذلك من قبل، ليس الموج وإنما تلك الفقاعات الصغيرة التي كانت تهمس لي بكل ذلك ّ! ألم يحدث ذلك من قبل في التاريخ، لماذا مرتبط أنا بالتاريخ على هذا الحد؟ أتذكر اللقاء الأول مع عبد الناصر كأنه اللقاء الأول مع أبوللو، حين رأيته على جانب الرئيس اليوغوسلافي تيتو، لماذا أتخيل أنني رأيت أبوللو في نفس اليوم، هل كان ذلك حقيقيا أم من صنع خيالي، أين تكمن خلايا الخيال في عقلي الصغير، قال لي عوض الحارتي أنها الخيالات التي تصنع البشر ترقد هناك في سراديب تلك الجمجمة الصغيرة التي تعتلي رؤوسنا، أين موقعها على وجه التحديد، كانت هي السبب في كل هذا اليأس الذي يتملكني، وكل الابتهاجات التي عشتها دون أن تكون حقيقية!.

..

مشيت حتى المعدية وكان عمى خضير يغنى أغنية صباحية لفيروز لم يغنها من قبل، وكان مستيقظا تماما وهو يقبض على يدي بقوة فاضطر للقفز معه في كل حركة من حركاته، وكانت قاعدة تمثال دليسيبس خلفنا، وكنت أرى المعدية غارقة في القناة، وكنت أعلم بأنني ربما فقدت الكثير من أحبائي إلى الأبد، وكان أولهم أبوللو، لكنني كنت أمني أحلامي وأنا أسير بأنه يوما ما سوف يعود كل شئ كما كان، وكذلك كان الحال بالنسبة لأبوللو، ولم أكن منزعجا من مسألة فقداني لصوتي، كنت أعلم أنه سيعود، فقط كنت أتسائل متى؟، وكنت أيضا

أحاور في تلك اللحظة جنياتي الصغيرات، ولم أشك أبدا بأنهن غير موجودات، كنت قد بدأت أكلمهن في العلن، ولم أكن أهتم كثيرا بما يقوله الناس، تركت نفسي لما أريد أن أفعله، ولم أعد أهتم كثيرا، تاركا لهم السؤال عن سبب كلامي إلى نفسي، لكن تركت لنفسي سؤالا واحدا عن مكان أبوللو وهل مات أم لا؟!

كانت جنياتي الصغيرات يضحكن ويتراقصن حول رأسي أو في تلك النجوم البعيدة، وكانت وجوه من أحبهم تملأ السماء، كنت أعلم أيضا بأن تلك النجوم البعيدة ستظل تدور، وأنها لن تتوقف عن الدوران بسبب موت أحبائي أو موت أبوللو، فهكذا الحياة!.. يموت فيها الانسان والآلهة والمدن كل يوم، لكنهم في مكان آخر من جديد يخلقون.

عوض الحارثي